



الأدب العربي في جزر البليار

تأليف

الدكتور عبد الرزاق حسين

أستاذ الأدب العربي بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن

الكويت

2004

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعته الباحث
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
سيدي ولد الأمجاد
بإشراف
عبدالعزیز جمعة

الصف والإخراج والتنقيذ
محمد العلي
أحمد متولي أحمد جاسم
قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمك: 3 - 08 - 72 - 99906 ISBN
رقم الإيداع: 2004 / 00282 Depository Number

الطبعة الثانية
من منشورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
الكويت ٢٠٠٤

الطبعة الأولى
من منشورات دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية ١٩٩٤

حقوق الطبع محفوظة

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

تصدير...

كتاب هام، يقتحمُ عوالمَ كانت شبه مجهولة في فضاء الأندلس الواسع، ويربط لنا بين حلقات عصر أدبي زاهر، بعد أن انفرد عقده الثمين في مجاهل النسيان، وتوارت نجومه الساطعة في ليل طويل حزين.

إنَّ جزر البليار - كما تتجلى هنا في دراسة الدكتور عبدالرزاق حسين - تعتبر بحق إحدى أهم المراسي التي ارتفعت فوقها راية الأدب العربي شامخة ررافة بالضياء.

وإنني لسعيد جداً، وأنا أقرأ مثل هذه الإصدارات التي ما فتئت تقدمها مؤسستنا لقرائها الكرام في كل مكان، والتي تكشف باستمرار عن الجديد والطريف في المراحل المختلفة لتاريخنا الأدبي، بهمة باحثين كبار، أدمنوا السُّرى في ليالي الأندلس، بمشكاة من الفهم الثاقب والتنقيب الجاد بين طيات الكتب والمخطوطات النادرة، إضافة إلى أسلوب البحث الميداني، وما يُفیده من مقارنة واستخلاص عميق.

إن دخول العرب المسلمين إلى هذه الجزر ومساهماتهم البارزة في مسيرة الحركة الأدبية والثقافية، فرصة رائعة أنجبت لنا أعلاماً من الشعراء والأدباء والكتّاب، أماط هذا الكتاب القيم اللثام عن الكثير من جوانب حياتهم الزاخرة وإبداعاتهم الباهرة.

والمؤسسة بإعادتها طبع هذا الكتاب «الأدب العربي في جزر البليار» لمؤلفه الدكتور عبدالرزاق حسين، إنما تعزز بذلك قائمة منشوراتها عن التاريخ الثقافي والاجتماعي في الأندلس عمومًا، ضمن قافلة تزدد كل يوم حمل بعير، خاصة ونحن نسعد بمشاركة العديد من الأدباء والمثقفين في الدورة التاسعة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري «دورة ابن زيدون» في قرطبة ٢٠٠٤م.

فللمؤلف منا جزيل الشكر، على ما بذله من جهود مضيئة في هذه الرحلة التاريخية إلى جزر البليار المنسية في الأندلس، كاشفًا في محطاتها عن ذخائر وجواهر لا تنسى من رصيد حضارتنا وتراثنا العربي.

وهكذا نلتقي دائمًا في سفينة واحدة ذات ألواح ودسر، تمخر بنا عباب البحار والمحيطات، بحثًا عن كنز مفقود، أو طيف بعيد وراء الحجب والأستار، خدمة لتواصل الأجيال، ورسالة الفكر والثقافة في نشر مبادئ التسامح والتقارب، وحوار الحضارات بين العلوم والآداب والفنون الإنسانية، في زمن بات بحاجة أكثر إلى صوت الحكمة والعقل، حتى تتجاوز شعوبه ظلمة التعصب الأعمى والعنف المقيت، إلى شاطئ الأمان والحرية والمعرفة.

فهل نساهم جميعًا أينما كنا، في عملية التنوير وفتح النوافذ المغلقة، كي يذهب الأطفال صباحًا إلى المدارس، ويعزف قائد الفرقة نشيد السلام، ويلقي الشعراء: لوركا والمتنبي وطاغور وسعدي الشيرازي قصائدهم أمام الجمهور في غرناطة وحلب وبغداد. هذا ما أتمناه.

والله ولي التوفيق،

عبدالعزیز سعود البابطين

الكويت في جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ

الموافق أغسطس ٢٠٠٤ م

مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والسلام على خير الأولين، والآخرين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين وبعد:

فهذا بحث بكر في بابه، غرض في إهابه، لم يتناوله - على حد علمي - قديم أو محدث.

ولم يرد ذكر أدب هذه الجزر إلا كعجالة راكب، أو حياء من عاتب عند القدماء والمحدثين على السواء، فالمقري يقول في ذكره العارض لهذه الجزر: «وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة وبينهما خمسون ميلاً... وجزيرة يابسة، واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول، ولو تُتَبَّعَ لكان تأليفاً مستقلاً»^(١).

وابن الخطيب يُعرض عن الحديث عن أدب البليار لأنه كما يقول: «وليس الكلام في منورقة من شرط الأخبار الأندلسية، ولكنه أنسب إليها منها إلى غيرها، إذ لم تزل راجعة إليها، وتابعة لأحكامها، فهذا وجه المسامحة»^(٢).

وإنما هو تعلق لا انتماء، وارتباط جوار لا ارتباط انتساب، وكذلك ابن سعيد يعد هذه الجزر الشرقية «مضافة إلى الأندلس»^(٣).

ولعل المحدثين تمثلوا كلام ابن الخطيب وابن سعيد، فاعتنوا بالظاهر عن النافر، واستبدلوا الغوص بالعوام، والبعد بالقرب، والصعب بالسهل، ولذلك لم أجد ممن كتبوا

(١) نفح الطيب ١/١٦٩.

(٢) أعمال الأعلام ٢٧٧.

(٣) المغرب ٢/٤٦٥.

عن أدب الأندلس من يحتفل بجزر البليار، أو يتحدث عنها قصداً أو عرضاً، ولعل لبعضهم العذر في هذا الإعراض، لكونهم تخصصوا في جزئية من أدب الأندلس، ولكن الذين كتبوا الدراسات العامة في الأدب الأندلسي، ولم يلتزموا بفترة تاريخية أو بقعة جغرافية فقد تصدوا لمراكز الأدب الرئيسية في الأندلس: كقرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها من مراكز صناعة القرار السياسي، وأهملوا ما عدا ذلك، وفي ذلك تقصير، أما أولئك الذين ركزوا دراساتهم على عصر ملوك الطوائف، وعصري المرابطين والموحدين فلا عذر لهم في هذا التجاهل.

وإذا كانت هذه الجزر قد خرَّجتْ لنا من أبنائها عدداً من الشعراء الكبار، وضمت بين جوانحها عدداً ضخماً من الشعراء الذين وفدوا عليها من الأصقاع المختلفة في الأندلس، وصقلية والمغرب مثل: ابن اللبانة، وابن حمديس، وابن البني، وأبي العرب الصقلي، والفتح بن خاقان، وثابت الجرجاني، وابن سهل الإسرائيلي، وابن يامن، وابن مطرف، وابن خطاب الهنتاني، وكثير الأديب، وابن العوام الإشبيلي، وكثير غيرهم، فإن هذه الجزر ظلت مملكة مستقلة أو إمارات متميزة لفترة طويلة من الزمن، لانقطاعها عن الأندلس، وابتعادها عن مصادر الخطر الإسباني كما هو واقع الأندلس، فبينما كانت تتساقط مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى بعد النصف الثاني من القرن السادس الهجري، كانت جزائر البليار دولة مستقلة، تقض مضاجع جنوة وبيزة وسردانية، وساحل إيطاليا الغربي، وجنوب بلاد الفرنجة، وإمارة قطلونيا الإسبانية والبروفانس، ووجدناها في حكم بني غانية، تمد ملكها، إلى ساحل أفريقيا، وتهاجم الموحدين في عقر ملكهم، ويسيطر أميرها يحيى بن غانية، على كثير من أملاكهم في طرابلس، وقابس وبجاية، وقفصة، وتوزر، ومليانة، ومازونة، وغير ذلك من بلاد الشمال الأفريقي.

كذلك فإنه بعد سقوط ميورقة ويايسة، فقد ظلت منورقة تحت الحكم الإسلامي ما يزيد على النصف قرن، تحت حكم الرئيس أبي سعيد بن الحاكم القرشي، ومن هنا

فإن جزر البليار وأدبها الذي يمثل جزءاً هاماً من الأدب الأندلسي يستحقان إبراز دوريهما وإظهار مكانتيهما.

والباحث في جزر البحر المتوسط يجد نفسه مشغولاً بتتبع الأحداث الهامة، والمعارك البحرية، والأساطيل المختلفة التي تجوبه ليل نهار، تجارة أو حرباً أو استطلاعاً، في هذه الحقبة التي شهدت صراعاً عالمياً للسيطرة على هذا البحر.

والمسلمون منذ أول معركة بحرية خاضوها ضد الرومان في ذات الصواري زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وهم يسعون بجد ومثابرة للسيطرة عليه، وجعله بحيرة عربية إسلامية، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً، وبخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين خضعت لهم قبرص واقريطش - كريت - وصقلية، وسردينيا، وجزر البليار ومالطة، وتحولت الأساطيل العربية الإسلامية تجوب عبابه، وتشق أمواجه صاعدة هابطة، إلى موانئ أوروبا.

وكان البيزنطيون وحكام أوروبا يصارعون من أجل القضاء على هذه القوة البحرية الإسلامية، وكثيراً ما اصطدموا بالمسلمين في معارك عديدة، كانت انتصاراً للمسلمين، إبان قوتهم، ثم بدأت تتراجع وترجع كفة العدو أحياناً في فترة انقسامهم، إلى أن رجحت أخيراً عندما وهنوا وضعفوا وتفرقوا، وبدأت هذه الجزر التي نعمت بنور الإسلام تعود إلى النصرانية، فسقطت صقلية، وكريت، وجزر البليار، ومالطة، وكل ذلك نتيجة للانقسام والتمزق في أوصال الدولة الإسلامية.

ومع أن تلك الطوائف التي مزقت الأندلس سياسياً، وسهلت على العدو ابتلاعه جزءاً جزءاً، إلا أنها مكنت لازدهار ثقافي بلغ أوجه، وسطع نجمه، وظلّ عبر الزمن قمراً وضاءً نرنو إليه، وننسج من خيوط أشعته الفضية ثوب أحلامنا الوردية بمجد يعود، في التاريخ الذي يعيد نفسه، فنرفل في دمشق النصر، ونلتف في وشاح المجد، وتهتز على عوائقنا أكاليل الغار.

وإذا كانت أضواء هذا الأدب وهذا الازدهار قد تألقت وتلاّأت في مدائن عدة من الأندلس، وفي بلاطات ملوكها: كبلاط بني عباد في إشبيلية، وبني جهور في قرطبة، وبني هود في سرقسطة، وبني صمادح في المرية، وبني عامر في بلنسية، وبني زيري في غرناطة، وبني ذي النون في طليطلة، وبني الأفطس ببطليموس، إلى آخر هذه الدويلات التي تنادت لرفعة الأدب، وتسابقت تمد يدها لمنشئيه ومحترفيه، وتبوءهم أعلى المناصب، وتفسح لهم في صدرها أعزّ المكاسب، فإن جزر البليار منذ أن أصبحت عضواً في جسد الدولة الأندلسية الإسلامية – على الرغم من انفصالها الجسدي عن شبه الجزيرة برياً وأحياناً سياسياً – لم تحظ بالاهتمام والدراسة، ولم تلق من العناية ما لقيته تلك الحواضر، وكأن العواصم تأخذ البريق دائماً، ولهذا عشت العيون عن ذلك النور الذي كان ينبعث على البعد من تلك الجزر النائية (ميورقة ومنورقة ويابسة).

وقد نرانا مضطرين لأن نخلط بعض الحديث في أولياته في البليار ببعض الحديث عن دانية عاصمة مجاهد وابنه علي، ولكن هذا الحديث يخفت صوته في أيام مجاهد الأخيرة حيث ظهر اهتمامه العظيم بأمر البليار لأسباب عدة منها:

١ – مراسيها الصالحة.

٢ – وجود الأخشاب لبناء السفن والمراسي.

٣ – قربها من السواحل النصرانية حيث يسهل استخدامها كقاعدة للانطلاق في غزوات سريعة، والعودة إليها كملجأ أمين.

إلى جانب أن دانية لم تعد تؤثر في هذه الجزر حيث سقطت في يد ابن هود من علي ابن مجاهد عام ٤٦٨هـ وهنا بدأ استقلال هذه الجزر على يد واليها عبدالله المرتضى استقلالاً تاماً.

وإذا كان موضوع أدب البليار يتشعب ويتناثر نثرات متفرقة بين شعراء من أبنائه هاجروا منه، وبين شعراء وافدين على مراحل، وبين احتلال وفتح، ومخاطر ومخاوف، فإنني قد استطعت - بحمد الله - أن أضمه في باقة منسقة من زهور شتى، وأنا ضامن - بعون الله - أن هذه الزهرية بأزهارها وورودها ستنال إعجابك في الشكل واللون والرائحة، فعبقها من ورد المجد، ولونها من لون النصر، وشكلها من ذلك التشكيل الإسلامي والتنسيق الإيماني، إنه التشكيل التاريخي والثقافي الذي كنا مهندسيه وسادته.

وقد كنت أود أن أجعله في بابين، فأجعل باباً للشعر وآخر للنثر، ولكني في ميدان النثر لم أستطع الحصول على كمية وافرة تجعله صالحاً لأن يكون باباً مستقلاً، فأثرت عند ذلك أن أسير على نظام الفصول، حيث بدأت بمقدمة أبنت فيها عن إعراض المؤلفين في القديم والحديث عن الاهتمام بهذا الموضوع، لذلك فهو موضوع جديد كل الجدة لم يبحث فيه قديم أو محدث.

ثم مهدت بلمحات جغرافية وتاريخية ألقيت الأضواء فيها على هذه الجزر، ومسمياتها وأهميتها الجغرافية، وأفضت في الحديث التاريخي عن دخول المسلمين للبليار، وتحدثت عن أصل الصقالبة، وأصل مجاهد العامري ونشأته، واهتمامه بهذه الجزر، وعرجت على ابنه علي الذي في نهاية عهده أصبحت البليار مملكة مستقلة، وبعد ذلك وضحت ما تعرضت له هذه من حملات، وبخاصة السقوط الأول لميورقة على يد خايي الأول، ثم عودتها إلى حوزة المرابطين، ثم استقلالها من قبل بني غانية، ورجوعها إلى الموحيدين، وأخيراً سقوط ميورقة ويابسة، وبقاء منورقة تحت حكم سعيد بن حكم إلى أن سقطت في عهد ابنه الحكم عام (٦٨٦هـ - ١٢٨٧م).

وقد بسطت القول في أدب هذه الجزر الذي ظهر في ستة فصول: تحدثت في الفصل الأول عن الازدهار الثقافي الذي شمل هذه الجزر، وأبنت عن المشاركات القيمة لأبناء الأندلس في هذه النهضة الثقافية الرائعة.

وفي الفصل الثاني انتقلت للحديث عن البلاطات الأدبية التي ظهرت في تلك الجزر فجمعت الشعراء والكتاب، وأذكت فيهم روح التنافس والإنتاج، فظهر لنا بلاط مجاهد العامري، وبلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان في ميورقة، وبلاط سعيد بن حكم في منورقة.

ثم أتبعته الحديث عن البلاطات الأدبية بفصل ثالث من موضوعات الشعر في البليار التي انتظمت في: «المدح، والوصف، والغزل، والإخوانيات، والمراسلات، والبليار في الشعر، وأغراض أخرى تضمنت: اللهو والهجاء والزهد والثناء».

وفي هذا الفصل أبنت عن قدر من التميز لهذه الأغراض لالتصاقها بهذا الجزر وبيئتها وطبيعتها الجغرافية والتاريخية والسياسية.

وعنيت في الفصل الرابع بشعراء البليار، فرحت أبحث عن أشعارهم، وأتبين سماتهم وخصائصهم وأغراضهم، واستطعت بمتابعة المصادر المطبوعة والمخطوطة أن أخرج بعدد طيب منهم، وهم: «إدريس اليابسي، وابن العطار اليابسي، وابن طُنيز الميورقي، والحميدي الميورقي، وعياش بن حوافر، وابن عبدالولي الميورقي، وابن عشير اليابسي، ومحمد بن إبراهيم العبدري، والعماري الميورقي، ويحيى بن غانية الميورقي».

وقد خصصت إدريس اليابسي وابن العطار بحديث مستفيض من بين شعراء البليار وذلك لتوافر جملة طيبة من أشعارهما، إلى جانب تميز كل واحد منهما بسمات خاصة، فإدريس اليابسي من أجود شعراء الأندلس شعراً، ومن أروعهم تصويراً، وأحسنهم تشبيهاً ووصفاً، وابن العطار من أولئك الشعراء الذين التزموا بالدعوة للجهاد، وجعلوا من أشعارهم سيوفاً مصلته في سبيل الله، ودعوات محفزة لهم الأبطال.

وخصصت الفصل الخامس للشعراء الوافدين على البليار، وتتبعته في إطارين:

الأول: الوافدون إلى ميورقة.

وهم: أبو جعفر بن البني، وابن اللبانة الداني، وابن حمديس الصقلي.

الثاني: الوافدون إلى منورقة.

وهم: ابن يامن، أبو عبدالله الجياني، وابن سهل الإسرائيلي، وابن عميرة المخزومي، وابن العوام الإشبيلي وكثير الأديب، وكان اهتمامي في هذا الفصل بدراسة شعر هؤلاء الشعراء الذي يخص هذه الجزر، دون الاهتمام بمجرى شعرهم العام.

أما الفصل السادس والأخير، فعرضت فيه للنثر التألّفي من خلال بعض مؤلفات البلياريين، وتوسعت في الحديث عن الرسائل الفنية والإخوانية، وأوردت بعض نماذج منها، واستخلصت بعض خصائص هذا النوع، ثم أبنت في لمحة سريعة عن النثر الوصفي الذي ظهر في منورقة.

وأخيراً ختمت البحث بخاتمة، استخلصت فيها نتائج ما توصلت إليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أ.د/عبدالرزاق الحاج عبدالرحيم حسين

الأحساء في غرة شعبان 1411هـ

الموافق: 15/2/1991م

— |

| —

— |

| —

تمهيد

لمحة جغرافية:

الجزائر الشرقية أو جزائر شرقي الأندلس هو الاسم الذي عرفت به تلك الجزر عند الفتح العربي، إذ أخذت هذه التسمية من موقعها الكائن شرقي الأندلس.

أما اسمها الحديث (جزائر البليار) وهو الاسم الذي سنستخدمه في بحثنا هذا، فهو كما تقول الدكتورة كليلا سارنلي تسمية حديثة لا توجد إلا في قواميس القرن الماضي^(١) تتكون هذه الجزر من أربع هي: «ميورقة ومنورقة ويابسة وفرمنتيرا، وميورقة أكبرها وهي عاصمة الجزر كلها، وفرمنتيرا أصغرها، ولا تذكر مع أخواتها في التاريخ القديم، ويبدو أنها كان مهجورة وغير صالحة لرسو السفن.

وقد اهتم المؤرخون والجغرافيون بالجزر الثلاث، مولين عناية فائقة لميورقة يتلوها منورقة، ثم يابسة، وقد ذكر المقرئ هذه الجزر الثلاث، فقال: «وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة وبينهما خمسون ميلاً، وجزيرة ميورقة مسافة يوم، وبها مدينة حسنة، وتدخلها ساقية جارية على الدوام، وفيها يقول ابن اللبانة:

بلد أعارته الحمامة طوقها

وكسأه حُلَّة ريشه الطاووسُ

وقال يخاطب ملكها في ذلك الوقت:

وغمرت بالإحسان أرض ميورقة

وبنيت ما لم يبنيه الإسكندرُ

وجزيرة يابسة، واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ولو تتبع لكان تأليفاً مستقلاً^(٢)».

(١) انظر مجاهد العامري ١٨٦.

(٢) نفح الطيب ١٦٩/١.

وطول ميورقة كما يذكر الحميدي في صفة جزيرة الأندلس من الغرب إلى الشرق سبعون ميلاً، وعرضها من القبلة إلى الجوف خمسون ميلاً^(١)، ويذكر ابن سعيد أن طولها أربعون ميلاً وفيها بحيرة دورها تسعة أميال وفيها حصون... وتدخلها ساقية جارية على الدوام^(٢).

ووصفها الشقندي بقوله: «وأما جزيرة ميورقة فمن أخصب بلاد الله تعالى أرجاء وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية وهي على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها، يصل فاضل خيرها إلى غيرها، إذ فيها من الحضارة والتمكن والتبصر وعظم البادية ما يغنيها، وفيها من الفوائد ما فيها^(٣).

ويعدّها الحميري أمّ الجزيرتين (منورقة ويابسة) وإليها مع الأيام خراجهما^(٤).

ويثني ابن حوقل على جزيرة ميورقة فيقول: «هي جزيرة في بحرهم منقطعة تلي الفرنجة، واسعة الخير كثيرة الثمار، رخيصة الماشية لكثرة المراعي، غزيرة النتاج والمواشي، معدومة الجوائح، قليلة الآفة، فليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم في سائمتهم^(٥)».

ومن مدنها المشهورة كما يذكر القزويني مدينة (الوطة): «وهي مدينة بجزيرة ميورقة، كبيرة حصينة طيبة الأرض رخيصة الأسعار، بها مياه غزيرة وأشجار كثيرة^(٦).

ولا تقل منورقة عن أمها ميروقة جمالاً، وخصوبة، فهي كما وصفها ياقوت الحموي «جزيرة عامرة في شرقي الأندلس^(٧) ويفصلها في البحر عن ميورقة خمسون ميلاً، وهي مستطيلة قليلة العرض^(٨).

(١) الروض المعطار ١٨٨.

(٢) المغرب ٤٦٦/٢.

(٣) نفح الطيب ٢٢١/٣ وانظر المغرب ٤٦٦/٢.

(٤) الروض المعطار ٥٦٧.

(٥) صور الأرض ١٨٥ والحلل السندسية ٥١/١.

(٦) آثار البلاد ص ٥٦٨.

(٧) معجم البلدان ٤٢٤/٥.

(٨) انظر المغرب ٤٦٩/٢.

وتكافؤهما في ذلك يابسة، فهي «جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعنان، وبها مدينة حسنة صغيرة.... وجزيرة يابسة عشرة مراس، وبها أنهار خارجة، وقرى كثيرة، وعمائر متصلة، وأرضها تنبت الصنوبر الجيد للعود للإنشاء وعُدد المراكب، وبها ملاحه لا ينفد ملحها^(١)».

وهي تمتد طولاً كما يذكر القزويني وطولها خمسة وأربعون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً^(٢) ويبدو لي أنها ضد اسمها، فعلى الصفات التي ذكرها الحميري والقزويني فإنها الخضراء لا اليابسة، إذ فيها من شجر الصنوبر والفواكه والأعنان ما يجعلها تتمتع بالخضرة طوال العام، ولعلها سميت بذلك لكونها يابسة في بطن هذا البحر أو المراكب، إذ «فيها ينشأ أكثر المراكب لجودة خشبها^(٣)».

ولعل من أسباب سقوطها وسقوط ميورقة هي هذه الأخشاب التي كانت تنقل منها لبناء السفن وإصلاحها، فقد كانت هذه المادة العسكرية من أهم أدوات الحرب في هذه الحروب البحرية.

لمحة تاريخية:

ارتباط التاريخ بالأدب لن تنفصم عراه على الرغم من بعض الاتجاهات والمذاهب الأدبية، وسيظل هذا الرباط وثيقاً شئنا أم أبينا، لأن صفحة التاريخ هي مرآة الأدب، وإن شئت قل: التاريخ بيت الأدب.

وتاريخ جزر البليار حافل بالحركة، متميز بنكهة خاصة، إنها نكهة البحر والأساطيل والغزو والقرصنة، والأطماع، ولست هنا بصدد التأريخ لهذه الجزر، وإنما هو عرض سريع لشريط هذه الجزر التاريخي المرتبط بدقة ببحثنا هذا، ومنذ ارتباط تاريخ هذه الجزر بأدبنا، ولذا سأحدث عن فتح المسلمين لهذه الجزر، ومن ثم مكانة

(١) الروض المعطار ص ٦٦٦.

(٢) آثار البلاد ٢٨٢.

(٣) معجم البلدان ٤٢٤/٥.

هذه الجزر في الدولة الإسلامية، وفي الخلافة الأموية للأندلس، وفي ملوك الطوائف، مروراً بعهدي المرابطين والموحدين، وانتهاءً بسقوط هذه الجزر وخروج الإسلام نهائياً بعد أن غربت شمس أبنائه.

دخول المسلمين البليار:

متى دخل المسلمون جزر البليار؟ ومتى تمت لهم السيطرة الفعلية عليها؟ وهل ارتبط فتحها بفتح الأندلس؟ وهل انضمت سياسياً، وثقافياً واجتماعياً للإمارة الأندلسية؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات يحسن بنا أن نبدأ مع أول تطلع إسلامي لهذه الجزر.

وإذا كانت جزر البليار - لقربها من الأندلس - ترتبط معها منذ القديم برباط المصير الواحد، فنجد تاريخاً مشتركاً في حوادثه ووقائعه، ونجدها تشاطر الأندلس محنة الغزوات المتتالية، فهي تخضع مثلها للاحتلال الإغريقي، يتلوه الفينيقي، ثم تعاني المعاناة المرة من نير الاحتلال الروماني.

وإذا كانت جزر البليار تمثل نقطة ارتكاز في البحر المتوسط إلى جانب ما شهرت به من جمال وخصوبة، فنحن لا نشك بأن الذي يريد السيطرة على هذا البحر سيمد نظره إليها، لما ذكرناه آنفاً، ولأسباب أخرى منها:

- أنها مركز دفاع عن الدولة الواقعة قبالتها ضد هجومات الغزوات البحرية وغارات القراصنة.
- تعد مركزاً جيداً لتأمين التجارة في هذا البحر.
- تعد نقطة انطلاق قريبة وملجأ آمناً لغزو السواحل القريبة.
- بالإضافة إلى ما تتمتع به هذه الجزر من خيرات وبخاصة جزيرة يابسة بأخشابها، حيث كانت مركزاً لصناعة السفن ومورداً لها.

ولعل هذه الأسباب تكفي وتبرر غزو المسلمين لهذه الجزر حتى قبل التطلع إلى الأندلس نفسها، فقد رُوي أن أول حملة إسلامية توجهت إلى هذه الجزر كانت سنة (٨٤هـ) ثم وجه لها والي أفريقية القائد موسى بن نصير بغزوة أخرى سنة (٨٦هـ) بقيادة ابنه عبدالله، فأصاب من الأسرى والغنائم الكثير^(١).

(١) انظر مجاهد العامري ١٩١.

ويبدو أن هاتين الغزوتين كانتا استطلاعتين، فلم يكن من مهمهما تثبيت الأقدام، ولعل ذلك راجع إلى بعد هذه الجزر عن المراكز الإسلامية في المغرب وقربها من مراكز الروم، وبداية أن تكون هذه الغزوات للاستطلاع والغنائم واستعراض القوة، وتأديب القراصنة الذين كانوا يغيرون أحياناً على بعض الشواطئ الإسلامية في الشمال الأفريقي.

ويذكر ابن خياط في تاريخه في حوادث سنة (٨٩هـ) «وفيها أغزى موسى بن نصير ابنه عبدالله بن موسى، فأتى ميورقة ومنورقة - جزيرتين بين صقلية والأندلس، وافتتحهما، وهذه الغزوة، تدعى غزوة الأشراف، كان معه أشراف الناس^(١) ويؤكد المقرئ أن الفاتح لجزيرة ميورقة هو عبدالله بن موسى^(٢) ومن هنا نفهم إشارة ابن عذاري حيث ذكر في حديثه في رحلة موسى بن نصير إلى المشرق، أنه صحب معه أشراف الناس من قریش والأنصار وسائر العرب، ومن وجوه البربر مائة منهم: بنو كسيلة بن لمزم، وبنو يسفور، ومزدانة ملك السوس، وملك ميورقة ومنورقة، ومائة من وجوه ملوك الروم الأندلسيين، وعشرون ملكاً من ملوك المدائن التي افتتحها بأفريقيا^(٣).

فهذه الإشارة لمصاحبة موسى بن نصير لملك ميورقة ومنورقة في رحلته إلى الخليفة الأموي دليل على خضوع هاتين الجزيرتين للحكم الإسلامي، وهذا يكفي للرد على تساؤلات الدكتور عبدالرحمن الحجي عن سبب عدم وجود إشارات مبكرة عن الفتح أو محاولات فتح هذه الجزر^(٤).

ولكن كيف نفسر الأخبار الأخرى التي تتحدث عن فتح هذه الجزر بعد هذا التاريخ بكثير؟

فابن حيان مؤرخ الأندلس يذكر فتحها في سنة (٢٣٤هـ) حيث جهز عبدالرحمن ابن الحكم أسطولاً من ثلاثمائة مركب إلى جزيرتي ميورقة ومنورقة لإضرار أهلها بمن يمر بهما من مراكب الإسلام ففتحوها^(٥).

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص ٣٠٢ وانظر المغرب ٤٦٦/٢ وتاريخ البحرية الإسلامية الجزء الثاني.

(٢) نفح الطيب ٢٧٩/١.

(٣) البيان المغرب ٤٤/١ - ٤٥.

(٤) انظر التاريخ الأندلسي.

(٥) المقتبس ص ٢ وانظر المغرب ٤٩/١.

ويذكر في حوادث سنة (٢٣٥هـ) «وفيها ورد كتاب أهل ميورقة على الأمير عبدالرحمن بن الحكم مستغيثين ممن دهمهم من سخطه، مستقيلين لعثراتهم لديه، راغبين في صفحه وإقالته، فعطف عليهم، وأقالهم زلتهم، وأجابهم إلى مسألتهم، وأعطاهم ذمته، وجدد لهم عهده^(١)».

ولكن ابن الخطيب يذكر أن هذه الحوادث تمت سنة (٢٢٥هـ) حيث يقول عن دولة عبدالرحمن بن الحكم: وفي أيامه انتقض المعاهدة بجزيرة ميورقة، فغزاهم في ثلاثمائة مركب، فافتتحها ثانية، وغزا بنفسه جليقية فافتتح حصونها، وسبى حريمها، وقتل مقاتلها، وذلك سنة (٢٢٥هـ)^(٢).

ومما يزيد الأمر تعقيداً ما ذكره الحميري بأن فتحها كان سنة (٢٩٠هـ)^(٣) على يد عصام الخولاني الذي تمكن من إعادة فتح هذه الجزر وتولاها عشر سنين فبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات^(٤).

ويبدو أن الغارات الإسلامية بدأت عام ٨٤هـ وتكررت عام ٨٦هـ وانتهت بفتح جزيرة ميورقة على يد عبدالله بن موسى بن نصير عام ٨٩هـ وهذا ما يفسر مصاحبة ملك ميورقة ومنورقة موسى بن نصير في رحلته إلى المشرق، ويبدو لي أن الفتح لم يكن فتح استقرار، وهذا ما يفسر انتقاض أهل هاتين الجزيرتين وإضرارهما بمن يمر بهما من مراكب المسلمين في عهد عبدالرحمن بن الحكم، حيث جهز حملة لإعادة فتح الجزر سنة ٢٣٤هـ، ويظهر أن الأمر استقر للمسلمين في هذه الجزر، إذ ظلت تابعة لهم حتى عام ٢٩٠هـ إذا انتقضت مرة أخرى، فأعاد فتحها القائد عصام الخولاني وبقي والياً عليها حتى سنة ٣٠٠هـ، وبعد وفاته تولى أمرها ابنه عبدالله ثم زهد في الولاية وغادر إلى المشرق حاجاً، فوليها الموفق وهو من فتيان الخليفة عبدالرحمن الناصر، «فأنشأ الأساطيل وغزا بلاد الإفرنج^(٥)». ومن بعده جاء الفتى كوثر الذي حكمها لمدة ثلاثين

(١) المقتبس ص ٤.

(٢) تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الأعلام ص ١٨.

(٣) الروض المعطار ٥٦٧.

(٤) انظر تاريخ ابن خلدون ١٦٤/٤ وتاريخ البحرية الإسلامية ١٢٦/٢.

(٥) تاريخ ابن خلدون ١٦٤/٤.

سنة من عام ٣٥٩-٣٨٩هـ ثم تولاهما مقاتل الفتى في زمن المنصور بن أبي عامر، وكان من المجاهدين، وظل فيها يجاهد حتى توفي عام ٣٠٤هـ في وقت فتنة البربر في قرطبة التي أسقطت الخلافة الأموية^(١).

ولقد تولى أمر هذه الجزر بعض فتیان الصقالبة من عام (٣٥٩-٤٦٨هـ) من هؤلاء الفتیان: «كوثر ومقاتل ومجاهد وابنه علي» فمن هم هؤلاء الصقالبة؟ وكيف وصلوا إلى الأندلس؟ وكيف استطاعوا اعتلاء سدة الحكم؟

كلمة موجزة عن الصقالبة

إذا كان المعتصم الخليفة العباسي هو أول من توسع في الاعتماد على الموالي الأتراك وجعلهم ذراع الدولة القوي، وخصص لهم مدينة عظيمة^(*) تضمهم، فإن الحكم الأول^(٢) في الأندلس هو الذي مكن الفتیان الصقالبة من التقلب في أعطاف الملك، إذ اشترى الكثير منهم، وضاعف عددهم مرات ومرات نتيجة لتلك الثورات التي اشتعلت بين البربر والعرب في عهد أبيه، ولهذا أثر الاعتماد عليهم لما لمس منهم من قوة وشجاعة وإخلاص، وبخاصة في تلك الحروب والفتن التي نشبت مع الثوار المخالفين له من أهل طليطلة وعبث الفرنج في الثغور^(٣).

وقد بلغ عدد الممالك الصقالبة في عهده نحو خمسة آلاف، وفي ذلك يقول عنه ابن خلدون: «إنه أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتزقة... واستكثر من الخدم والحواشي والحشم... واتخذ الممالك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم^(٤)».

ولعل تلك الثورات التي كانت تتوَجَّج نارها كل حين، هي التي دفعت الأمراء الأمويين إلى زيادة عدد هؤلاء الصقالبة، لدرجة أن تعدادهم ارتفع في عهد عبدالرحمن

(١) انظر تاريخ البحرية الإسلامية ١٢٦/٢.

(٢) هو الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل المعروف بالرُّبُضي، - نسبة إلى وقعة الربض المشهورة، ولد سنة ١٥٤هـ - وتوفي سنة ٢٠٦هـ. انظر ترجمته في البيان المغرب ٧٠/٢ والمعجب ١٢ والمغرب ٤٤٢/١ والحلة السيرة ص ٣٨ وتاريخ ابن خلدون طبعة بولاق ١٢٥/٤ والنفع ٣٣٨/١-٣٤٤.

(٣) انظر البيان المغرب ٧٠/٢ والمغرب ٤٠/١ والنفع ٣٤٠/١.

(٤) نفع الطيب ٣٤٢/١.

(*) هي مدينة سامراء في العراق، أنشأها المعتصم بن الرشيد الخليفة العباسي الثامن، خصيصاً لمواليه الأتراك. (المراجع)

الناصر^(١) إلى ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين صقلياً^(٢)، وظل الاعتماد على هؤلاء الصقالبة يزداد، ولم يتوقف عند حد الخدم والحشم، وإنما تعدى ذلك إلى الجيش والولاية، حتى غلب بعضهم على الأمراء، كما حدث لنصر الخصي^(٣) الذي علت منزلته في عهد عبدالرحمن بن الحكم^(٤)، حتى صار يتصرف في كل أمر، وترقى في كل المناصب، وعهد إليه بقيادة الجيوش، يقول عنه ابن حيان: «خليفة الأمير عبدالرحمن بن الحكم، المقدم على جميع خاصته، المدبر لأمر داره، المشارك لأكابر وزرائه في تصريف ملكه^(٥)».

وقد أحس بهذا الخطر المنصور بن أبي عامر في عهد هشام بن الحكم، وذلك لما وصل إليه خصيان القصر من رتبة عالية، من أمثال فائق وجؤذر، فحاول استئصالهم، وفي ذلك يقول المقرئ: «وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر، فحمل الحاجب الصحفي على نكبتهم، فنكبهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون^(٦)».

وعلى الرغم من محاولة المنصور القضاء عليهم بعد تسلمه ذروة الحكم، إلا أنه عاد يعتمد عليهم: «واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة، وقهر من تطاول إليه من العلية^(٧)».

(١) هو الناصر لدين الله أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن هشام بن عبدالرحمن الداخل، ولي شاباً، وكان شهماً صارماً، طرح لقب الإمارة، وتلقب بالخلافة، صفت له الأندلس ونزلت جميعها في طاعته، وأذعنت له الأمم النصرانية، انظر ترجمته في: الجذوة ص ١٣ والبيان المغرب ١٦١/٢ والحلة السيرة ٩٨ والعبير ١٣٧/٤ والمغرب ١٨١/١ والنفع ٣٥٣/١.

(٢) انظر أعمال الأعلام ٤٧ وأزهار الرياض ٢٦٩/٢.

(٣) انظر ترجمته في الفرضي ٢٨/٢ والمقتبس ٨ والمطمح ٣٨٨ والمغرب ٤٩/١ والنفع ٣٦٩/١.

(٤) أبو المطرف عبدالرحمن بن الحكم بن هشام، ولد سنة ١٧٦هـ وتوفي سنة ٢٣٨هـ حكم إحدى وثلاثين سنة. كان عالماً مكرماً للعلماء. انظر ترجمته في البيان المغرب ٨٢/٢ والمقتبس ٧٦ والمغرب ٤٥/١ والعبير ١٢٧/٤ والحلة السيرة ٦١ والنفع ٣٤٤/١.

(٥) المقتبس ٨ وانظر الى ما وصل إليه الصقالبة من حيث تولية الأمر لمن شاؤوا، وصرفه عن شاؤوا في المقتبس ص ١٠٥ - ١٢١.

(٦) نفع الطيب ٣٩٧/١.

(٧) المصدر نفسه ٣٩٨/١.

«لعل الدوافع التي جعلت الخلفاء يستعينون بالصقالبة هي نفس الأسباب التي دفعت محمد بن أبي عامر إلى استخدامهم أيضاً^(١)».

ومن الغريب أن ينسبوا إليه، إذ أصبح يطلق عليهم اسم «الصقالبة العامريين»، وبخاصة أولئك الذين جلبهم خلال غزواته العديدة المظفرة التي نيفت على خمسين غزوة، لم تهزم له فيها راية، ولا فلّ له جيش، وما أصيب له بعث، وما هلك له سرية^(٢).

وقد أطلق عليه الجلاب لكثرة ما جلبه من الأسرى والغنائم. وقد شارك هؤلاء الصقالبة في دولة المنصور بن أبي عامر في أمور الجيش والدولة معاً، وأصبحوا بذلك عنصراً هاماً لا يستغنى عنه، وبخاصة لما تمتع به بعضهم من دراية عالية بشؤون الحرب والحكم «كخيران ونبيل ومبارك ومظفر ومجاهد العامريين».

وليس غريباً، أن يتجه هؤلاء الفتيان الصقالبة إلى الأدب والعلم ينهلونه نهلاً، فسيدهم الذي ينتسبون إليه جواد عاقل عالم شاعر، ومن مشهور شعره فخره بنفسه حيث يقول:

رمىْتُ بنفسِي هولَ كلِّ عَظِيمةٍ
وخاطرتُ والحرُّ الكَريمُ يَخاطرُ
وما صاحبي إلَّا جَنانٌ مَشيعٌ
وأسمُرُ خطيٌّ وأبيضُ باترُ
فَسُدتُ بنفسِي أهلَ كُلِّ سِيادةٍ
وفاخرتُ حتّى لم أجِدْ مَنْ أَفاخرُ^(٣)

وقد أوردت المصادر الأندلسية بعض شعره الذي يمتاز بنفس قوي، ونفس أبيّة، وعزم صارم، وهمة طموحة، وهو إلى جانب ذلك محب للعلم والعلماء، مشجع للشعر والشعراء ومن أعظم المنشطين لحركة العلم والأدب وأهلهما، والساعين لنهضتهما وتقديمهما.

(١) مجاهد العامري ص ٢٠.

(٢) انظر نفح الطيب ١/٤٠٠.

(٣) نفح الطيب ١/٤٠٠.

وقد نشطت الحركة الأدبية في عهده نشاطاً كبيراً ولا سيما نشاط الوافدين إلى قرطبة من شتى البقاع الإسلامية، ولم يقتصر تشجيعه على العلماء، والأدباء، بل امتدت يده بالثقيف إلى ما كان يسترقه من العبيد^(١) ولهذا فقد ألفينا من هؤلاء الصقالبة مؤلفين وأدباء وعلماء، ذكر منهم ابن بسام:

حبيباً الصقلبي الذي ألف كتاباً سماه «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة»، وذكر فتى آخر فقال: «كان لابن أبي عامر فتى يسمى فاتناً، أوحده لا نظير له في علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالأدب، إلى أن يقول - وكان في ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المجابيب ممن أخذ من الأدب بأوفر نصيب^(٢)».

ويذكر ابن بشكوال دراجاً الفتى الصقلبي الذي كان من أهل الرواية والنسك والعناية، ورائقاً الذي كان له رحلة علمية، إلى المشرق، روى فيه عن أبي محمد بن عبدالله بن الحسن المطرز، وعاد إلى قرطبة، فحدث عنه أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام الحافظ، وأبو عثمان سعيد بن يوسف القلعي^(٣).

ونحن نتفق مع الدكتورة كلييا سارنللي بأن «الهوة السحيقة بين الظلام الدامس الذي كانت تعيش فيه شعوب أوروبا في العصور الوسطى حيث نشأ هؤلاء العبيد وبين الحضارة المزدهرة في بلاد الأندلس حيث سبوا، كانت سبباً في أن عقولهم تفتحت، وتنبت أحاسيسهم نحو مختلف جوانب الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس، فنهلوا منها^(٤)».

وإذا كان بحثنا يرتبط بأحد هؤلاء الفتيان الشجعان الذين استطاعوا - كما مرّ آنفاً - أن يصلوا إلى أعلى المراتب، وأن يبلغوا أعلى المناصب في السياسة والجيش، وتدير أمور الدولة والإشراف على قصور الأمراء والحكام، فإن التوجه إلى الحديث عنه أولى لأنه نقطة البدء، وهو المؤسس الحقيقي لهذه المملكة النائية.

(١) مجاهد العامري ص ٢١.

(٢) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣٤.

(٣) انظر الصلة ١/١٨٣، ١٨٥.

(٤) مجاهد العامري ص ٥.

وإذا كان في بدء أمره قد ربط جزر البليار بدانية عاصمته، فإننا نجده يتوجه بكلية إلى هذه الجزر يحيطها من رعايته واهتمامه ما وسعه، ويعطيها من وقته وجهده الكثير.

فمن هو هذا الفتى الصقلبي؟ من هو هذا المجاهد المغامر الذي ظل لأكثر من ثلاثين سنة البحار المجاهد والفتى المرعب الذي أرعب ممالك جنوه وبيزه وسردينيا؟ من هو هذا الذي قاد عشرات المعارك البحرية واستولى فيها على الكثير من المناطق، حتى استطاع الوصول إلى إيطاليا واحتلال أراضيها، وإقامة مركز له فيها، وقد بلغ من كثرة الغنائم التي حصل عليها أن كسد السبي في زمنه؟ إنه المجاهد الفذ مجاهد العامري.

ولعل من الأهمية بمكان أن نتحدث بنبرة سريعة عنه، تبين أصله ونشأته وجهاده وحياته.

أصل مجاهد ونشأته

اختلف في أصله وتحديد موطنه، ولعل اقتران إسمه بلفظ (رومي) وما تعنيه هذه الكلمة، وما تدل عليه، جعل الاختلاف بين مؤرخي العرب والغرب من المستشرقين يزداد حدة.

فعلام تدل لفظة (رومي)؟

هل تعني كل من كان نصرانياً ولم يتعرب كما يذكر الدكتور حسين مؤنس؟

أم أنها تعني الذين ينحدرون من آسيا الصغرى وجزر البلقان واليونان وإيطاليا؟ أم أنها تعني الذين هم من أصول إسبانية وظلوا على نصرانيتهم؟

الأستاذ محمد عبدالله عنان المتخصص بعمق في التاريخ الأندلسي، يرجح نسبة مجاهد العامري إلى الموالي، وليس إلى الفتيان الصقالبة كما تزعم بعض الروايات،

ويرجع ذلك إلى إسمه وكنيته، فهو أبو الجيوش مجاهد بن يوسف بن علي، ثم إلى شخصيته التي امتازت بعروبة قوية وتضلع في علوم القرآن واللغة^(١).

ويرى الدكتور عصام سالم أنه إسباني الأصل^(٢) ويزداد هذا الخلاف اتساعاً عندما يقرر المستشرق (نيكل) انحدار مجاهد من أصل أفريقي.

وتنفي الدكتورة كليلا هذا الأمر لأن مجاهداً من الصقالبة، والصقالبة ليسوا من أفريقيا كما هو معروف^(٣) وسواء أكان مجاهد من الموالي أو من الإشبانية المولدين، أو من الصقالبة الذين أسلموا وحسن إسلامهم، فما يهمنا هو مكانة مجاهد في الجهاد الإسلامي، وظهوره في ميدان الفتوح عبر البحر، وتتويجه ملكاً على دانية وجزائر البليار.

ولعل سبب الخلاف في أصل مجاهد يرجع إلى نشأته، فإن نشأة مملوك - بلا شك - لا يمكن أن تكون مثار انتباه المؤرخين كي يتناولوا هذه النشأة بال العناية والتدوين، لذا فإن نشأة مجاهد العامري بقيت غامضة، ولكننا نستطيع أن نقول: إنه نشأ كأبي فتى من هؤلاء الموالي أو الصقالبة الذين يخدمون في القصور، ولعل هذه الخدمة وجهت انتباهه إلى أمرين هامين كانا عماد المنصب ومدعاة الترقى والظهور، وهما:

العلم والفروسية:

فبلاط المنصور بن أبي عامر جمع هذين الأمرين فقد كانت قرطبة في وقته «قبة الإسلام ومجتمع علماء الأنام والأعلام، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب وبياري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب... ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات

(١) انظر دول الطوائف ١/١٨٤.

(٢) انظر مجلة العربي عدد ٣٣٦ ص ١٠٦.

(٣) مجاهد العامري ص ١٢٣ - ١٢٤.

الفائقة، والسبب تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط، إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب^(١).

وبلد هذه صفته، وصفة أهله لا بد أن من يحل به سوف يشرب قلبه حب العلم، وهذا ما حدث لمجاهد، فمكته ذكاؤه في التحصيل وبخاصة في العلوم الشرعية واللغوية من الظهور على أقرانه «فقد تفوق على زملائه في التحصيل وحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، والقراءات السبع، واللغة العربية وآدابها، حتى أصبح عالماً لا مثيل له في عهده^(٢)».

ويؤكد هذا الأمر ابن الخطيب، فيميزه من ملوك عصره فيقول: «كان أبو الجيش مجاهد يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل من أشفها: العلم والمعرفة اللذان لم يكن في الأحرار، ولا في الموالي أثبت قدماً منه فيهما^(٣)».

ويقول صاحب البيان المغرب: «وكان ذا نباهة ورياسة، زاد على نظرائه من ملوك طوائف الأندلس بالأنباء البديعة منها العلم والمعرفة والأدب^(٤)».

من كل هذا يتبين لنا أن مجاهداً استطاع أن يحرز نصيباً وافراً في ميادين العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، وقد مكته هذا التحصيل في هذين الجانبين من الظهور على أقرانه.

أما الجانب الآخر، وهو جانب الفروسية، فهو يتمثل في أوضح صورته في شخصية القائد المظفر بن أبي عامر، ذلك القائد الفذ الذي كف أيدي النصاري والثائرين بحروبه المظفرة التي ذكرها ابن حيان في المقتبس، وقد دعاه إعجابه لإفراد تأليف خاص عن هذا القائد، ولا شك أنه كان يعتني بتخريج مماليكه وفتيانه تخريجاً عسكرياً.

(١) نفح الطيب ٤٦٠/١ - ٤٦١.

(٢) البيان المغرب ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٥٠.

(٤) البيان المغرب ١٥٥/٣.

وفعلاً فقد تخرج مجاهد من هذه الكلية العسكرية، وقد أحاط بصنوف التدريب على الفروسية، ومرن على أساليب القتال، فاستحق ما ذكره ابن الخطيب عنه حيث قال:

فلم يكن في ملوك الزمان فارس يعدله شكلاً ولياقة ورواءً وهيبة وحسن عمل في السلاح وتقليباً له^(١) وبهذا اجتمعت له خصلتان العلم والفروسية، وقد ظهرت فيه شخصية المحارب الفذ، والسياسي المحنك، وتبدى كل ذلك في خوضه الحروب، وتأسيس مملكته في دانية وجزر البليار، وفتح سردانية، وخوض المعارك البحرية ضد ممالك إيطاليا.

ومن يتتبع مراحل كفاحه يتبين أنه كان من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة، وكانت له همة وجلادة وجراًة^(٢).

ولا شك أن مجاهداً العامري لم يكن ليستتم شخصية القائد لكونه عسكرياً ناجحاً أو إدارياً بارعاً، إذ لا بد له في ذلك الوقت إلى جانب هذا كله من أن يكون أدبياً مطلعاً وعالمًا متمكناً.

وقد تمكن من هذا كله، فقد جمع إلى جانب العسكرية البرية عسكرية بحرية مكنته من خوض حروب عديدة خرج منها منتصراً، وهذا الجانب العسكري في حياته عزز بجانب سياسي إداري، وهذان الجانبان لم يشغلاه عن فتح بلاطه للعلماء والأدباء، وعن دفعه الحركة العلمية والأدبية وتشجيعها، وبالجملية نقول كما قالت الدكتورة كليلىا: إن مجاهداً قد جمع في يده السيف والقلم^(٣).

وإذا كان المؤرخون العرب قد أثنوا عليه بصفاته العسكرية والسياسية والعلمية والأدبية، فإن كتب التاريخ اللاتينية تنقص بعض هذه الصفات، فهي تصفه: «بأنه كان قرصاناً مرعياً، ومؤسس مستعمرة لقطاع الطرق في سردانية، ويقولون أيضاً: إنه مارس القرصنة في البحر المتوسط، زهاء خمسين عاماً، وإنه قد حبس مراراً، وادعى كثير من القواد المسيحيين أنه قد نجح في قتله^(٤).

(١) أعمال الأعلام ٢٥٠.

(٢) انظر في ذلك بغية الملتبس ٤٥٧ وجذوة المقتبس ٣١١ والبيان المغرب ١٥٥/٣ ومعجم الأدباء ٨٠/١٧.

(٣) انظر مجاهد العامري، المقدمة.

(٤) المصدر نفسه ص ١٣٢-١٣٣.

ولا شك أننا نتفق مع الدكتورة كليلا بأن الحرب هي الحرب، وأنها تعني الفتك والتدمير، ومن يوصف بالشجاعة وحسن التدبير في جانب، فإنه يوصف بالقسوة والمكر والخديعة في الجانب الآخر.

ومع ذلك فإن كتب التاريخ العربية وكتب التراجم أيضاً كتبت له صفحات متناقضة، ويبدو أنه لم يكن يتسامح مع من يحاول المساس بملكه أو حتى يخالفه، ولعل له عذراً في ذلك، فالعصر وما سادته من اضطراب شجع على الدسائس والمكر والخديعة والغدر ونقض العهود، فالتوجس والحذر والشك والريبة كل ذلك كان مسؤولاً عن تلك القسوة المفرطة أحياناً في حق المناوئين، فهو مثلاً يملأ بلاطه بالعلماء الأدباء، ويغدق عليهم، ويقف في وجه الإفرنج سداً منيعاً، ويغزو ممالكهم، ويفتح سردانية، ومع ذلك يسوس أهل جزر البليار سياسة عنيفة كما يقول ابن الخطيب: «وكان شديد الوطأة على رعيته، سام أهل الجزائر الخسف، فسطا بوجوههم ورؤسائهم وألزم قلوبهم الرعب لما خافهم على دولته^(١)».

ومن هذه الصفات المتناقضة تدنيّه فهو ناسك متعب تارة، وأخرى خليع ماجن، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: «وأكثر التخليط في ذات أمره، فطوراً ناسك.... وتارة لا يأنس بشيء من الجد، ولا يعرف غير البطالة واللهو^(٢)».

مجاهد وجزر البليار:

كان الموالي يتولون إلى جانب تلك المناصب الرفيعة في القصر والجيش حكم بعض مقاطعات الدولة، وهذا ما حدث لمجاهد فقد «انتزى هذا الرجل مجاهد على مدينة دانية في أول هذه الفتنة، وكان من فحول فتیان بني عامر، قدمه المنصور بن أبي عامر عليها، كان عند وقوع هذه الفتنة مقدماً على هذه الجزائر الثلاث، فلما صح عنده وقوعها خرج إلى دانية وضبطها وجميع أعمالها المنضافة إليها، وتسمى بالموفق بالله، وكتب بهذا اللقب عن نفسه، وكتب له به... وقصد هذه الجزائر ميورقة ومنورقة،

(١) أعمال الأعلام ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) المصدر نفسه ٢١٧ - ٢١٩ وانظر الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٢٣.

ويابسة، فانتزى على جميعها لنفسه، وتغلب عليها، وحماها من المشركين، وغزا منها جزيرة سردانية فغلب على كثير منها^(١)».

ولموقع دانية البحري السبب في توجه نظر مجاهد إلى البحر، ولذلك عمل على تقوية قواته البحرية بتجهيزها بأسطول ضخم، وتلقب بأبي الجيش وتسمى بعد سيطرته على هذه الجزر بذي الوزارتين^(٢).

ولعل موقع هذه الجزر في البحر قبالة الساحل الشرقي للأندلس ومواجهتها للروم إلى جانب مياهها الصالحة لرسو السفن، ما جعل مجاهدًا يستقر بها، ويفضلها على دانية، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وكانت الجزائر الشرقية من أهم أعمال مجاهد، وبها كانت مرافئ معظم أساطيله، لأن مياه دانية لا تصلح لرسو السفن الكبيرة^(٣)».

وعلى الرغم من استقلال مجاهد بدانية وجزر البليار، إلا أنه ظل يحكم باسم الخليفة، ويبدو لي أن السبب في ذلك يرجع إلى كونه صقليًا أو من الموالي، بخلاف الذين استقلوا في ولاياتهم وتسموا بالملوك، أمثال المعتضد بن عباد في إشبيلية، وبني جهور في قرطبة، فهؤلاء كانوا عربًا في أنسابهم، فلم يحسوا ما أحس به مجاهد من حاجة إلى من يستند عليه في حكمه من الناحية الشكلية على الأقل، لذلك فإنه عندما علم بمقتل الخليفة هشام الثاني في غزو البربر لقرطبة وتنصيب سليمان المستعين خليفة جديدًا، ولما بين مجاهد والبربر من عدا، رفض الاعتراف بالخليفة الجديد، واستغل فرصة هرب الفقيه أبي عبد الرحمن بن عبد الله المعيطي فنصبه خليفة، وسماه أمير المؤمنين المنتصر بالله^(٤).

(١) البيان المغرب ٥٥/٣.

(٢) انظر أعمال الأعلام ٢١٧.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٧/٤.

(٤) انظر البيان المغرب ١١٥/٣ - ١١٦ وأعمال الأعلام ٢٢٠ والمعيطي هذا هو أحد أشراف قرطبة وفقهائها، وعنه قال لسان الدين ابن الخطيب: «أحد من أزعجته الفتنة من رجال الأشراف بقرطبة، وكان في عدد الفقهاء المشاورين بها، فنصبه خليفة، وأخذ له على الناس البيعة في جميع عمله بدانية وميورقة وغيرها، وسماه المنتصر بالله، وأثبت اسمه في سكتته وفي أعماله، وذلك في أول سنة (٤٠٥هـ) وخلفه بدار ملكه، فلما عاد منكوبًا من غزواته بسردانية ألفاه وقد استبد، ودخل الناس، وعمل على إبادته، فبادر المعيطي عند وصوله إلى الساحل وهو ذاهل عنه، وهجم عليه، وأقامه في مجلسه، وقبض عليه وعلى من شايعه من أصحابه، وتسلم منه سلطانه، وعاتبه في سوء على ما كافأه به، وعدد عليه يده، فاعترف له بهوممه به، وقال: =

وبعد خمسة أشهر من مبايعته الخليفة، توجه مجاهد مع المعيطي إلى جزر البليار، وكان ذلك عام (٤٠٥هـ - ١٠١٤م).

ووفق في احتلال الجزر الثلاث، وبعد أن رتب أمر الجزر، ترك المعيطي وجزءاً من جيشه في هذه الجزر، وتوجه هو ببقية جيشه لغزو سردانية، ويبدو أن المعيطي أو الخليفة الجديد أحس بإمكانية عدم رجوع مجاهد بعد أن طالت غيبته في بلاد الروم، فأعلن استقلاله بالجزر ودانية ويظهر أن أهل جزيرة ميورقة منعوه من تحقيق هدفه^(١) وعند عودة مجاهد تم طرد المعيطي، واستقل بدانية والجزر استقلالاً تاماً عام (٤١٣هـ).

وتجد الدكتورة كليلا حيرة في تفسير هذا الاستقلال المتأخر، مع أن مجاهداً كان قد أعلن استقلاله بدانية قبل ذلك بعشر سنوات.

ولا مشكلة في تفسير ذلك، فمجاهد على الرغم من استقلاله بدانية، إلا أنه كان يحكم باسم الخليفة المعيطي الذي بايعه على الجزائر ودانية عام (٤٠٥هـ) وتفرغ هو لغزو سردانية، وبعد أن حدث ما حدث من المعيطي الذي عينه، تم طرده ليعلن مجاهد بذلك استقلالاً تاماً، ويصبح ملكاً من ملوك الطوائف في الأندلس.

وبهذا الاستقلال أصبحت هذه الجزائر الثلاث تابعة في حكمها لدانية لا لمركز الخلافة كما كان في السابق، وضم إليها مؤقتاً جزيرة سردانية، فقد كانت هذه الجزيرة تقع في دائرة اهتمامات مجاهد، وبخاصة وهو يوجه غزواته البحرية من ميورقة، فاقتحمها في مائة وعشرين مركباً، حمل فيها ألف فارس، ففتح أرضاً جلييلة، وضرب على بعض ملوكها الجزية، وتجاوز حده، فاخترط مدينة واسعة شرع في بنائها، وانتقل إليها بأهله وولده، بعد أن غنم وسبى ما لا يأخذه الحصر، إلى أن كسد في زمانه السبي، وخسّت فيه الأثمان^(٢).

= بلغني ما أحدثته بعدي من العبث بالناس، والاستئثار بالفيء، والمجاهرة بالمعاصي فلم يسعني انتظارك، وأردت قبض يدك عن ظلم العباد، وعلى ذلك بايعتني، ولا هوادة لك عندي، فاحتمله وصيره في البحر إلى أرض الدعوة، فأنزله ببجاية، واستقر عند البرابرة معلماً لصبيانهم لا يرفع رأسه إلى الدنيا، وطاولته هناك الحياة إلى أن هلك بعد مدة، أعمال الأعلام ٢٢٠.

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ١٦٤/٤ ومجاهد العامري ١٨٨-١٨٩.

(٢) أعمال الأعلام ٢١٩.

ويبدو أن هذا الخطأ الذي ارتكبه مجاهد في تعجله في الانتقال إلى مقره الجديد في دار العدو بل في عقر بيته، كان السبب في القضاء على طموح مجاهد العامري، وهو خطأ عسكري ما كان لقائد بري وبحري مثل مجاهد ليقع فيه، لولا ما يصيب النفس من غرور وعدم تقدير للعواقب، وفي ذلك يقول ابن بسام: «وغلبت الروم في بعض سلطانه على جزيرة سردانية التي كانت من فتوحه قبل، ففلت شباته، ونهضت شذاته^(١)» ويفصل ذلك ابن الخطيب حيث يقول: «وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة واستجاشوا، وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه، فعزم على التحول إلى محله، والقفل إلى دار ملكه بدانية وميورقة، فأعجله العدو عن ذلك، وقطع به، فكانت عليه وقية شنيعة، وظهور ما سمع بمثله، فقتل من - جنوده وأصحابه عالم لا يحصى، وملكوا أسطوله، واستنقذوه، واستولوا على حريمه وفيهم نساؤه وبناته وعليّ ولده وجود أمّه النصرانية^(٢)».

علي بن مجاهد:

أسره الروم عندما استولوا على جزيرة سردانية التي كانت من أملاك والده، وكان وقتئذٍ طفلاً صغيراً فنشأ على أيديهم، وحاول والده فكاكه من الأسر بدفع عشرة آلاف، فأعياه ذلك، ولم يقبل أسروه الفدية، ثم افتكه أحد أمراء بني حماد آل حماد.

ويبدو أن فترة أسره أصابت همته، وغيّرت من حميته، وفي ذلك يقول ابن بسام عندما غزا الروم سردانية وأسرت ابنه علياً هذا، فنشأ علجاً متجهماً، وأعجماً طمطمًا، إلى أن افتكه أحد آل حماد من أمراء بني حماد... فلما خفق علمه، وتمكن في مقام أبيه قدمه، ألقى السلم، وأغمد السيف، وشام القلم، همته كانت في خراج يجيبه لا في معقل يجتبيه، وهمة المتجر ينميها لا المفخر يحميه، أصب خلق الله، بلبوسٍ ومطعم، وأصباه إلى دينار ودرهم^(٣).

(١) الذخيرة ق٤ م ١ ص ٢٦٥.

(٢) أعمال الأعلام ٢١٦.

(٣) الجزيرة ق٣ م ١ ص ٢٦٥.

ويخالف عبدالواحد المراكشي قول ابن بسام هذا فيثني عليه فيقول: «ثم ملكها - أي دانيه والجزائر - بعده ابنه علي بن مجاهد، وتلقب بالموفق، لا أعلم في المتغلبين على جهات الأندلس، أصون منه نفساً، ولا أظهر عرضاً، ولا أنقى ساحة، كان لا يشرب الخمر، ولا يقرب من يشربها، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية مكرماً لأهلها»^(١).

ويؤكد ابن خلدون على عناية علي بن مجاهد وسهره على شؤون الحكم فيقول: «وكان علي يولي شؤون الجزائر منتهى عنايته، وكان يشعر دائماً أنها أهم أقسام مملكته، وكان حاكمها وقت ولاية علي هو الأغلب مولى أبيه مجاهد، وكان قد ولي حكمها سنة (٤٢٨هـ) وكان جندياً وبحاراً مجرباً، وكان دائب الإغارة بسفنه على الشواطئ النصرانية في قطلونية وبروفانس»^(٢).

ولما توفي مجاهد استأذن الأغلب عليا بعد ولايته بقليل أن يسير إلى الحج، فأذن له، وندب لحكم الجزائر صهره، سليمان بن مشكيان، فاستمر في حكمها خمسة أعوام أخرى حتى وفاته سنة (٤٤٢-١٠٥٠) فولى علي مكانه عبدالله المرتضى فحكمها مدة طويلة^(٣).

وقد اتصف «علي إقبال الدولة» بصفات الهدوء وحب العلم والسلم، ومد يد العون للمحتاجين، ويروى في ذلك أنه أرسل إلى مصر في عام المجاعة مركباً ضخماً مملوءاً طعاماً^(٤)، لعل في ذلك وفي ما ورد من تسامحه مع النصارى هو الذي حمل ابن بسام على أن يقول فيه ما قال، ويرد الأستاذ محمد عبدالله عنان ذلك إلى «ظروف حياته» وإلى نشأته خلال أسره الطويل بين نصارى سردانية، واعتناق دينهم قبل أن يعود إلى الإسلام^(٥).

(١) المعجب ٤١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٦٥/٤.

(٣) انظر دول الطوائف ق ١ ص ١٩٧.

(٤) انظر أعمال الأعلام ٢٢١.

(٥) دول الطوائف ق ١ ص ١٩٨.

وقد أثبت هذا التسامح نحو النصارى في وثيقتين: كانت الأولى تنص على وضع جميع الكنائس وأماكن العبادة للنصارى تحت رعاية أسقف برشلونة، والثانية شهادة من علي إقبال الدولة لغلبت أسقف برشلونة على أن يكون مذكوراً في خطب النصارى في بيعهم بجميع أعماله^(١) ويبدو أن علياً تعرض للاغتيال بمؤامرة دبرها له أخوه الأصغر حسن بن مجاهد الذي كان ولي عهد أبيه، وبعد عودة علي بدا لمجاهد أن ينقل ولاية العهد لما رآه من مخايل النباهة والشجاعة في علي، وكان لذلك أشد الأثر في نفس أخيه الذي حسده، وحقد عليه، فدبر أمر قتله، ولكنه لم ينجح وفر هارباً، وبذلك استقر الأمر لعلي الذي طالت مدة حكمه، وكان على علاقات وثيقة مع ملوك الطوائف، نتيجة لمصاهرته إياهم، فبناته كما يقول لسان الدين بن الخطيب كنّ آيات في الجمال^(٢).

ولكن هذه المصاهرة لم تشفع له عند صهره ابن هود الذي حاصر بلاده دانية، وظل محاصراً لها إلى أن اتفقا على أن يسلم علي لصهره ابن هود كل شيء، وله أن يسلمه في نفسه وولده، وينزل له عن القصر تاركاً إياه بفرشه وزينته، فكان ذلك سنة (٤٦٨هـ) ثم نقله إلى سرقسطة وأقطعه إقطاعاً يمونه، ويقيم أوده فكان آخر العهد به^(٣).

جزر البليار مملكة مستقلة:

مهما قيل في أسباب الهجوم على دانية: كإيواء علي لبعض الأسر التي فرت من (لاردة) على إثر محاولة احتلال من قبل ابن هود، أو كما ذكر ابن بسام من أن المقتدر بن هود كان قد طلب بعض القلاع من علي، فسلمها له خشية من سطوته، ولكنه أرسل سراً، إلى أهل تلك القلاع يحضهم على التحصن والمقاومة، فعلم ابن هود فاحتل دانية^(٤).

نقول: مهما كانت الأسباب فالحروب في عهد ملوك الطوائف لم تكن بحاجة إلى أسباب، فالغزو والاحتلال ونقض العهود، وانتقال الحلفاء وتغيرهم، كل ذلك كان من سمات ذلك العصر المختل سياسياً.

(١) انظر دول الطوائف ق ١ ص ١٩٩.

(٢) انظر أعمال الأعلام ٢٢١.

(٣) انظر المصدر نفسه ٢٢٢.

(٤) انظر الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٢٠٧.

وما يهمنا في هذا البحث أن هذه الحادثة التي جرت على دانية عام (٤٦٨هـ) كانت بداية انفصال هذه الجزر التي ظلت تابعة لدانية في حكمها، وبهذا الانفصال أصبحت جزر البليار وعاصمتها ميورقة دولة جديدة من دول ملوك الطوائف، وصارت تحكم حكماً مستقلاً.

وكان على حكم هذه الجزائر عبدالله المرتضى الوالي من قبل علي بن مجاهد الذي ما أن علم بسقوط دانية، وتسليم علي لابن هود حتى أعلن استقلاله، بحكم الجزائر، وظل يحكمها فترة طويلة تزيد عن الأربعين سنة حتى وفاته سنة (٤٨٦هـ - ١٠٩٣م)^(١) وخلفه بعد وفاته مولاه مبشر نصير الدولة الذي ظل يحكمها حتى عام (٥٠٨هـ).

السقوط الأول لميورقة:

وهو عام سقوط الجزيرة بيد حاكم برشلونة (رامون الثالث) وإذا كانت الجزائر الشرقية، قد نعمت بشيء من الاستقرار في حكم مجاهد وابنه علي، ثم بعد استقلالها في زمن عبدالله المرتضى، وبداية حكم سليمان بن مبشر، فإن دولة الإسلام في الأندلس عموماً قد أصيبت في الصميم بجرح بالغ ظل ينزف على الأيام طوال سيطرة ملوك الطوائف حيث انفصمت وحدة الأندلس وتقطع جسدها إلى مقاطعات ودويلات كثرت بينها المشاحنات والفتن والحروب، مما سبب التصدع والتشتت والتفرق والضعف، وظهرت الأطماع فيما بينها، فكثر الغارات والتقاتل والتحاسد والتنافس، وأدى ذلك كله إلى الاستعانة بالعدو الذي كان يرقب الأمر، وينتظر الفرصة السانحة للسيطرة على هذه البلاد.

ولم تكن جزر البليار بمنأى عن تلك الأطماع، وبخاصة أطماع جمهورية بيزة الإيطالية التي كانت تحس بأهمية الاستيلاء على هذه الجزر لعدة أسباب:

- أولاً: لأهميتها البحرية.

(١) انظر في ذلك أعمال الأعلام ٢٢٢ والدول الإسلامية ق ١ ص ٦٢ وتاريخ البحرية الإسلامية ٢/٢٤٣.

- ثانيًا: لتضع حدًا لغاراتها المتكررة على الموانئ الإيطالية، وما غزو مجاهد لسردانية ببعيد عن أذهانهم.

- ثالثًا: تشجيع البابا ومباركته لخطة غزو هذه الجزر وفي ذلك يقول محمد عبدالله عنان: «وكانت جمهورية بيززة الإيطالية أشد البلاد اهتمامًا بالاستيلاء على الجزائر الشرقية، ووضع حد لغاراتها المتكررة على الشواطئ الإيطالية، وكان البابا يُشجع هذا المشروع وبياركة، وعقدت بيززة من أجل ذلك حلفًا مع أمير برشلونة (رامون برنجير الثالث).

وفي صيف سنة (١١١٤م - ٥٠٨هـ) خرج من مياه بيززة أسطول الغزو... ولما علم بذلك مبشر بعث رسله يعرض الصلح على الغزاة، ويعرض تسليم الأسرى، وسارت سفنهم، فرست في مياه قطلونية حتى اقترب الربيع، ثم سارت بعد ذلك صوب جزيرة يابسة، وكانت سفن الغزاة قد غدت يومئذٍ نحو خمسمائة سفينة، ومع ذلك فقد عقد مبشر عزمه على المقاومة، فحصن ميورقة، وبذل جهده في إعداد وسائل الدفاع، واستولى الغزاة على يابسة بسهولة، ثم اتجهوا نحو ميورقة كبرى الجزائر ونزلوا فيها وضربوا الحصار حولها، واستعد مبشر لحصار طويل الأمد، وبعث في الحال صريخه إلى أمير المسلمين علي بن تاشفين يطلب إليه الغوث قبل أن تسقط الجزائر في أيدي النصارى، وكان المرابطون قد استولوا عندئذٍ على شرقي الأندلس كله، وأحرزوا انتصارهم الحاسم على القشتاليين في موقعة إقليش (٥٠١هـ - ١١٠٨م) ثم استولوا في العام التالي على سرقسطة (٥٠٢هـ) وقضوا على ملك بني هود، وأضحوا يهددون منها مملكة برشلونة النصرانية، وقدر أمير المسلمين أهمية ميورقة، وأمر بتجهيز الأساطيل لإنجاده... ورأى المرابطون أن يضغطوا في نفس الوقت على مملكة برشلونة التي كان أميرها برنجير الثالث يشترك بأسطوله في حصار ميورقة، فسارت قواتهم شمالاً، واخترقت أراضي قطلونيا، وعاشت فيها، ولكن الكونت برنجير اضطر إزاء ضغط حلفائه أن يبقى معهم حتى النهاية في مياه ميورقة، واشتد الحصار على ميورقة، وطوقها النصارى بنطاق محكم من الآلات الضخمة، وقطعوا عنها كل معونة

ونجدة، وقاسى المسلمون أهوالاً من الجوع والحرمان، ولكنهم صمموا أن يموتوا دفاعاً عن أرضهم، وتوفي خلال ذلك الأمير مبشر بن سليمان، فخلفه في الحكم أبو الربيع سليمان^(١).

لم يجد تصميم أبو الربيع على المقاومة، وعندما أحس بأن الموقف قد تدهور ولم يعد في مقدوره فعل شيء، حاول مغادرة الجزيرة في مركب صغير لطلب النجدة من المرابطين، فتم أسره، واستطاع النصارى اقتحام الأسوار، ودخل المدينة في أواخر مارس سنة (١١١٦م - أواخر سنة ٥٠٨هـ) وفعلوا بأهلها الأفاعيل.

البليار في حوزة المرابطين؛

وصلت إشارة الغوث على يد عبدالله بن ميمون ذلك البحار الذي استطاع أن يخترق الحصار بسفينته، وأن يصل إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، الذي بادر بتجهيز أسطول مكون من خمسمائة سفينة وانطلقت هذه السفن صوب الجزائر بقيادة أمير البحر ابن تفرتش، ولما علم البيزيون وحلفاؤهم من برشلونة وغيرها مسيرة هذه القوات، وأدركوا أن لا طاقة لهم بمقاتلتها فروا بعد أن نهبوا المدينة.

وكان دخول المرابطين لميورقة في أواخر سنة (١١١٦م - ٥٠٩هـ) فعمروها، وأمنوا أهلها، ثم عين عليها وانور بن أبي بكر اللمتوني حاكماً، وبهذا دخلت الجزائر الشرقية حقبة جديدة، وأصبحت ولاية من ولايات الامبراطورية المرابطية^(٢) وظلوا يحكمونها حوالي نصف قرن، إذ دخلوها عام (٥٠٩هـ) حتى عام (٥٤١هـ - ١١٤٦م) وبدأ الولاة يحكمونها باسم المرابطين، حتى عام (٥٢٠هـ) حيث وليها محمد بن علي غانية المسوفي مؤسس أسرة بني غانية.

استقلال البليار مرة أخرى ودولة بني غانية؛

إذا كان عام (٥٤٢هـ) هو نهاية المرابطين بقتل أميرهم إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وصعود نجم الموحدين الذين بدأوا يستخلصون ولايات الدولة المرابطية، فإنَّ

(١) أمراء الطوائف ق ١ ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) انظر دول الطوائف ق ١ ص ٢٠٣-٢٠٤ وانظر تاريخ البحرية الإسلامية ٢/٢٤٣.

الأندلس بدأت تنضوي تحت اللواء الموحيدي، وما أتى عام ٥٦٧هـ حتى أصبحت معظم الأندلس في قبضتهم عدا جزائر ميورقة ومنورقة، ويابسة حيث ظلت هذه الجزائر مستقلة استقلالاً تاماً تحت حكم محمد بن علي بن غانية^(١) أول ولاتهم، وقد جعل الدعاء فيها لبني العباس إظهاراً لهذا الاستقلال عن الموحيدين، إلا أن منورقة ويابسة دخلتا في طاعة الموحيدين، وبقيت ميورقة، وتتابع ولاية بني غانية عليها، وأصبحت دولة مستقلة، تأثلت وقويت، وامتدت أطماعها إلى أملاك الموحيدين، فاستطاعت أن تمد حكمها إلى أفريقيا، وتسيطر على كثير من أجزائها، ولم تكف بذلك، وإنما وجهت ضربات موجعة إلى فرنسا، وعادت هذه الدولة - كما كانت في عهد مجاهد - تثير الخوف والهلع في نفوس الإفرنج، على الرغم من علاقاتها الخاصة مع بعض الدول النصرانية، مما جعل الكثير من هذه الدول تهادن بني غانية، وتعقد معهم معاهدات سلم.

وبهذا ازدهرت هذه الدولة، وطمع حاكمها في توسيع رقعة دولته، وبدل أن يوجه بصره نحو ممالك النصرانية لإضعافها، وإشغالها عن أطراف الدولة الإسلامية في الأندلس وأفريقيا، صوب نظره نحو الموحيدين ودولتهم، وعزم أمره على مهاجمة بلاد المسلمين في أفريقيا التي كانت تحت حكم الموحيدين، وهكذا كان، فقد توجه يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي^(٢)، إلى أفريقيا سنة (٥٨٠هـ) وبدأ بالاستيلاء على العديد من موانئها ومراكزها، فانتزع في معارك دامية طرابلس وقابس وبلاد الجريد، وقفصة والمهدية والقيروان، وباجة وبسكرة، وفي ذلك يقول محمد عبدالله عنان: «وهكذا بسط يحيى بن إسحاق الميورقي حكمه على سائر أفريقيا ما عدا شاطئها الشمالي، واستولى على سائر قواعدها... ووصلت دعوته إلى بونة، ولم يبق بيد الموحيدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة، وقد أصبحت كلها في خطر السقوط»^(٣).

(١) انظر تفاصيل هذه الدولة في رحلة التيجاني ص ٣٥٢ وتاريخ ابن خلدون ١٩٤/٦ والبيان المغرب ٢١٤/٣ والمعجب ١٧٩ وعصر المرابطين والموحيدين ق ٢ ص ٢٥٧ والروض المعطار ٥٦٧.

(٢) ظل يحكم البليار حتى سقوط ميورقة بيد الموحيدين عام (٥٩٩هـ) واستمرت دولته في أفريقيا حتى انتصر عليه عبدالله بن يعقوب أمير الموحيدين، وتوفي يحيى شريدا بيرية تلمسان عام (٦٣٣هـ) انظر ترجمته في تاريخ ابن خلدون ١٩٥/٦ والبيان المغرب ٢١٤/٣ والمعجب ١٧٩ وتحفة القادام ١٠٢ والإحاطة ٣١١/١ وعصر المرابطين والموحيدين ٢٥١/٢ والأعلام ١٢٧/٨.

(٣) عصر المرابطين والموحيدين ق ٢ ص ٢٥٤.

كان هذا الخطر المحدق بدولة الموحدين من قبل هذا الميورقي المغامر مصدر قلق شديد فتفاقم أمره، واستمرار عدوانه، ومقاتله العظيمة، وفشل الحملات التي وجهت إليه كل ذلك جعل الخليفة الموحي الناصر يعزم على فتح جزر البليار لاستئصال شأفة هذا الثائر الميورقي، إذ رأى أنه لن يتم القضاء عليه إلا باحتلال مركز الثائر في ميورقة، فهي موطن قوته، ومصدر إمداداته.

ولكن هذه الجزيرة التي كان يتولاها ليحيى أخوه عبدالله بن غانية، كانت تنعم بازدهار سياسي واقتصادي، فقد حكمها عبدالله منذ عام (٥٨٤هـ - ١١٨٨م) وسار على سياسة والده وأخيه في مهادنة الدول النصرانية ومسالمتها، وعقد معاهدات الصداقة والتجارة والصلوات الودية، فقد عقد «مع جمهورية جنوة معاهدة صلح وتجارة لمدة عشرين عاماً... وكان التجار النصارى في الجزيرة يعيشون في دعة وطمأنينة آمنين على أنفسهم وأموالهم»^(١).

وقد كانت هذه العلاقة تبعث الرضا في نفوس النصارى، إذ مكنت هذه المعاهدات لازدهار أمني وتجاري، ومكنت تلك الممالك من التفرغ للاستعداد لمواجهة في جهات أخرى من بلاد المسلمين في الأندلس.

ويبدو أن استعدادات الخليفة الناصر قد نمت إلى عبدالله بن غانية الميورقي، أو أنه أحس بعزم الموحدين على فتح ميورقة، فبادرهم بمحاولة منه لاحتلال يابسة - إذ كانت منورقة ويابسة لا تزالان تحت سيطرة الموحدين - اللتان فشل في انتزاعهما من والي الموحدين ابن ميمون، فتوجه إلى منورقة، واستطاع السيطرة عليها، وولي عليها واليا من قبله هو الزبير بن نجاح^(٢).

ويبدو أن خليفة الموحدين الناصر وأعوانه كانوا ينظرون إلى الأمر بعين الجد، لذلك جهزوا حملة بحرية عظيمة، توجهت إلى ميورقة واحتلت مرساها، وحاصرها الجند، وخرجت جموع ابن غانية واشتبكت مع الموحدين في معركة يائسة مدة سبعة أيام، حيث انتهت بسقوط الجزيرة، بأيدي الموحدين^(٣).

(١) عصر المرابطين والموحدين ق ٢ ص ٢٥٨.

(٢) انظر المعجب ٣١٧ والروض المعطار ١٨٩ والبيان المغرب ٢٥٩.

(٣) انظر في ذلك تاريخ البحرية الإسلامية ٢٧٠/٢ - ٢٨١.

ميورقة في عهد الموحيدين:

بدأت جزيرة ميورقة منذ عام (٥٩٩هـ - ١٢٠٢م) عهداً جديداً، وبدأ ولاية الموحيدين يتولون أعمالها.

وكان أولهم هو عبدالله بن طاع الله الكومي، ثم وليها عم الخليفة الناصر السيد أبو زيد بن أبي يعقوب يوسف.

وبهذا الفتح تم القضاء على سلطان بني غانية في الجزائر وأفريقيا، إلى جانب أنه سبب إزعاجاً وقلقاً شديدين للدول النصرانية المتاخمة، والتي كانت مرتاحة لحكم بني غانية، فهي مطمئنة للمعاهدات الموقعة بينهما، إلى جانب أن هذه المملكة كانت شوكة في جنب الموحيدين في أفريقيا، والقضاء عليها معناه مواجهة دولة ضخمة قد تمنعهم من تحقيق أحلامهم التي يصبون إليها في جعل هذه الجزر مستقبلاً تحت يدهم، ويظهر ذلك من رسالة الفتح التي تقول: «ولأخذ ميورقة على صاحب أراغون وبرشلونة، أشد من رشق النبل، وأهول من وقع السيف، وأوحش من القطع بحلول الممات^(١)».

السقوط الأخير:

وبهذا الخطر الموحيدي الجديد الذي امتد من المغرب إلى الأندلس إلى الجزائر الشرقية، بدأت الممالك النصرانية تعد العدة، بأشد مما كانت عليه للسيطرة على هذه الجزر، وبخاصة أراجون وبرشلونة وبيزة وجنوه وفرنسا، حيث كانت تعاني هذه الدول من هجمات بني غانية، وبهذا الفتح الموحيدي الجديد، وهذا الخطر المحتمل، بدأت هذه الممالك تفكر جدياً باحتلال هذه الجزر، وكانت الفكرة عند مملكة أراجون التي كانت تسيطر على أجزاء من شرقي الأندلس، وكان تحقيق هذه الأمنية يقترب شيئاً فشيئاً مع تزايد الاختلافات بين المسلمين، وانهيار سلطان الموحيدين في الأندلس التي اضطرت بالفتنة، وبدأت تميد تحت أقدام الموحيدين.

(٣) عصر المرابطين والموحدين ق ٢ ص ٢٦١.

ولا يعني ذلك السبب الذي ذكره المقرئ نقلاً عن المخزومي في تاريخ ميورقة حيث يقول: «إن سبب أخذها من المسلمين أن أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحد أعيانها، وليها سنة (٦٠٦هـ) واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة، فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية، فعلم بها والي طرطوشة فجهز إليها من أخذها، فعظم ذلك على الوالي، وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم... فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل مرسى يابسة، ووجد فيه لأهل جنوة مركباً كبيراً فأخذه^(١)». قد يكون هذا سبباً ظاهرياً أما الأسباب الكامنة فعدة كما ذكرنا آنفاً، وهي التي شجعت خايمي الأول ملك أراغون على تجهيز حملة كبيرة من السفن الحربية والفرسان، توجهت نحو خليج بالما الذي تقع عليه جزيرة ميورقة، فعلم والي الجزيرة، وهو أبو يحيى بن أبي عمران، فحشد الحشود، ولكن مؤامرة حدثت لخلعه جعلته يتصرف بعصبية ويقتل بعض الأعيان، مما قضى على الروح المعنوية لدى الجنود والسكان معاً.

واستطاعت الحشود النصرانية بعد معارك دامية أن تفتح الجزيرة على جثث القتلى من المسلمين، وتقدر الرواية الإسلامية من قتل من المسلمين خلال هذه المعركة الدموية بأربعة وعشرين ألفاً^(٢)، وفر منهم إلى الجبال نحو ثلاثين ألفاً، وأسر الوالي أبو يحيى وولده، واستولى النصارى على ميورقة في مناظر مروعة من سفك الدماء، وكان استيلاؤهم عليها في يوم الإثنين ١٣ صفر من سنة ٦٢٧هـ الموافق ٣١ ديسمبر سنة ١٢٢٩م^(٣).

ولكن هذا السقوط لم يمنع أحد الأعيان وهو أبو حفص بن سيرى من الخروج إلى الجبال هو وأعداد كبيرة من المسلمين الذين اعتزموا المقاومة، وقد استمروا في جهادهم المستميت مدة عام كامل، حيث تم قتل ابن سيرى، واستولى النصارى على ما تبقى من حصون وقلاع هذه الجزيرة^(٤).

(١) نفح الطيب ٤/٤٧١.

(٢) نفح الطيب ١/٥٨٥.

(٣) انظر عصر المرابطين والموحدين ق ٢ ص ٤٠٦-٤٠٧.

(٤) انظر نفح الطيب ٤/٤٧١.

وبذلك سقطت أم الجزائر تلك الجزيرة الغنية الزاهرة بعد أن ظلت تنعم بحكم المسلمين طوال خمسة قرون.

وكان سقوط باقي الجزائر هو تحصيل حاصل، ولا يحتاج إلا لبعض الوقت، فجزيرة يابسة على الرغم من التضحيات التي قدمتها على مدى خمسة أشهر في الدفاع ضد المعتدين الأرغوانيين إلا أنها لم تستطع الصمود ومواصلة المقاومة في قتال غير متكافئ فأعلنت استسلامها سنة (٦٣٣هـ - ١٢٣٥م).

أما تلك الجزيرة الخالية فرممتيرا فلم يكن بها أحد من المسلمين حيث تم الاستيلاء عليها أيضاً.

ولم يبق في حوزة المسلمين سوى جزيرة منورقة ثاني هذه الجزر أهمية وحجماً، وقد استمرت تحكم من قبل المسلمين كدولة صغيرة، تحت حكم أبي عثمان سعيد بن الحكم، وفي ذلك يقول المقرئ: «ولما استولى النصارى على ميورقة في التاريخ المتقدم، ثار بجزيرة منورقة... الجواد العادل أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي، وكان واليها من قبل الوالي أبي يحيى المقتول في ميورقة بعد احتلالها، وتصالح مع النصارى على ضريبة معلومة، واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى، وضبطها أحسن ضبط^(١)». واستمر في حكمها ما يقارب نصف قرن إلى أن توفي سنة (٦٨٠هـ - ١٢٨١م) فخلفه ابنه أبو عمر حكم بن سعيد، الذي نهج نهج أبيه في عدله وإيثاره العلماء والأدباء.

ويبدو أن صبر النصارى قد نفذ، فقرروا استخلاص هذه الجزيرة المعزولة الوحيدة من أيدي المسلمين، وتم لهم ذلك سنة (٦٨٦هـ - ١٢٨٧م) وغادر حاكمها مع أهله قاصداً المغرب، إلا أنه غرق في البحر مع أسرته.

وبذلك أسدل الستار على حكم إسلامي لهذه الجزائر الشرقية، دام أكثر من ستة قرون^(٢).

(١) نفح الطيب ٤/٤٧٢.

(٢) يرجع في سقوط منورقة إلى الحلة السيرة ص ٢٥٥ والروض المعطار ٥٤٩ وأعمال الأعلام ٢٧٥ ونفح الطيب ٤/٤٧٢ وتاريخ البحرية الإسلامية ٢/٢٨٦.

الفصل الأول

الازدهار الثقافي والأدبي

إذا كانت الثقافة الأندلسية قد بلغت شأناً رفيعاً في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وإذا كانت الحواضر الأندلسية (في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليلة وسرقسطة ومالقة وبلنسية وبطليموس ودانية) قد تألفت وازدانت بنهضة علمية وأدبية زاخرة، فإن جزر البليار هي الأخرى قد نالت حظاً من الازدهار الثقافي كادت تربو به على زميلاتها من تلك الحواضر.

وإذا كان السقوط السياسي بتمزيق الأندلس إلى ممالك متفرقة قد رافقه صعود أدبي، فإن ازدهار الأدب في هذه العواصم يرجع إلى عدة عوامل منها:

أولاً: تشجيع ملوك الطوائف للأدب والعلوم، وتسابقهم على الاستئثار بالعلماء والشعراء، وقد بلغ من اهتمامهم بالشعراء «أنهم كانوا يخصصون يوماً من كل أسبوع للشعر، حيث ينعقد المجلس من الشعراء والأدباء برئاسة الملك، يستمعون فيه إلى الجديد من الشعر وإنشاد الشعراء الجدد^(١)».

وكانت هذه النوادي بمثابة لجان حكم واختبار، وكل أعضاء النادي هم الفاحصون والنقدة الذين يتصيدون الأخطاء لكل وافد جديد، بل لكل واحد منهم، ومن ينجح في هذا الاختبار يطير صيته وينضم إلى قائمة أعضاء النادي، وكلما أثبت تفوقاً وإجادة علت رتبته، ولذلك كان التنافس على أشده بين الشعراء، وكما يقول غارسيه غومس: «فلا عجب إذاً من أن يكون إنتاجهم رفيعاً^(٢)»، وكما تقول الدكتورة كليلا:

(١) مجاهد العامري ٤٦.

(٢) الشعر الأندلسي ٤٥.

«هكذا أصبحت قصور ملوك الطوائف بمثابة أكاديميات للعلوم والآداب والفنون يحج إليها كل طالب علم وراغب في الأدب»^(١).

ونضرب مثلاً لذلك ما حدث للقسطلي مع المنصور بن أبي عامر، وابن حمديس مع المعتمد بن عباد.

فهذا القسطلي يمدح المنصور بن أبي عامر، فيتهم بالسرقة والسطو على شعر غيره، فيستحضره المنصور ويختبره، فيرتجل أمامه بعض الأبيات الشعرية، ثم ينشئ قصيدة طويلة في مدحه يقول في أولها:

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا
وعطف نعماك للحظ الذي انقلبا

ثم يذكر الوشاة الذين اتهموه بالباطل فيقول:
ودسّسوا لي في مثنى حبالهم
شنعاء بتُّ بها حرّان مكتئبا
حتى هُزئتُ فلا زندُ القريض كبا
في ما لديّ ولا سيف البديهِ نبا^(٢)

وهذا ابن حمديس يلاقي الإهمال في بدء لقائه بالمعتمد، ثم يدعوه ويعقد له امتحاناً في الشعر فينجح وينال الإعجاب والاستحسان^(٣).

بل كان الملوك يبعثون برقاعهم إلى الشعراء يدعونهم إلى مجالسهم، وهذا ابن عبّاد يدعو مجموعة من أصحابه الشعراء إلى قصر بالزهراء، فيقول:

حسد القصرُ فيكمُ الزهراءُ
ولعمري وعمركم ما أساء
قد طلّغتمُ به شُموساً صباحاً
فاطلّعوا عندنا بُدورا مساءً^(٤)

(١) مجاهد العامري ٤٤.

(٢) انظر جذوة المقتبس ص ١١١.

(٣) انظر ديوان ابن حمديس ق ٣٤٤.

(٤) المختار من شعر شعراء الأندلس ص ٤٤.

ويبدلون لهم الرغائب استمالة لهم، ويروى أن مجاهدًا العامري بذل لتمام بن غالب المعروف بابن التيانى أربعة آلاف دينار على أن يزيد في كتابه: «وذلك ما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد»، فامتنع، وقال: وضعته للمسلمين عامة^(١).

ثانيًا: بالإضافة إلى ما سبق فإن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا يتمتعون بقدرات أدبية وشعرية عالية، وهذا ما حدا بهم إلى جانب العديد من الأسباب النفسية والاجتماعية والسياسية أن يحدبوا على الشعراء والأدباء والعلماء، وأن يدعوهم إلى بلاطاتهم، ويغدقوا عليهم العطايا والهباء والوظائف، فإشبيلية دولة العباديين تألق من ملوكها في سماء الشعر كوكبان لامعان هما: المعتضد وابنه المعتمد، أما أبناء المعتمد: الراضي بالله يزيد، وعبيد الله الرشيد والفتح المأمون فكلهم يقول الشعر، وقد التف من حولهم كوكبة من أعظم شعراء الأندلس كابن زيدون وأبي بكر بن عمار، وأبي بكر بن اللبانة وابن حمديس وأبي العرب الصقلي، وعبد الجليل بن وهبون.

ومن خلال تلك الرسائل الشعرية المتبادلة بين المعتمد وهؤلاء الشعراء تحس بأن هؤلاء الملوك الشعراء متواضعون لزملائهم الشعراء،- وكأنهم في رتبة واحدة - وهم كذلك في الشعر، ولننظر إلى ابن عباد يدعو أبا بكر بن عمار فيقول:

وقد زارنا النرجس الذكي

وحان من يومنا العشوي

ونحن في مجلس أنيق

وقد ظمئنا وفيه ري

ولي صديق غدا سمي

يا ليتته ساعد السمي

فأجابه ابن عمار:

لببيك لببيك من مناد

له الندى الرحب والندي

(٢) من علماء اللغة في الأندلس، من أهل قرطبة، توفي سنة ٤٣٠هـ. انظر: إشارة التعيين، ص ٦٧.

ها أنا في الباب عـبـد قن قـبـلـتـهـ وجـهـك السـنـي^(١)

وهذا ابن جهور في قرطبة وابنه أبو الوليد من الشعراء ووزيرها ابن زيدون الذي ترك قرطبة خشية من تغير أبي الوليد ابن جهور، كما تغير والده من قبل فسجنه، وتوجه إلى إشبيلية وأصبح من خاصة المعتضد ثم أصبح وزيراً لابنه المعتمد.

وفي دانية وجزر البليار ظهر مجاهد العامري ناقد الشعراء والمؤلف في عروض الشعر، والتف من حوله عدد من الشعراء سنذكرهم عند الحديث عن بلاطه الأدبي.

وفي بطليوس وغرناطة ومالقة وطليطلة وجدنا هذه التجمعات والنوادي الأدبية، تزدهر في بلاطات هؤلاء الملوك، فكان لتشجيعهم الأثر العميق في ازدهار الأدب، فكان أن تألفت الأندلس بجلتها الأدبية، وترصعت سماؤها بالنجوم اللوامع من شعرائها وكتابها ومنشئها.

وإذا كانت الأقلام قد شرعت في ذم هؤلاء الملوك لأنهم السبب في انحدار الدولة الإسلامية في الأندلس فإن «هؤلاء الملوك في الواقع قد تسلموا بلاد الأندلس وهي في حالة ضعيفة من الوجهتين السياسية والعسكرية، وعلى ذلك لا ينبغي أن يوجه إليهم اللوم على أساس أنهم الذين قادوا البلاد إلى هذا المصير، وإنما ينبغي أن يلاموا على أنهم لم يحاولوا النهوض بها، على أنني يجب أن أسجل لهم فضلهم على الشعر والأدب والعلوم فقد ازدهرت كما لم تزدهر من قبل^(٢)».

ثالثاً: ومن أسباب ازدهار الأدب في العواصم الإقليمية، فتنة البربر في قرطبة فقد ذكر صاعد اللغوي في طبقاته ما قام به البربر في هدم مكتبات قرطبة وإحراقها، وما حدث من أعمال السلب والنهب^(٣).

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٤٧ والمختار من شعر شعراء الأندلس ٤٤ - ٤٥.

(٢) مجاهد العامري ٤٤.

(٣) انظر طبقات الأمم ٦٧.

ولقد كان هذا السبب دافعاً لهجرة العلماء والأدباء والشعراء من قرطبة إلى عواصم الأقاليم، وقد دفعت هذه الفتنة الكثير من الأسر الثرية إلى الأقاليم، وفي أعقابهم المعلمون وتلاميذهم الذين كونوا مراكز جديدة للثقافة، وغرسوا البذور الأولى للعلم في نفوس الأهالي الذين أصبحوا فيما بعد رعايا ملوك الطوائف^(١).

وإذا كان حديثنا عن الازدهار الثقافي والأدبي في جزر البليار في الأسباب الآتية قد غدت جزر البليار بهذه النهضة، إلى جانب أسباب أخرى نذكر منها:

أ - تمتعها باستقرار سياسي، فقد كانت بموقعها « المنعزل الحصين أبعد من أن تنزلق إلى معترك الحرب الأهلية التي كانت تنحدر إليه ممالك الطوائف الأخرى، وأبعد عن عداوة ملك قشتالة الذي كان يهدد سائر الطوائف^(٢) ».

ب - سقوط إشبيلية وانتهاء ملك المعتمد على يد المرابطين الذين لم يفسحوا صدورهم للشعر كما كان العهد في عصر ملوك الطوائف، مما اضطر كثرة من الشعراء إلى التوجه إلى ميورقة، نذكر منهم: ابن حمديس، ابن اللبانة، أبا العرب الصقلي، ابن العوام الإشبيلي وغيرهم.

ج - كثرة بناء المساجد التي اتخذت مدارس وملتقيات فكرية وأدبية، وحلقات للدراسات التي تقوم حول القرآن الكريم وعلومه، والحديث والفقه واللغة والأدب، وظهر منهم كثير من المعلمين نعد منهم: عبدالرحمن بن سعيد، ويوسف بن عبدالعزيز، والحسن بن أحمد، وأحمد العجيفي الميورقي، وأبا الظفر المنورقي شيخ أبي عرفة اللخمي المحدث، وانتشرت المذاهب الفقهية في هذه الجزر، فظهر المذهب المالكي والظاهري.

د - كون هذه الجزر بيئة علمية ثقافية أدبية، نسب إليها جماعة من العلماء والأدباء والشعراء، و الناظر في المنتسبين إلى هذه الجزر من هذه الفئات يتبين مدى الازدهار الذي عاشته هذه الجزر، ومدى الإضافة التي أسهمت بها في ميادين الحضارة والثقافة الإسلامية، ونورد على سبيل المثال لا الحصر المشهورين منهم:

(١) انظر مجاهد العامري ٤٤ نقلاً عن كتاب لربيرا ص ٢٠٦.

(٢) دول الطوائف ق ١ ص ١٨٣ - ١٨٤.

- يوسف بن عبدالعزيز بن علي بن عبدالرحمن أبا الحجاج اللخمي الميورقي الأندلسي الفقيه المالكي، رحل إلى بغداد، وتفقه بها مدة، وقدم دمشق سنة ٥٠٥هـ، وحدث بها، وعاد إلى الإسكندرية ودرس بها^(١).

- الحسن بن أحمد بن عبدالله بن موسى بن علون أبا علي الغافقي الأندلسي الميورقي، الفقيه المالكي، يعرف بابن العنصري، ولد بميورقة سنة ٤٤٩هـ وسمع ببلده وبيت المقدس ومكة وبغداد ودمشق^(٢).

- محمد بن سعدون بن مرجي بن سعد بن مرجي أبا عامر القرشي العبدي الميورقي الأندلسي الحافظ، كان فقيها على مذهب داوود بن علي الظاهري، وكان نادرة في الحفظ، أثنى عليه أبو بكر ابن العربي، وقال: هو ثقة حافظ مقيد، لقيته فتي السن كهل العلم^(٣).

- علي بن أحمد بن عبدالعزيز بن طنيز أبا الحسن الأنصاري الميورقي، قدم دمشق وسمع عن عدة بها، وروى عن كثير من المحدثين، وكان ثقة عالما باللغة، تنقل بين البصرة وعُمان ومات على باب البصرة عام ٤٧٤هـ، وسترد ترجمته في شعراء البليار.

ومن شعره قوله:

وسائلة لتعلم كيف حالي
فقلت لها بحال لا تسرُّ
وقعتُ إلى زمان ليس فيه
إذا فتشتُ عن أهليه حُرُّ^(٤)

قال الصفدي: كان مقدماً في النحو، سمع ابن عبدالدائم وغانم بن الوليد المخزومي، وحج وقدم بغداد، ومات بكازمة سنة ٤٧٥هـ.

(١) انظر معجم الأدباء ٢٤٦/٥.

(٢) المصدر نفسه ٢٤٦/٥.

(٣) المصدر نفسه ٢٤٦/٥ والصلة ٥٦٤/٢.

(٤) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٢٤٧/٥ وبغية الوعاة ١٤٤/٢.

- علي بن محمد عبد الملك الشاطبي ثم المرسى أبا الحسن الميورقي اقرأ بمرسية النحو والفقه، وكان يفسر القرآن كل جمعة، أخذ عن صهره أبي عبدالله وأجاز له أبو الربيع ابن سالم، وكان من أهل الصون والعفاف والانتقباض والفضل، مات سنة ٦٧٠ هـ^(١).

- محمد بن عمار الكلاعي أبا عبدالله الميورقي، قدم مصر وروى عن ابن الوليد بها، وكان عالماً، وله قصيدة طويلة منها حكم ومواعظ يوصي ابنه بها، منها قوله:
وطاعة من إليه الأمر فالزم

وإن جاروا وكانوا مسلمينا

فإن كفروا كفّر بني عبّيد

فلا تسكن ديار الكافرينا

واسم ابنه حسن، وسمع من المذكور الحافظ القاضي أبي بكر بن العربي في رحلته سنة ٤٨٥ هـ ووصفه بالعلم^(٢).

- محمد بن الحسين أبا بكر الشهير بالميورقي، لأن أصله منها، سكن غرناطة، وروى عن أبي علي الصديقي، ورحل حاجاً، فسمع بمكة من أبي الفتح عبدالله بن محمد البيضاوي، وأبي نصر عبدالله بن أبي مسلم النهاوندي في شوال وذو القعدة من سنة ٥١٧ هـ، بالإسكندرية من أبي عبدالله الرازي، وأبي الحسين ابن مشرف، وأبي بكر الطرطوشي، وغيرهم، وعاد إلى الأندلس بعد مدة طويلة، فحدث في غير ما بلد لتجوله وكان فقيهاً ظاهرياً، وعارفاً بالحديث وأسماء الرجال، متقناً لما رواه، يغلب عليه الزهد والصلاح، روى عنه أبو عبدالله النميري الحافظ، ويقول فيه: الأزدي تدليساً، لأنّ الأنصار من الأزدي، وصار أخيراً إلى بجاية هارباً من صاحب المغرب، وحدث هناك وسمع منه في سنة ٥٣٧ هـ^(٣).

- أحمد بن إسماعيل بن دليم القاضي الجزيري من جزيرة ميورقة، يكنى أبا عمر، سمع محمد بن أحمد بن الخلاص، وأبا عبدالله العطار، ذكره الحميدي وقال: سمعنا منه قبل الأربعين والأربعمئة^(٤).

(١) بغية الوعاة ١٩٤/٢.

(٢) نفح الطيب ٦٠/٢ وانظر ترجمته في التكملة ص ٤٠٣.

(٣) نفح الطيب ١٥٥/٢ وانظر ترجمته في التكملة ٤٤٠ والذيل ٦٣/٦.

(٤) الصلة ٥٢/١.

- أحمد بن العجيفي العبدري من أهل يابسة، يكنى أبا العباس، حَدَّثَ عن أبي عمران الفاسي، وأبي عبد الملك بن علي البوني، لقيه القاضي أبو علي بن سكرة بياسة وروى عنه بها^(١).

- أمية بن عبدالله الهمداني الميورقي، يكنى أبا عبدالله، رحل إلى المشرق، ولقي بمكة الأسيوطي صاحب النسائي، وبمصر أبا إسحاق بن شعبان وابن رشيق، وكتب عنهم، كان حجه سنة ٣٥٥هـ وكان ذا فضل وعفاف وستر ظاهر، توفي رحمه الله بميوزقة ليلة السبت لثمان بقين من ذي القعدة، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، ومولده سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة^(٢).

- عبدالعزيز بن الحسن الحضرمي من أهل ميوزقة، سكن قرطبة، يكنى أبا الإصبع، سمع من أبي العباس العذري صحيح مسلم، وأجاز له، وسمع من أبي عبدالله بن سعدون، ومن أبي بكر المراري وغيرهم، وسمع من أبي الحسن اللخمي كتاب التبصرة من تأليفه، وتوفي رحمه الله سنة ٥٢٦هـ^(٣).

- علي بن سعيد العبدري من أهل جزيرة ميوزقة، يكنى أبا الحسن، سمع بها قديماً من أبي محمد بن حزم، وأخذ عنه أيضاً ابن حزم، ورحل إلى المشرق وحج، ودخل بغداد، وترك مذهب ابن حزم، وتفقه عند أبي بكر الناشي، وله تعليق في مذهب الشافعي، وسمع من الخطيب أبي بكر بن ثابت البغدادي وغيره، صحبه القاضي أبو بكر بن العربي، وأخذ عنه وأثنى عليه، وكان حياً ببغداد سنة ٤٩١هـ وتوفي بعد ذلك، وذكره الأمير أبو نصر بن ماكولا وقال: صديقنا أبو الحسن الفقيه العبدري رجل من أهل الفضل والمعرفة والأدب وهو من جزيرة ميوزقة^(٤).

- عبدالله مولى الرئيس أبي عثمان بن حكم صاحب منورقة رحمه الله، شيخ مبارك، من أهل الفضل والدين والانقباض والورع والعدالة التامة، تأدب بسيدته، أبي

(١) الصلة ٧٠/١.

(٢) الصلة ١١٠/١.

(٣) المصدر نفسه ٢/٢٧٤.

(٤) المصدر نفسه ٢/٤٢٣.

عثمان، وقرأ وسمع عليه، وأخذ عن جماعة ممن ورد عليهم بجزيرة ميورقة، وأجاز له جماعة كبيرة، وألف برنامجاً ذكر فيه نحو السبعين من شيوخه، ثم تقلب بين سبتة وسلا، وعاد إلى غرناطة، توفي عقب سنة ٦٩٧هـ^(١).

- عبدالله بن الحسين بن عشرين الياسي - كان مُصَدِّراً في جامع الاسكندرية لإقراء الناس القرآن والنحو، وله شعر كثير، أخذ النحو عن ابن الطراوة، وتوفي سنة ٦٢٥هـ^(٢).

- يوسف بن عبدالعزيز بن علي اللخمي الميورقي، نزيل الإسكندرية المعروف بابن نادر، عالم بأصول الفقه، متفنن، جمع بين الدراسة والرواية. حج وأخذ عن علماء مكة وبغداد ودمشق، وأخذ بعضهم عنه، واستقر بالإسكندرية، وأحيا بها علم الحديث، له تصانيف منها: التعليقة الكبرى في الخلاف^(٣).

- محمد بن الحسين بن علي بن موفق يكنى أبا عبدالله الأندلسي الميورقي، ويقال له: ابن الشكار، عالم بالقراءات مات قبل الكائنة العظمى من الروم على ميورقة بنحو ستة أشهر في سنة ٦٢٦هـ^(٤).

- محمد بن أحمد بن محمد بن الجلاب الفهري، أديب سكن منورقة، وصنف فيها بعض كتبه، واستشهد على ظهر البحر مقبلاً على قتال الروم، من تأليفه: «الفوائد المتميزة من رواية المشيخة العشرة»، «فرغ من تقييده في منورقة في ذي القعدة سنة ٦٥٥هـ، وكتاب «النزهة» وسماه «إيثار النقل لأثار الفضل» وكتاب «روح الشعر» اختصره أبو عثمان سعيد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون الأندلسي، وسمي المختصر «لمح السحر من روح الشعر»^(٥).

(١) الذيل والتكملة ق٢ ص ٣٣٥.

(٢) بغية الوعاة ٣٨/٢ ومعجم الأدباء ٤٢٤/٥ والأعلام ٣٢٧/٦.

(٣) الأعلام ٢٣٨/٨.

(٤) التكملة ٣٣٥/١ والأعلام ١٠١/٦.

(٥) الأعلام ٣٢٢/٥.

- أبو عبدالله محمد بن فتوح الحميدي الإمام المحدث الفقيه الشاعر، من الأئمة المشهورين والفضلاء المذكورين، حج وسكن بغداد سنة ٤٨٨ هـ وفيها صنف كتابه المشهور «جذوة المقتبس في علماء الأندلس»^(١)، وسترده ترجمته في فصل شعراء البليار.

وهناك عدد كبير من الشعراء الذين نسبوا إلى هذه الجزر نذكر منهم: إدريس ابن اليمان اليايسي، وعلي بن أحمد بن طنيز الميورقي، وعبدالله بن الحسين بن عشير اليايسي، وابن عبدالولي الميورقي، وابن العطار اليايسي وأبا المحجي عياش بن حوافر ومحمد بن عمر بن عمار الميورقي، وسنعرض لهؤلاء الشعراء بدراسة مفصلة في فصل أعلام الشعراء المنتسبين إلى هذه الجزر.

أما الوافدون فلا يكاد يقع عليهم الحصر لكثرتهم وأما العلماء والفقهاء والمحدثون والقراء واللغويون فنعد منهم:

- عبدالله بن عبيد الله المعيطي الذي تولى الخلافة بعد أن بايعه مجاهد العامري، والذي ورد الحديث عنه سابقاً^(٢).

- أحمد بن مطرف يعرف بابن الخطاب، من أهل قرطبة، يكنى أبا بكر، أخذ القراءة عرضاً من أبي الحسن الأنطاكي وأبي الطيب بن غلبون، وسمع من أحمد بن ثابت التغلبي، وأبي أحمد السامري، وأبي حفص بن عراك.

خرج في الفتنة إلى الثغر، ثم انتقل إلى جزيرة ميورقة، فتوفي بها سنة ٤١٠ هـ، وهو ابن خمس وسبعين سنة^(٣).

- عبدالرحمن بن أحمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عمير الثقفي من أهل سرقسطة يُكنى أبا بكر، سكن قرطبة، وكان من أهل العناية بالرواية، حسن الخط والضبط أزعجته الفتنة بقرطبة إلى ميورقة، فنزلها وحدث بها^(٤).

(١) المغرب ٤٦٧/٢.

(٢) الصلة ٢٦٩/١.

(٣) المصدر نفسه ٣٦/١.

(٤) الحلل السندسية ١٥٥/٢.

- ثابت بن محمد الجرجاني، قدم الأندلس سنة (٤٠٦هـ) وجال في أقطار الأندلس، وبلغ إلى ثغورها، ولقي ملوكها، ورافق مجاهدًا العامري في غزوة سردانية، وعاد معه إلى ميورقة^(١).

- خلف بن غصن بن علي الطائي، من أهل قرطبة، يكنى أبا سعيد، أخذ القراءة عن أبي الطيب بن غلبون، وهو الذي لقنه القرآن، وعن أبي حفص بن عراك، أقرأ الناس بقرطبة وغيرها، توفي بجزيرة ميورقة سنة ٤١٧هـ وقد قارب السبعين^(٢).

- عبدالرحمن بن محمد بن معمر اللغوي صاحب التاريخ في الدولة العامرية، يكنى أبا الوليد، كان واسع الأدب والمعرفة، توفي بالجزائر الشرقية سنة (٤٢٣هـ)^(٣).

- عبدالملك بن سليمان الخولاني، يكنى أبا مروان، محدث سمع بالأندلس وأفريقية ومصر ومكة، سمع منه الحميدي، ومات بجزيرة ميورقة قبل (٤٤٠هـ)^(٤).

- الفتح بن خاقان الكاتب الأندلسي المشهور صاحب قلائد العقيان، وبها التقى بأبي جعفر ابن البني.

- إبراهيم بن أحمد الغرناطي، يكنى أبا إسحاق، قاضي أندلسي، ولد ونشأ بغرناطة، وولي القضاء في بعض أعمالها، ثم خرج إلى ميورقة عند انقضاء دولة الملتمين واستقر فيها، وتقلد قضاءها، وتوفي بها سنة (٥٧٩هـ) وله مختصر في الشروط^(٥).

أما الشعراء الوافدون فعددهم وفير منهم:

ابن حمديس الصقلي، أبو العرب الصقلي، ابن اللبانة، أبو جعفر البني، ابن سهل الإسرائيلي، أبو بكر محمد بن العوام الإشبيلي، أبو عبدالله محمد بن خطاب الهنتاني،

(١) الصلة ١٢٣/١ والذخيرة ق ٤ م ١ ص ١٢٤.

(٢) الصلة ١٦٧/١.

(٣) المصدر نفسه ٣٢٨/٢.

(٤) المصدر نفسه ٣٦٠/٢.

(٥) الأعلام ٢٩/١.

أبو المطرف، أحمد بن يامن، ابن همشك التنملي، كثير الأديب. وغيرهم كثير، وسنفصل القول فيهم في فصل الشعراء الوافدين على جزر البليار.

من هنا نتبين أسباب ازدهار النهضة العلمية، وعظم ما أسهمت به هذه الجزر، وكان لأبنائها وللوافدين عليها فضل في هذه الذخائر من المؤلفات في ميادين مختلفة. ففي علوم القرآن نجد «الميسر في القراءات» لمحمد بن الحسين المعروف بابن الشكّار وفي الحديث «الجمع بين الصحيحين» للحميدي، وله أيضا «تفسير غريب ما في الصحيحين»، ولابن الجلاب الفهري كتاب «الفوائد المتخيرة من رواية المشيخة العشرة».

وفي الفقه: «مختصر في الشروط» لإبراهيم الغرناطي، و«إيثار النقل» لابن الجلاب الفهري و«التعليقة الكبرى في الخلاف» ليوسف بن عبدالعزيز أبي الحجاج الميورقي، و«تعليق في مذهب الشافعي» لعلي بن سعيد العبدري.

وفي التراجم: «جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر، وهو من أجل كتب التراجم الأندلسية للحافظ الحميدي.

وفي التاريخ: بُلغة المستعجل أو تاريخ الإسلام للحافظ الحميدي، وتاريخ ميورقة لأحمد بن عبدالله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي البلسني، قال ابن الخطيب: له تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها، نحا فيه منحى العماد الأصفهاني في الفتح القدسي^(١).

وفي الأدب: تسهيل السبيل إلى علم الترسيل، والمتشاكه في أسماء الفواكه، ونوادر الأطباء، والذهب المسبوك في وعظ الملوك، والتذكرة، وكلها للحافظ الحميدي، و«روح الشعر» لابن الجلاب الفهري اختصره أبوعثمان سعيد بن أحمد وسماه «لمح السحر من روح الشعر».

(١) الإحاطة ١/١٧٨.

الفصل الثاني

البلاطات الأدبية

بلاط مجاهد العامري:

مع كل ما سبق، فقد أشاد المؤرخون بمناقب مجاهد العامري، وخلال الحميدة، ودهائه السياسي، وعبقريته الحربية، ولكن أعظم هذه المزايا هي مزاياه العلمية ومآثره الأدبية، من ذلك ما ذكره ابن بسام حيث يقول: «كان مجاهد فتى دهره، وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن، عني بذلك من صباه وابتداء حاله، إلى حين اكتهاله، ولم يشغله عن التزيد عظيم ما مر به في الحروب براً وبحراً، حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة، وكانت دولته أكثر الدول خاصة، وأسراها صحابة لانتحالهم الفهم والعلم، فأمة جلة العلماء، وأنسوا مكانه، وخيموا في ظل سلطانه، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة، وجلة ظاهرة، إلا أنه كان مع أدبه من أزهد الناس في الشعراء، وأحرمهم لأهله، وأنكرهم على منشده، فأقصر الشعراء عن مدحه، وخلا الشعر من ذكره»^(١) وعلى الرغم من هذه المقولة، فقد وجدنا كثيراً من الشعراء يذكرونه ويمدحونه.

ومع ذلك أيضاً فقد كان ناقدًا بصيرًا بالشعر «فلا تسلم على نقده قافية»^(٢) وقد ذكرت بعض الروايات أن له تأليفًا في العروض^(٣)، وهذا يدل على ما تمتع به مجاهد من بصر بالشعر وعلم به.

(١) الذخيرة ق ٣ ص ٢٢ وانظر البيان المغرب ١٥٦/٣.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٢٣.

(٣) معجم الأدباء م ٩ ج ١٧/٨١.

وقد ارتحل إليه جلة من الأدباء، وبخاصة أدباء قرطبة بعد فتنة البربر، وفي ذلك يقول ابن بسام: «إليه كانت هجرة أولي البقية وذوي الحرية من هذه الطبقة الأدبية القرطبية، للين جانبه وذكاء شهابه»^(١).

ونتيجة لهذه المكانة العلمية والأدبية التي سما إليها أبو الجيش مجاهد، وعنايته الشديدة بطلب العلم وجمع الكتب، فقد: «أتت إليه العلماء من كل صقع، فاجتمع بفنائهم جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم، كأبي عمرو المقيري^(٢) وابن عبد البر، وابن معمر اللغوي، وابن سيده فشاع العلم في حضرته، حتى فشا في جواريه وغلماؤه، فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرآن، ويشاركون في فنون العلم يجلونه بها، ويشرفون دولته^(٣). حقا لقد أصبحت دانية وجزر البليار في عهد مجاهد مركزاً علمياً وأدبياً، توافد عليه العلماء والأدباء والشعراء من كل حذب وصوب، ولقد وجدنا بعض الأدباء والعلماء يغري الآخرين من زملائهم بالوفود إلى هذه الحاضرة، فالكاتب أبو عامر أحمد بن غرسية الذي أدبه مجاهد «وكان بينه وبين أبي جعفر بن الجزار الشاعر صحبة أوجبت ان استدعاه من خدمة المعتصم بن صمادح ملك المرية ناقدًا عليه ملازمة مدحه، وتركه ملك بلاده»^(٤).

ومن أشهر من ضمه مجلس مجاهد هو العالم اللغوي الكبير علي بن سيده^(٥) أبو الحسن اللغوي الأندلسي الضرير، صاحب كتابي المحكم والمخصص، قال الحميدي: «كان ابن سيده منقطعاً إلى الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، ثم حدثت له نبوة بعد وفاته في أيام إقبال الدولة بن الموفق فهرب منه، ثم قال يستعطفه:

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٢٣.

(٢) هو عثمان بن سعيد بن عمرو الداني، عالم كبير في القراءات من الحفاظ، انظر ترجمته في نفح الطيب ١٣٥/٢.

(٣) أعمال الأعلام ص ٢١٧ والمغرب ٤٠٦/٢.

(٤) المغرب ٤٠٧/٢.

(٥) انظر ترجمته في نكت الهميان ٢٠٤.

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى
سبيل فإن الأفق في ذاك واليمنى
ضحيت فهل من برد ذلك نومة
لذي كبد حرى وذي مقلّة وسنى
ونضو هموم طلّحتة ظبائه
فلا غارباً أبقي منهُ ولا متنا

ومن العلماء الذين استدعاهم مجاهد إلى بلاطه: العالم اللغوي أبو العلاء صاعد
البغدادي صاحب كتاب الفصوص الذي ألفه للمنصور بن أبي عامر، وقد استماله
مجاهد بخريطة مال ومركب أهداها إليه، فقال فيه قصيدة أولها:

أتتني الخريطة^(١) والمركب
كما اقترن السعد والكوكب
وحط بمينائه قلعه
كما وضعت حملها المقرب^(٢)
على ساعة قام فيها الثناء
على هامة المشتري يخطب
مجاهد نضت إباء الشموس
فأصبح ما لم يكن يُصبح
فقل واحتمكم لي فسمع الزمان
مُصيح إليك بما ترغب^(٣)

ومن الذين برزوا في الأدب والرسائل الكاتب الوزير أبو أحمد بن رشيق، وقد عدّ
ياقوت تقديم مجاهد لهذا الوزير من أعظم فضائله، وعنه قال:

كان أبوه من موالى بني شهيد، ونشأ هو بمرسيه، وانتقل إلى قرطبة، وطلب الأدب
وبرز فيه، وبسق في صناعة الرسائل، مع حسن الخط المتفق على نهايته، وتقدم منهما،

(١) الخريطة: وعاء من جلد لوضع النقود.

(٢) المقرب: التي قرب وضع حملها.

(٣) معجم الأدباء م ٩ ج ١٧ ص ٨٠ - ٨١ وانظر في ترجمته الجذوة رقم ٢٠٧.

وشارك في سائر العلوم، ومال إلى الفقه والحديث، وبلغ من رئاسة الدنيا أبلغ منزلة، وقدمه الأمير الموفق أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامري على كل من في دولته، لأسباب أكدت له ذلك عنده، من المودة والثقة والنصيحة والصحبة في النشأة، وكان ينظر في أمور الجهة التي كان فيها نظر العدل والسياسة»^(١).

أما ذلك العالم الفذ والأديب الفرد أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي صاحب التصانيف الكثيرة في الفقه والحديث والأدب، فقد وجد في ظلال مجاهد العامري الأمن والاستقرار والملاذ، حيث افتقد كل ذلك في بلده قرطبة إثر فتنة البربر، وفي ذلك يقول الدكتور محمد مرسي الخولي: «ولقد كان من بين هؤلاء المهاجرين، أبو عمر بن عبدالبر الذي اضطرت تحت هول ما رآه من حوادث إلى ترك بلده الحبيبة ومرتع صباه، خصوصاً وقد أثر في نفسه قتل أستاذه الكبير وصديقه العظيم أبي الوليد ابن الفرضي مظلوماً في بيته بيد البربر الذين لم يراعوا للرجل علمه ومكانته، أو يرحموا فيه ضعفه وشيخوخته»^(٢).

أقبل أبو عمر على دانية قاعدة ملك مجاهد شاباً في الثلاثين من عمره، فلقي فيها ما أمله، وعاش فيه نحواً من ثلاثين عاماً ألف خلالها معظم كتبه الموسوعية، يذكر منها ابن حزم^(٣):

- كتاب التمهيد والاستذكار في الحديث والكافي في الفقه.

- وكتاب في الصحابة، وبهجة المجالس في الأدب، وجامع بيان العلم، وغير ذلك.

وكان لابن عبدالبر ابن أديب وكاتب بليغ، ضمه مجاهد إلى كتّاب دواوينه، وظل يترقى حتى أصبح رئيساً لكتّاب الدواوين في عهد ابنه علي، ويبدو أن علياً أرسله برسالة إلى المعتضد بن عباد ملك إشبيلية فحبسه هذا الأخير في سجنه، مما جعل ابن عبدالبر يقصده مستعظفاً برد حرية ابنه، فقال:

(١) المصدر السابق ٣/٣٢.

(٢) بهجة المجالس المقدمة ص ١١.

(٣) انظر نفح الطيب ٧٦٧/٢ وتاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - للدكتور إحسان عباس ٢٩١.

قصدتُ إليك من شرقٍ لغربٍ
لتُبصر مُقلتي ما حلَّ سمعي
وتعطفك المكارمُ نحو أصلٍ
دعاكم راغبًا في خير فرع
فإن جُدتُم به من بعد عفوٍ
فليس الفضلُ عندكم ببُعد

ويرد المعتضد إلى ابنه حرّيته ويعود إلى مكانته ولكن الموت سرعان ما تخطفه عام ثمان وخمسين وأربعمائة، ولعل هذا السبب وأسبابًا أخرى هي التي حولت ابن عبد البر عن دانية إلى شاطبة حيث توفي بها عن خمسة وتسعين عامًا في سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

ووفد عليه من المشرق الشاعر الفتح بن أفلح الذي مدحه بقصيدة مطلعها:

غرائبُ مما أغرب الدهرُ أطلعت
عليك هلالَ العلم من أفق الغربِ

ومن المشرق أيضًا جاءه أبو الفتوح ثابت الجرجاني^(١) شارح كتاب الجمل للزجاجي، ولم يكتف مجاهد بكون هذا الأديب الشاعر نجم بلاطه وإنما كان يصحبه في رحلاته وحروبه، وقد صحبه في أعظم معركة قادها مجاهد لفتح سردانية، وشاهد هذا الأديب العالم هذا الفتح، ورأى بأَم عينيه بعد ذلك الهزيمة المنكرة التي أوقعها الإفرنج بمجاهد.

وقد سأل مجاهد يومًا عن رفيق له رآه معه، فقال الجرجاني:

رفيقان شتى أَلَف الدهرُ بيننا
وقد يلتقي الشَّتَى فيأْتلفان^(٢)

(١) انظر ترجمته في الذخيرة ق٤ م ١ ص ١٢٤، الجذوة ١٧٣، بغية الملتبس رقم ٦٠٢، الإحاطة ٤٥٤/١، وبغية الوعاة ٢١ ومعجم الأدباء ١٤٥/٧.

(٢) الذخيرة ق٤ م ١ ص ١٢٥.

ومن الشعراء المشهورين الذين مدحوا مجاهدًا بصفتيه العسكرية والأدبية: أبو حفص ابن برد الأصغر^(١)، الذي أثنى عليه في رسالته المشهورة برسالة السيف والقلم، يقول فيها:

يا أيها الملك السامي بهمته
إلى سماء علا قد أعيت الهمما
لولا طلابي غربت المدح فيك لما
وصفت قبل عاك السيف والقلمما
وإنما كان تعريضًا كشفت به
من البلاغة وجهًا كان ملتثما^(٢)

ومن ندمائه المشهورين، وأعلام مجلسه صبح الشعراء وغرة وجوههم الشاعر الفذ ابن مقانا الأشبوني^(٣)، وله فيه قلائد المدائح، يقول من إحداها:

ولما سقنا بإبريقها
لثمنا يديها وخالها
وبتنا وباتت على ساقها
تصفق للشرب جريالها
كأن نجوم الدجى روضة
تجر بها السحب أذيالها
كأن الثريا بها راية
يقود الموفق أبطالها^(٤)

كما ضم بلاطه الكاتب الشاعر أبا بكر محمد بن القاسم المعروف باشكهاط^(٥)، الذي حل بحضرة دانية فهصر من قطوفها الدانية، وألقى عصا الترحال عند ملكها مجاهد، فبلغ من الآمال عنده ما ليس بعدها مقترح، وفي ذلك يقول:

- (١) هو أبو حفص أحمد بن محمد بن برد الأصغر من الكتاب البلغاء والشعراء كان حيا في حدود ٤٤٠هـ. انظر ترجمته في جذوة المقتبس ١١٥ وبيغة الملتمس ١٥٣ والذخيرة ق ١ م ١ ص ٤٨٦ والمغرب ٨٦/١.
- (٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٥٢٨.
- (٣) هو أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني، من غرب الأندلس من ساحل شنتمرة من قرية تدعى بالقبذاق، شاعر مطبوع مجيد. انظر ترجمته في الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٧٨٦ والجذوة ٢٦٠ والمغرب ١٣/١.
- (٤) الذخيرة ق ٢ م ٢ ص ٧٩٦.
- (٥) من الكتاب الشعراء أصله من وادي الحجارة ونشأ بقرطبة، ثم ارتحل إلى المشرق، ثم رجع إلى الأندلس وسكن دانية. انظر ترجمته في المغرب ٣١/١ والذخيرة ق ١ م ١ ص ١٩٥ وفيها اشكياط، ونفح الطيب ٩٥/٢ وفيه عرف باشكهاط.

وكم قد لقيتُ الجهد قبل مجاهدٍ
وكم أبصرت عيني وكم سمعت أذني
ولاقيت من دهري وصرف خطوبه
كما جرت النكباء في معطف الغصن
فلا تسألوني عن فراق جهنم
ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن^(١)

وهذا، صدّاح الأندلس وبلبلها الغريد ابن زيدون يترقرق بقافيته الرائعة، فيقول
في مجاهد:

أترى اللقاء كما نحبُّ يوفّق
فنظّل نصبحُ بالسرور ونغيبُ
أفدي أبا الجيش الموفق إنه
للمكرمات ميسّر وموفّق

ولم يكن الشعراء والأدباء والعلماء وحدهم الذين عرفوا لمجاهد فضله وأدبه
وعلمه، فهاهم أولاد الأمراء والملوك يتسابقون لخطب وده والثناء عليه، فالمعتضد بن
عباد ذاك الضيغم، يتلطف في أبيات على لسان شاعره الرقيق ابن زيدون ليرسلها إلى
أبي الجيش موفق، تبين عن عظيم مصافاة، وجميل ظن، ورائع تقدير، يقول فيها:

عرفتُ عرف الصبا إذهب عاطره
من أفق من أنا في قلبي أشاطره
أراد تجديد ذكره على شحط
وما تيقن أنني الدهر ذاكره
نأى المزار به والدار «دانية»^(*)
يا حبذا الفأل لو صحت زواجه
نُخري أبا الجيش هل يقضي اللقاء لنا
فيشتفي منك قلب أنت هاجره

(١) المغرب ٢٢/٢ ونفع الطيب ٩٦/٢.

(*) كان أبو الجيش موفق أميراً على «دانية»، والشاعر هنا يورّي بين «دانية» المدينة، و«دانية» بمعنى قريبة «المراجع»

قصاره قيصرٌ إن قام مفتخرًا للهِ أولهٌ مجداً وآخره^(١)

ما أذكى هذا العرف الذي فاح أريجُه من ذاك البلاط المجاهدي، وما أجود هذا الغمام الأدبي الذي ظل يكفُ حتى غطى على مقولة صاحب الذخيرة الذي زعم خلو الشعر من ذكره.

بلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان في ميورقة^(٢)

بسقوط دانية عام (٤٦٨هـ) بيد ابن هود، تكونت مملكة الجزر وعاصمتها ميورقة، حيث استقل بها واليها لعلّي بن مجاهد وهو عبدالله المرتضي الذي استمر في حكمها إمارة مستقلة حتى عام (٤٨٦هـ) فخلفه عليها بعد وفاته مولاه ناصر الدين مبشر ابن سليمان، وفي عهده الذي استمر اثنين وعشرين عامًا وانتهى بالسقوط الأول لميورقة على يد خايمي الأول، استطاع ناصر الدولة في هذه الفترة التي تقارب ربع قرن أن ينهض بميورقة، ويجعلها منتجعا للكثير من الشعراء والأدباء، الذين وفدوا عليه إثر ما تعرضت له بلاطات الأندلس من تصدع بعد استيلاء المرابطين عليها، ونخص بالذكر بلاط المعتمد بن عباد الذي كان يتألق بعدد ضخم من كبار شعراء الأندلس، وكان لهذا العقد أن ينفرط، ولهذا الجمع أن ينفذ بعد أن نزعت واسطته بتقييد المعتمد بن عباد وإرساله سجيناً إلى أغمات بالمغرب.

وتطلعت عيون الشعراء إلى معتمد آخر، وبيئة مستقلة كبيئة إشبيلية، فلم يكن هناك غير ناصر الدولة مقرب الشعراء ومثيبيهم، ولم يكن هناك غير ميورقة، فاتجهوا صوبها، وفي رحاب مبشر خطوا عصا الترحال.

واستقبل هذا البلاط أفذاذ الشعراء الذين ملأوا طباق الأندلس إنشاداً، فنفحوا ميورقة طيباً عبّقاً ظل أريجُه على الأيام، فوفود الشعر حلت بحلولة كما يقول الشاعر:

(١) ديوان ابن زيدون ص ٢٨٧.

(٢) انظر ترجمته مبشر بن سليمان في المغرب ٤٦٧/٢ والقلائد ٦٧.

ولما حلت الناصرية أقبلت
إليك وفود الشعر وفداً على وفد^(١)

فابن اللبانة ذلك الصداح الوفي، رأى أن الدموع على أطلال المعتمد لن توفر له الحياة التي يريد، صحيح أنه لم يقصر في الوفاء للملكه، ولكن لا بد من أن يعود للبحث عن مجاري الرزق التي وقفت ساعة خلع المعتمد، وما هو ذا يوجه بصره في حيرة نحو الشرق والغرب، ويجول به في الشمال والجنوب إلى أين يتجه؟ وإذا به يصوبه نحو ناصر الدولة فيقول:

وقلت المكان الرحب أين؟ فقليل لي
ذرى ناصر العليا أجمعه رَحْب^(٢)

لماذا وقع اختياره عليه؟ لأنه كما يقول:

وقبلتي ناصر شرع العُلا
فوجهه وجّه الهدى في البطاح^(٣)

ويغد على مبشر في ميورقة سنة (٤٨٩هـ) ويلزمه طيلة أيام حياته الباقية، وقد كانت علاقته مع هذا الأمير في بدايتها صافية رقراقة إلا أن موردها بدأ يتعكر، حتى عزم على الفرار، وعاتب ناصر الدولة، واستأذنه في ترك بلاده، إلا أن الموت عاجله، فتوفاه الله سنة (٥٠٧هـ) أي قبل السقوط الأول لميورقة بعام واحد.

وهذا ابن صقلية البار الذي كتب عليه أن لا يلقي عصا التسيار، فبعد أن غادر بلاده مكرهاً إثر استيلاء النورمان عليها، حط رحله في إشبيلية، واتصل بالمعتمد ومدحه، وكاد المعتمد بكرمه ينسيه أرضه وجنته التي أخرج منها، وما إن بدأت لذة المقام الجديد تنسرب في ثناياه حتى خلع المعتمد فأحس ابن حمديس بدوار البحر من جديد، وصاح:

(١) شعر ابن اللبانة ص ٣٨.

(٢) شعر ابن اللبانة ص ١٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠.

ولما رحلتم بالنُّدى في أكــفكم
وقلقل رَضُوى منكم وثبـيرُ
رفعتُ لساني بالقيامـة قد دنتُ
فهذي الجبال الراسياتُ تسيرُ^(١)

ولما لم يجد ما أحسه وتصوره، وأن الحياة مستمرة، والقيامـة لم تقم بعد، وساء ما وجده في أفريقيا من تجهم، ورأى رصيفه وزميله أبا بكر بن اللبانة قد وجه وجهه شطر ميورقة، عزم على الانتقال إليها، عله يعوض هذه الأيام النحسات التي قضاها بعد وفاة المعتمد، ويمم صوب ميورقة، وركب البحر الذي كان يُخيفه دائماً، ووصل، ويظهر أن اللقاء بين شاعرنا ومبشر بن سليمان لم يكن سعيداً، ولا موفقاً لأسباب لا نعلمها تمام العلم، فقد ترجع إلى الظروف السياسية التي أحاطت بمبشر، إذ قلبت له الحياة ظهر المجن، وأندرت بأحد شيئين:

إما أن تقع [ميورقة] في يد برشلونة، وإما أن ينتهي أمرها إلى المرابطين^(٢) وزيارة ابن حمديس لميورقة لم يتضح زمانها، فليس هناك إشارة واضحة سواء في الديوان أو في الكتب التي ترجمت له تلقي الضوء عليها، ولو حدث ذلك لاستطعنا أن نتبين أسباب هذا الجفاء. وإذا كان ما ذكره الدكتور إحسان عباس صحيحاً حول مدح ابن حمديس لمبشر صاحب ميورقة في زمن يحيى بن تميم^(٣) أي من عام (٥٠١ - ٥٠٩ هـ) فإننا نستطيع تفسير هذه الزيارة السريعة التي لم تنتج لنا سوى قصيدة واحدة^(٤)، فالوضع في ميورقة لم يكن يبشر باستقرار في هذه الفترة، وابن حمديس الذي خبر جزر البحر لم يكن ليخفى عليه مثل هذا الأمر، وبخاصة أن أساطيل الروم بدأت تشدد من قبضتها عليها بعد سقوط صقلية وسردانية، وكأنه أحس بعدم الأمان، فدعاه الذي دعاه إلى ترك بلاده ليترك هذه البلاد أيضاً، ويبدو لي أن مبشراً لم يكن في تلك الفترة العصيبة التي يواجه بها أساطيل الإفرنج لوحده، حيث انشغل المرابطون بحروب الأندلس في حالة من

(١) ديوانه ص ٢٦٩ والذخيرة ق ١ م ١ ص ٧٦ والمختار من شعر شعراء الأندلس ٣٠.

(٢) ابن حمديس حياته من شعره، ص ٢٠٣.

(٣) ديوان ابن حمديس ص ١٤.

(٤) انظر ديوانه ص ٢١٣.

يصطفي الشعراء وينادهم، لهذين السببين جاءت هذه القصيدة اليتيمة بمدحه فيها،
ويصف خيلاً أهديت له، وقد أخذ الوصف معظم أبيات القصيدة، ولم يستغرق مدح
مبشر سوى خمسة أبيات، وفي هذه القصيدة يقول في وصف الخيل:

جاءتك أولادُ الوجيهِه ولاحق
فأرتك في الخلقِ ابتداعَ الخالق
عُرَّ محجَّلةٌ تكامل خلقها
بمجانسٍ من حسنِها ومطابق
وكأنما حيَّتْ غلاك وجوهها
فأسالَ فيها الصبحُ بيضَ طرائق^(١)

إلى أن يقول في مدح مبشر:

أصبحتَ في الساداتِ ناصر دولة
تصفُ العلى () عدلِ مناطق^(*)
بطلاً يطولُ بذكره في سلمه
كصِياله بحسامه في المأزق
مترحلاً نحو المعالي ساكناً
بالجيش في ظلِّ اللواء الخافق
شدَّتْ عزائمه مهالكه كما
شدَّتْ فرازين بعقد بيادق^(٢)

ويبدو أنه لم يجد المنى والأمن في ظلال مبشر، فعاد إلى أفريقيا وإلى يحيى بن
تميم وفي مغناه أنشد:

حللنا بمغناكَ الذي يُنبت الغنى
ويجري حياة اليُسْرِ في مَيِّتِ العُسْرِ
فمدحك في الإحسان أنطق مقولي
وعندك أفني ما تَبَقَّى من العُمَرِ

(١) المصدر السابق ٣٣٠. (٢) ديوانه ص ٣٣١.
(*) الشطر الثاني لا يستقيم وزنه في بحر الكامل كما ورد في الأصل، حيث ترك مكان إحدى الكلمات فارغاً.

وجدنا المنى والأمن بعد شدائدٍ
تقلب أفلادَ القلوب من الذعر

ولعله يشير إلى عودته من ميورقة في هذه القصيدة، حيث يقول:
فمن تاركٍ وكرًا إليك مهاجرٍ
ومن مستقرٍّ من جنابك في وكر^(١)

ومن الوافدين على بلاط مبشر أبو العرب الصقلي^(٢) رفيق ابن حمديس وابن بلده
وهو مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي، ولد بصقلية عام ٤٢٣هـ وغادرها إلى
الأندلس عام ٤٦٤هـ قاصداً المعتمد وهو يقول:

إلام اتباعني للأمان الكواذب
وهذا طريق المجد بادي المذاهب
أهمُّ ولي عزمان عزمٌ مشرقٌ
وأخر يغري همتي بالمغارب
وما ضاق عني في البسيطة جانبٌ
وإن جلَّ إلا اعتضت منه بجانب^(٣)
إذا كنتَ ذا همٍّ فكن ذا عزيمةٍ
فما غائب نال النجاح بغائب

ولم نجد له شعراً في ناصر الدولة، ولعله فقد مع ديوانه. كذلك وفد أبو جعفر بن
البنّي، فاحتمله مبشر على الرغم من خبث لسانه وفساد طباعه، ويبدو أنه كان يحاول
إصلاحه، ولما لم يجد ذلك طرده ونفاه من ميورقة.

ويبدو أنه لما غادر ميورقة، ردت الريح سفينته، فتجهمه أصحابه، وصدوا عنه، لما
عرفوه من غضب الأمير عليه، فقال:

أحببتنا الألى عتبوا علينا
فأقصرنا وقد أزف الوداعُ

(١) المصدر نفسه ص ٢١٨.

(٢) انظر ترجمته في الذخيرة ٣٠١/١/٤ والخريدة ٢١٩/٢ والأدب العربي في صقلية.

(٣) الخريدة ٢٢٢ - ٢٢٣.

لقد كنتم لنا جـذلاً وأنساً
 فهل في العيش بعدكم انتفاع
 أقول وقد صدرنا بعد يوم
 أشوق بالسفينة أم نزاع
 إذا طارت بنا حمامت عليكم
 كأن قلوبنا فيها شرعاً^(١)

وممن ضمه بلاط مبشر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان ومطمح الأنفس،
 ويذكر أنه نهض إلى ميورقة^(٢) من بلنسية، وإذا كان الفتح على ما يقول قد دخل بلنسية
 سنة (٥٠٣هـ)^(٣) فلعله قد غادر إلى ميورقة في هذا العام وفيها التقى بابن اللبانة
 ودرس عليه، حيث عده ابن الخطيب وابن عبد الملك من شيوخه^(٤).

وبميورقة التقى بأبي جعفر بن البني على ما يذكره فيقول:

«وكننت بميورقة فدخلها - أي أبو جعفر البني - متسماً بالعبادة وهو أسرى
 بالفجور من خيال أبي عبادة^(٥)».

ويبدو أنه بقي في ميورقة إلى أن نهض إلى بلنسية سنة (٥٠٧هـ) على ما يذكره
 في القلائد^(٦).

وقد وجدنا غير الأندلسيين يفدون على مبشر، فابن بسام يورد لنا قصيدة لأبي
 المظفر البغدادي^(٧) أرسلها للأمير مبشر بن سليمان، يذكر فيها هذا الشاعر زيارته
 القصيرة إلى ميورقة ويمدح مبشراً، وفيها يقول:

(١) الخريدة ٢/٥٣٦.

(٢) القلائد ٧٦.

(٣) المصدر نفسه ٧٦.

(٤) الذيل والتكملة ق ٢ ج ٥ ص ٢٩٥ والنفح ٧/٣٠.

(٥) المطمح ٣٧١.

(٦) ص ٦٥.

(٧) لم يعرف محقق الذخيرة بأبي المظفر البغدادي هذا، ولم أجد له ترجمة في تاريخ بغداد أو كتب التراجم الأخرى.

هو طيفُها وطروقُها تعليلُ
فممتى يفي لك والوفاء قليلُ
وكان زورته تخيلُ بارقُ
فتنقت به النكباء وهي بليلُ
فالقُد من مرح الصِّبا متأودُ
واللحظ من ترفِ النعيم عليلُ
والخصرُ مما خفَّ جال وشاحُه
قلقًا وما وارى الإزار ثقيلُ
أقصر من الإدلال فهو على النوى
ما دام يجلبُّه الدلال دليلُ
ودع الوشاة فكل ما يحكونه
عند اللقاء يُزيله التأويلُ
ووراء وصلكم القصير زمانه
هجر كما شاء الغيور طويلُ
لو دام قبلكم اجتماع لم يذُق
ألم التفريق مالك وعقيلُ

ومنها:

فرحلتُ والنفسُ الأبيَّة حُرَّة
والعزم ماضٍ والحسام صقيلُ
بقصائدٍ قست الليالي واكتستُ
فيها فرقتُ بكرة وأصيلُ
خضبتُ بدجلة والعراق ذيولها
فاعترز من طربٍ إليها النيلُ
فأقمتُ حيثُ العزُّ أبلغُ والندى
جمٌ وظلُّ المكرمات ظليلُ

سَمَحْ وَإِنْ كَثُرَ الْعَفَاةُ بِمَالِهِ
 وَبِمَاءِ أَوْجِهِ سَائِلِيهِ بِخَيْلٍ
 وَمُسَدَّدَ الْعِزْمَاتِ لَا يَغْتَالُهَا
 خَطْبٌ كَمَا اعْتَكَرَ الظَّلَامَ جَلِيلُ
 وَيُصِيبُ أَعْقَابَ الْأُمُورِ إِذَا ارْتَأَى
 عَفْوًا وَآرَاءَ الرِّجَالِ تَفِيلُ
 وَإِذَا الْوَعْيُ حَذَرَ الْكِمَاةَ لثَامُهُ
 وَمَشَى بِسِرِّ الْمَشْرِفِيِّ صَلِيلُ
 وَرِمَاخُهُ تُوجِّنُ مِنْ هَامِ الْعِدَا
 وَلَخَيْلُهُ بِدِمَائِهِمْ تَنْعِيلُ
 مِنْ مَعْشَرٍ لَهُمُ السَّمَاخَةُ شِيْمَةُ
 وَالْمَجْدُ تَرْبُ وَالنَّجْوَى قَبِيلُ
 نَفَضْتُ إِلَى أَكْنَافِهِمْ لِمِ الرُّبَى
 أَيْدِي الرِّكَائِبِ سَيْرُهُنَّ ذَمِيلُ
 شَرَقَتْ بِنَعْمَةٍ شَاعِرٍ أَوْ زَائِرُ
 وَدَعَا هَدِيلُ فَاسْتَجَابَ صَهِيلُ
 لَكُمْ الْمَعْلَى وَالرَّقِيبُ مِنَ الْعُلَا
 وَبِكُمْ أَفَاضَ قِدَاحَهُنَّ مُجِيلُ
 وَسَعَيْتَ لِلْعُلِيَاءِ حَتَّى أَيقَنْتُ
 أَنَّ الْأَوَائِلَ سَعَيُْهُمْ تَضَالِيلُ
 وَهَذَا لِعَصْرِكَ وَهُوَ يَقْطُرُ نَضْرَةً
 وَيَمِيسُ تَحْتَ ظِلَالِهِ التَّأْمِيلُ
 فَكَأَنَّهُ وَرْدُ الْخُدُودِ إِذَا اكْتَسَتْ
 خَجَالًا وَكَأَدَ يَزِينُهَا التَّقْبِيلُ
 أَيْنَ الْمَدَى وَلَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْعُلَا
 رُتَبًا تَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ^(١)

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٨٩ - ٦٩٠.

ومن شدة كلف ناصر الدولة بهذه القصيدة المشرقية البغدادية فقد كلف أبا بكر الداني معارضتها، فقال قصيدته التي أولها:

في الطيف لو سمح الكرى تعليلٌ

يكفي المحب من الوفاء قليل^(١)

«بلاط سعيد بن حكم الأموي^(٢) في منورقة»

كهف الغرباء وملان كل طريد من الأدباء، لا تكاد تجد إجماعاً في الثناء على رجل من ملوك الطوائف كما تجد في الثناء على أبي عثمان هذا، فشخصيته الفذة التي استطاعت أن تصمد في بحر متلاطم من الأعداء لهي شخصية جديرة بالتقدير والإعجاب.

ولندع ابن الخطيب يعرفنا عليه فيقول: «كان هذا الرجل من أصل طبيرة غرب الأندلس، وتلون به الدهر، وجال الأندلس وأفريقية برهة، ثم دخل جزيرة منورقة مشرقاً بها، ثم نال بها الرياسة لما افتقرت الكلمة، واختل أمر الموحدين، وحسن بها تدبيره، وعلا قدره، وأعظمته الملوك، وكان بعيد الهمة، اجتلاباً لأهل العلم واصطناعاً لهم وافتكاكاً لمن تحصل منهم بيد العدو، ولديه حظ جزيل من رواية الحديث وقرض الشعر وحسن الخط، إلا أنه كان شديد القسوة والعقاب، مستهيناً بالدماء... كان من سيرته أن يقتل الناس عقاباً على شرب الخمر، وكان قد اجتلب المحدث ابن مفوز للرواية عنه، وسماع كتاب البخاري عليه... فطوى ابن مفوز الكتاب وحلف أن لا يسمع عليه منه حديث، وقال: «حفظك الله تطلب رواية السنة وتصحيحها وتتعدى حدود الله هكذا، والله لا سمعت مني حرفاً أبداً».

(١) المصدر نفسه ص ٦٩٠ وشعره ص ٨٣.

(٢) انظر ترجمته في المغرب ٤٦٩/٢ والذيل والتكملة ٢٨/٤ - ٢٣ واختصار القدر ٢٨ - ٤١ وتحفة القادم ٨٥ وأعمال الأعلام ٢٧٦ والروض والمعطار ٥٤٩ وعنوان الدراية ١٨١ وبغية الوعاة ٢٥٥ ونفح الطيب ٤٧٢/٤ وعصر المرابطين والموحدين ٢ ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

فقال يا فقيه: هذه الجزيرة كثيرة العنب، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون، فيضيعون الاحتراس، فيظهر علينا العدو فقال له: هذا شيء لا يخلص عند الله، لم تترك الشريعة شيئاً من موازين صلاح الدنيا والآخرة إلا أعطته حقه، وانصرف عنه، ودامت ولايته بمنورقة مقصوداً من الأدباء والفضلاء^(١).

من هذا النص تظهر شخصية أبي عثمان سعيد بن الحكم، فهو عالم محدث شاعر، وسياسي محنك استطاع على الرغم من سقوط الجزيرتين (ميورقة ويابسة) أن يهادن الأعداء ويتصالح معهم، فتفاهم مع النصارى على أداء جزية سنوية على أن لا يدخل أحد من النصارى جزيرته، ثم التفت إلى جزيرته فضبط شؤونها، وجند الأجناد، وسار في الناس بالعدل، فعم الرخاء والأمن مدة حكمه، وهابه النصارى، واستقام له الأمر مدة خمسين عاماً.

أما ما يظهر من قسوته^(٢) فهو من باب الحرص الزائد على هذه الجزيرة التي يخشى سقوطها في كل آن إذا غفل عنها المسلمون.

وهو بعد ذلك حريص على أن يجمع في بلاطه العلماء، ويجتذب إليه الشعراء والأدباء، وكان يسعى إلى افتكاك الأسرى منهم، وهو إلى جانب هذا الخلق الكريم، يمت إلى العلماء بوشيجة فهو ناثر ناظم، مشارك في مختلف العلوم، ولهذا طار اسمه في الآفاق، وامتدت أياديه المشهورة في كل قاص ودان على ما يذكره ابن سعيد حيث يقول: «فكم لقيت بأقطار المغرب والمشرق من أديب أو شاعر أو حسيب، خلع عنه ربة الإسار، ونقله إلى قرارة الإسلام عن محلة الكفار، وكم سمعت أن أديباً أو غريباً أو سليباً خاطبه يشكو انكسار حاله فجبره، وسرى إليه مستميج بر خائضاً البحر فأنشره^(٣)»، ويدعو له بعد أن يثني عليه فيقول: «وهو مشكور السيرة أئدى من الغمام، يحدث عنه من جاز على جزيرته بالعجائب، أدام الله مدته ولا قطع نعمته^(٤)».

(١) أعمال الأعلام ٢٧٦.

(٢) يقول ابن سعيد عنه: «ثم ولي إشراف جزيرة منورقة فملك قلوب أهلها بحسن الخلق والإحسان» اختصار القدر ٢٨.

(٣) اختصار القدر ٢٨.

(٤) المغرب ٤٦٩/٢.

ولهذا ظل يقصده الناس والعلماء والطلاب من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ويتردد عليه التجار، فيشمل الجميع ببره ورفقه، كان شغوفاً بجمع الكتب، حتى اجتمع له ما لا نظير له كثرةً وجودةً وندرةً^(١).

واجتمع حوله عدد من الفقهاء والمحدثين والقراء والأدباء والشعراء، وكان بلاطه بلاطاً أدبياً حقاً: «وقد ألفت باسمه التأليف المشهورة بالمغرب ككتاب روح السحر وروح الشعر، وغيره^(٢)».

وكان شعار هذا الأمير أن لا يمنع أحداً من معرفته، فحقق ذلك فعلاً حيث لم يمر به أحد إلا مكث عنده لما يلقاه من بره وحده وعطفه، ذكر المقرئ قال: «قال أبو الحسن علي بن سعيد: أخبرني أحد من اجتمع به أنه لقي منه برّاً حببت إليه الإقامة في تلك الجزيرة المنقطعة، وذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف ضيقة وقد أثرت في عنقه، فأمر له بإحسان وغنجان، وكتب معه:

حمالة السيف تُوهي جيد حاملها
لا سيما يوم إسراع وإنجاز
وخير ما استعمل الإنسان يومئذٍ
لحسم علّتها إلباس غُنْبان^(٣)

أما تحقيق ذلك قولاً ففي شعره يقول:
لا تمنع المعروفاً يَوْ
مًا مُعْرَضًا ومُعْرَضًا
فكلاهما من حقه
ففيه له أن يُفرضاً
هذا تنزه فاسستح
ق على نزاهته الرضا

(١) عصر المرابطين والموحدين ق ٢ ص ٤٠٩.

(٢) نفح الطيب ٤/٤٧٢.

(٣) الخبر والشعر في نفح الطيب ٤/٤٧٢ والغنجان: صنف من ملابس أهل المغرب غليظ يستر العنق.

هذا الذي مــــا زلتُ أفــــ
علُ أو أقولُ محــــرُضاً^(١)

وقد كانت همة الرئيس أبي عثمان اصطفاء الأخيار والنخبة الممتازة كما يقول:

هــــمــــتــــي في هذه الدنــــ
يا لبــــيب أصطفــــيــــه
وفــــســــادُ لستُ أبــــقــــيــــ
هــــ وخــــير أقتــــفــــيــــه^(٢)

وتجمع حوله الأخيار من الأدباء والشعراء والفقهاء، وفي هذا المنتدى الأخوي نسمع الفقيه الكاتب أبا عبدالله محمد بن أحمد بن الجلاب الفهري وهو ينشد بين يديه قصيدة، لأحد الشعراء يقول منها:

وحَقَّقْها إنْها جُفُونُ
تُسْتَلُّ من لحظْها المنونُ
لا صبر عنها ولا عليها
الموتُ من بعدْها يهــــونُ
لأركبْنُ الهــــوى إلــــيــــها
يكونُ في ذاك مــــا يكونُ

فاستحسنها^(٣). ومما يدل على عظم تأثره بالشعر ما جاء من أن بعض كتاب الدولة الحكيمة^(٤)، وقد ولاه خطة المواريث فكتب إليه راغباً في الإعفاء:

وما نلتُ من شغل المواريث رُقعةً
سوى شرح نعشٍ كلما مات ميتُ
وأكتبُ للأموات صكا كأنهم
يُخافُ عليهم في الجباب التفلُّتُ

(١) اختصار القدر ٢٨ - ٢٩.

(٢) المغرب ٤٦٩/٢.

(٣) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٤) دولة الرئيس سعيد بن الحكم.

كأني لعزرائيل صرتُ مناقضًا
بما هو يمحـــــو كلَّ يومٍ وأُثْبِتُ

فاستظرفها الرئيس أبو عثمان بن حكم وأعفاه^(١)، ومن الشعراء الذين وفدوا على
منورقة في عهده:

- أبو بكر محمد بن العوام الإشبيلي، الذي توجه إلى منورقة بعد سقوط إشبيلية
في يد الإفرنج، وأقام بها، ومدح صاحبها أبا عثمان، فقال فيه:

أيا مــــــــــــــــسكة دارين
ورئــــــــــــــــحــــــــــــــــان الرياحين
ومــــــــــــــــأوى كلِّ مــــــــــــــــضطري
لدنــــــــــــــــياه وللدَّين^(٢)

وممن ورد عليه ومدحه أبو عبدالله محمد بن خطاب الهنتاني الجياني كاتب ابن
الأحمر، ومقلد الكتابة والقضاء بعد ذلك في تونس، يقول فيه:

تُفنى الكتائبُ بيض من قواضبه
مفلولة وتشي أقلامه الكُتبا
فقد أعدَّ حُسامًا للجلاد به
وللجدال لسانًا مثله ذربا
في كَفِّه قلمٌ ماضٍ يُريك به
أغنى من القُضبِ الهندية القَضبا
يمضي بما شاء من نفعٍ ومن ضررٍ
في كلِّ خطبٍ له حدُّ الحُسام نبا
يحكي شباهَ خضيبًا بالمداد شبًّا
مُهند بالدم المسفوك قد خُضبا

(١) الإحاطة ٢/٢٤٩.

(٢) اختصار القدح ١٨٠.

كأن أثاره في الطرس رائقة

أثار غيث يغادي الروض منسكبا^(١)

وهذا أبو المطرف أحمد بن عبدالله بن عميرة المخزومي الذي ألف في ميورقة كتاباً على طريقة العماد في الفتح القدسي، يثني علي سعيد بن الحكم ويمدحه، ويذكر صلة القربى التي تجمع به، فيقول:

فدتك أبا عثمان أنفسنا التي

أعنة ذاك الفضل قادت عرابها

وعندي يا ابن العم فيها ألية

عرفت يقيناً برها وصوابها

بأن المعالي لو جُمعن مسائلاً

على الحصر فيها كنت أنت جوابها

وخاطبه أيضاً:

وجدنا سعيداً سعده قد قضى به

على الرغم ربُّ النجم قبل المنجم

فقل حاتم إن لذت منه بمطعم

وإن تذكر الأنساب تلق ابن مطعم

تأخره والله يبقيه حجة

على من يقول الفضل للمتقدم

وأجمل ما مدحه، وذكر ما تمتع به من صفات قوله يخاطبه:

ومجد سعيد لا يزال حديثه

يطيب على الأسماع حين يكر

لئن كثر العافون حول فنائه

فقد وجدوا آلاءه وهي أكثر

(٢) اختصار القدح ٢٢ - ٢٣ .

حَمَى ثُمَّ أَوَى ثُمَّ أُعْطِيَ ثَلَاثَةً
فَأَزْمَنَةُ الدُّنْيَا الثَّلَاثَةُ تَشْكُرُ^(١)

ومن أروع ما قيل في صاحب هذا البلاط ما مدحه به الفقيه الكاتب أبو القاسم
أحمد بن يامن، فظل قولاً ماثوراً على الزمان حيث أرسل تلك البطاقة المدحية فقال:

لَأُرْسَلَنَّ قَبْلَ بُولَةٍ
تُؤَثِّرُهَا عَنِّي الْأُمَمُ
وَتَغْتَدِي مَقْبُولَةٍ
مَّا بَيْنَ غُرْبٍ وَعَجْمٍ
أَقْسَمُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ
وَهُوَ أَعْظَمُ الْقَسَمِ
مَّا أَبَدَتْ الدُّنْيَا لَنَا
مِثْلَ سَعِيدِ بْنِ حَكَمٍ^(٢)

ومن روائع معاني هذا الشاعر هو تصويره البحر عيناً ومنورقة مقلّة وسعيد بن
الحكم نورها، فيقول:

أَيَا مَنْ بِهِ قَدْ أَيْنَعَتْ لِي وَأَسْمَحَتْ
عَلَى الدَّهْرِ نُورَ الْأَمَانِي وَنُورُهَا
بَدَا لِلْعِيَانِ الْبَحْرُ عَيْنًا بِصِيرَةٍ
«مُنْرُقَةٌ» فِيهَا مُقْلَةٌ أَنْتَ نُورُهَا^(٣)

ومن بديع المدح قول أبي عبدالله محمد بن الأبار في تلك العلاقة التي جمعت
منورقة بأبي عثمان:

أَلِفْتُ أَبَا عَثْمَانَهَا ذَا سِيرَةٍ
عُمَرِيَّةٍ تُولِيهِ مَا يُولِيهَا
فَتَأَلَفْتُهُ وَأَزَلَفْتُهُ مُجَاهِدًا
يَسْمُو لِكُلِّ رَمِيَةٍ يُصْمِيهَا

(١) المصدر نفسه ٤٩.

(٢) المصدر السابق ٥٦.

(٣) المصدر نفسه ٥٧.

ثم يعدد لنا صفات هذا النذب الكريم، فيقول:
نذب إلى الخيرات منتذب فلن
تصف الديانة بعض ما يُصفيها
ذاتُ الإله بها علاقة ذاته
تعلو مظاهره لمن يُعليها
فك الرقاب صنائعاً مُدّ قام لم
ينفك يأتيها كما يُؤتيها
ولقد كسا حتى الصحائف جدة
من جوده وأفادها تنبيها
صدرت وقد وردت على معن الهدى
فتكسبت في حالتها تها
لا زال ثغر سدة يزهى به
ويعرّ عرّة من حماء شبيها^(١)
لم ال مدح خصاله وخلاله
لكن عجزت روية وبديها

ويجمل لنا هذه الصفات ويضيف إليها في قصيدة مدحية أخرى فيقول:
سيّد أيّد رئيس بئيس
في أساريه صفات الصباح
قمر في أفق المعالي تجلّى
وتحلّى بالسؤدد الوضاح
سلم البحر في السماحة منه
لجواد سَمُوهُ بحر السّماح^(٢)

(١) معجم الصدفى ٣٣٦.

(٢) نفح الطيب ٤٦٧/٣.



الفصل الثالث

موضوعات الشعر في البليار

هل هناك خصوصية لموضوعات شعر البليار؟ أم أنها تجري مجرى أخواتها في الأندلس خاصة، وفي الشعر العربي عامة؟

لا شك أن موضوعات الشعر في البيئات العربية المتعددة قد تماثلت، ومع هذا التماثل يبقى لكل بيئة ما يميزها من غيرها من البيئات، ولعل لجزر البليار بعض هذه الخصوصية التي تجعلها متميزة من خلال ظروفها التاريخية والسياسية، ومن خلال موقعها وبيئتها الجغرافية الفريدة.

وإذا ما رحنا نبحث عن هذه الأغراض في ما حصلنا عليه من شعر هذه الجزر، فإننا نستطيع أن نصنفه في الموضوعات التالية: «المدح، والوصف، والغزل، والإخوانيات والمراسلات، والبليار في الشعر، وأغراض أخرى».

١ - المدح؛

المدح غرض تقليدي، وهو هنا يسير في اتجاهين:

الأول: مدح أمراء وحكام البليار من لدن مجاهد العامري وابنه علي ومرورا بناصر الدولة مبشر بن سليمان وانتهاء بآخر أمراء هذه الجزر سقوطاً وهو سعيد بن الحكم، وإذا كانت بداية المدح مع مجاهد وابنه، فإن ناصر الدولة وسعيد بن الحكم حظيا بنصيب وافر من قصائد المدح.

الثاني: مدح شعراء البليار ملوك الطوائف كالمعتضد بن المعتمد بن عباد، ويحيى بن حمود، ومأمون ذي النون وغيرهم كثير.

ومع أننا لا نستطيع إظهار صورة المدح أو أي موضوع من موضوعات شعر
البليار بما نريد لفقدان الكثير من شعر هذه الجزر وشعر الوافدين عليها، فسنحاول -
بحول الله - من خلال ما عثرنا عليه من شعر أن نرمم الصورة، وهي وإن لم تظهر
واضحة مجلوة، فإنك تستطيع أن تبينها وتقدر ملامحها وتتملى بهاءها.

ولعلي ألمح من خلال قصيدة المدح في حكام البليار ثلاثة أمور:

أولها: مدح مجاهد العامري له لون خاص من الجدية والرصانة، فشخصيته الفذة،
وقدراته العسكرية والعملية فرضت على الشعراء أسلوباً في المدح يوازن بين هذين
الجانبين اللذين ظهر فيهما مجاهد.

ثانيهما: مدح ناصر الدولة مبشر بن سليمان تحس فيه المبالغة والعاطفة الفاترة التي
تميل عن المدح وتخرج عنه إلى أغراض أخرى تتكئ عليها تبريراً لهذه العاطفة.

ثالثهما: مدح سعيد بن الحكم يتميز بقرب مأخذه وصدق عاطفته، ولطافة مدخله، فلا
نحس بالحاجز الذي يفصل المادح عن الممدوح، وكأن الشاعر لا يمدح حاكماً
بمقدار ما يثني على صديق رضي أو خل وفي.

وقد تلاحظ اشتراكاً في بعض عناصر المدح كالكرم والشجاعة والقوة، إلا أنك
تشعر بهذا الإحساس الذي يظهر لك هذه الفروق واضحة جلية فمجاهد العامري على
الرغم من كونه صقلبياً إلا أنه استطاع أن يروض صعب الأمور فانقاد الزمان له:

مجاهدٌ رُضت إِبَاء الشَّمُوسِ
فأصحب ما لم يكن يُصحبُ
فقل واحتكم لي فسمع الزمان
مُصَيخُ إليك بما ترغِب^(١)

وهمته تسمو فوق الهمم، وتضع رايته فوق هام الثريا:

(١) معجم الأدباء ٨١/١٧/٩.

كَأَنَّ الثَّرِيَّاءَ بِهَا رَايَةً
يَقُودُ الْمُوَفَّقُ أَبْطَالَهَا^(١)

أما الكرم فهو معينه الذي لا ينضب كما يقول ابن زيدون على لسان المعتضد:
أَفْدِي أَبَا الْجَيْشِ الْمُوَفَّقِ إِنَّهُ
لِلْمَكْرُمَاتِ مُيسَّرٌ وَمَوْفَّقٌ
وأخيراً فهو رب السيف والقلم معا، وفيه يقول أبو حفص بن برد الأصغر:
لَوْ لَا طَلَابِي غَرِبْتَ الْمَدْحَ فَيَكُ لِمَا
وَصَفْتَ قَبْلَ عِلَاقِ السِّيفِ وَالْقَلَمِ

وصفة الكرم المشتركة نجدها في مدح ناصر الدولة مبشر بن سليمان، فراحته
هي البحر المحيط:
بِرَاحَتِهِ بَحْرٌ مُحِيطٌ مُسَخَّرٌ
يُفَادُ الْغِنَى فِيهِ وَلَا يُذْعَرُ الرِّكْبُ^(٢)

ويعطي عطاءً لا يعطيه غيره من الملوك حتى لو استمطر العطاء بذكره لانتصب
عليهم، وأخصب الجديب:
لَوْ اسْتَمَطَرَ النَّاسُ الْغَمَامَ بِذِكْرِهِ
لَقَامَ عَلَى الصِّلَادِ الصِّفَا لَهُمُ الْخَصْبُ^(٣)

وهو خصيب نواحي الفضل مهما كثر المعتفون:
سَمَحٌ وَإِنْ كَثُرَ الْعَفَاةُ بِمَالِهِ
وَبِمَاءِ أَوْجِهِ سَائِلِيهِ بِخَيْلٍ^(٤)

ومغاليق الأرزاق مفاتيحها بيده، كما يقول ابن اللبانة:
مَغَالِقُ الْأَرْزَاقِ مِنْ كَفِّهِ
قَدْ أَدْنَى اللَّهُ لَهَا بَانْفِتَاحٍ^(٥)

(١) الذخيرة ٧٩٦/٢/٢.

(٢) شعر ابن اللبانة ص ١٨.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨.

(٤) الذخيرة ٦٨٩/٢/٣.

(٥) شعر ابن اللبانة ص ٣٠.

أما القوة والقدرة فيظهر ذلك من قصيدة أبي المظفر البغدادي، فناصر الدولة مصيب
الرأي ثابت الجأش، إذا ما شمرت الحرب عن ساقها خاضها بعزم لا يضاهاى، وخرج منها
وقد جعل تيجان رماحه على رؤوس الأعداء وغابت خيله حتى الحبول في دمائهم:

وإذا الوغى حذر الكماة لثامه
ومشَى بسرّ المشرفي صليل
ورماحه تُوجِّن من هام العدا
ولخيله بدمائهم تنعيل^(١)

ومع ذلك فالوغى تتهيئه وتخشاها:

وقف الوغى منه على ذي هيبة
يقف العزيز لديه وهو ذليل^(٢)
لماذا تخشاها الوغى وتخافه لأن بأسه بأس عليّ. والعزم عزم الإسكندر:
ملك أزرّة بُرده ضُمَّت على
بأس الوصي وعزيمة الإسكندر^(٣)

ومن خلال ما أوردناه في مدح ناصر الدولة لعلك تلاحظ معي الجنوح إلى المبالغة
التي استوفيت الحديث عنها وعن أسبابها في شعر ابن اللبانة، ولعل ذلك ما حدا
بصاحب نفح الطيب أن ينقد مدح ابن اللبانة لناصر الدولة حيث قال: «ومدح ملكها
مبشر بن سليمان بقصيدة مطلعها:

ملك يروعك في حلى ريعانه
راقت برونقه صفات زمانه

وأين هذا من أمداحه في المعتمد؟^(٤)

(١) الذخيرة ٦٩٠/٢/٣.

(٢) شعر ابن اللبانة ٨٥.

(٣) شعر ابن اللبانة ٥٥.

(٤) نفح الطيب ٢٦٠-٢٥٩/٤.

وهذا ابن حمديس يمدحه بقصيدة لا يذكره إلا في خمسة أبيات ثم يُعرض عنه ليصف خيلاً أهديت له، والتي مطلعها:

**جاءتك أولاد الوجيهِ ولاحق
فأرتك في الخلق ابتداع الخالق^(١)**

ولعل ملحوظتنا عن المدح في ناصر الدولة تفسر سبب عدم رضى الشعراء الوافدين عن الإقامة في كنفه كما أوضحنا ذلك في حديثنا عن ابن اللبانة وابن حمديس وأبي جعفر البني وغيرهم.

أما مدح أبي عثمان سعيد بن الحكم حاكم منورقة، فهو إلى قرب مأخذه، وسهولة نظمه يتميز بتلك الألفة التي تجمع المادح بالمدوح، وإذا كان قد ذكر بخصلة الكرم المشتركة والتي شهر بها، فقد خصص بخصلة الأدب التي توافر عليها، وجمعه بأدباء وشعراء عصره فأبانت عن علاقة صميمة جعلت هذا الحاكم يثني على الشعراء ويمدحهم كما يمدحونه، وكأننا نحس بسريان نسيم البلاط المعتمدي وما جرى بينه وبين شعراء عصره، باختلاف يسير، وهو أننا نحس هنا بكثير من التواضع والشعور بالمساواة، فإذا أثنى أبو الحسن علي بن موسى صاحب القدح المعلى على شعر أبي عثمان، وأبان عن محاسنه فقال:

**إنما شعـرُ الرئـيس ابن حـكـم
بدع من كل فـضلٍ وحـكـم
لو بنو حمدان أصغـوْا نحوهُ
حمدوا البحر الذي فيه انتظـم^(٢)**

فإننا نجد أبا عثمان يثني على شعر أبي الحسن فيقول:
**ما رأينا كـعلي بن موسى
يستبي بالشعر منا النفوسا**

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٣٠.

(٢) اختصار القدح المعلى ٢٨.

قد أرانا الشعرَ سحرًا حلالاً
سائغًا لو نحتسيه كؤوسا
إنَّ أبيات عليٍّ على الشعـ
ر علت حتى تجلت رؤوسا
مثله من طاب جنسًا ونفسًا
إنما يمنح علقًا نفيسا
لا عدمناه خليلاً جليلاً
نجدُ الفضل عليه حبيسا^(١)

وهذه المعاملة بالمثل لا تقفه عند شاعر بعينه، فهذا هو ذا يقول في أبي الربيع
التميمي الذي زاره موفدًا من قبل الدولة الحفصية بعد أن بالغ في إكرامه:

سلام لا يزال مدى الزمان
من الحال المحيلة في أمان
أخصُّ به حبيبًا حلَّ منِّي
محلَّ الأمن من نفس الجبان
أصونُ وداده ما دمت حيًّا
وليس سوى فؤادي من صوان
وأذكرُ عهده فأنوبُ شوقًا
إليه حنان عُذري الحنان
سألت من الزمان لقاء فاس
تجيب لنا على بخل الزمان
لقاءً أبي الربيع أقرَّ عيني
وأدنى لي القصي من الأمان^(٢)

(١) المصدر نفسه ٢٨.

(٢) اختصار القدح ٣٤.

وهذا يدل على ما ذكرناه من تواضعه، ومن مزية خاصة به، جعلته كما قال ابن سعيد: «كهف الغرباء ومأوى كل طريد». فشهد الشعراء بعميم فضله، وأثروه بالمدائح كما أثرهم بالمنائح، كيف لا؟ وهو يرى نفسه أداة لهم، وهم له حياة:

أنا لكاتب الظريف أداة

ولقد كان قبل ذا لي حياة^(١)

من خلال هذه المعاملة الكريمة، وهذا الخلق الذي لو نافس النسيم في الرقة لغلبه، أقبل عليه الشعراء من كل حذب وصوب، وأقبل هو عليهم، فصفت هذه العلاقة صفاء فجر وضاء، وورقت رقة الماء السلسبيل، فأنتجت لنا جميل الرواء من المدح الصادق، فهذا أبو المطرف المخزومي يفديه بنفسه، ويذكر بوشائخ الرحم التي تجمعهما:

فدتك أبا عثمان أنفسنا التي

أعنة ذاك الفضل قادت عرابها

وعندي يا ابن العم فيهما أليّة

عرفت يقينا برّها وصوابها

بأن المعالي لو جُمعن مسائلاً

على الحصر فيها كنت أنت جوابها^(٢)

وانظر إلى هذه الأبيات لأبي القاسم بن يامن التي بلغت ذروة الروعة والجمال ليسرها وعلوقها بالقلب، فذهبت مثلاً على صدق مقولتنا:

لأرسلن قولاً تؤثرها عنّي الأمم

وتغتدي مقبولة ما بين عرب وعجم

أقسم بالله العظ م وهو أعظم القسم

ما أبدت الدنيا لنا مثل سعيد بن حكيم^(٣)

ثم لا يلبث الشاعر فيقدم فؤاده هدية عليه يردُّ بعض ما ينبغي:

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر السابق ٤٩.

(٣) المصدر نفسه ٥٦.

لك الفضل مولا في كل حال
ولم يزل الفضل وقفاً عليك
بعثت الحياة ببعث السلام
وقبل بعثت الحيا من يدك
وإن لم أطق ردّ ما ينبغي
فهذا فؤادي مُهدى إليك^(١)

وختام مدحه مسك، وفي ذلك يقول ابن العوام الإشبيلي:

أيا مسكة دارين وريحان الرياحين
ومأوى كل مضطر لدنياه وللدن^(٢)

٢ - الوصف:

إذا كان غرض الوصف قد غلب على الشعر الأندلسي لما حبا الله هذه البيئة من جمال أخذ وطبيعة ساحرة، فإن جزر البليار هي جزء من تلك البيئة، أو لعل لها خصوصية تميزها وتفردا لموقعها ومكانتها، ونكاد نلمح عدداً ضخماً من الموصوفات، لكنني أود التركيز على الغالب المشهور الذي نال عناية الشعراء واستأثر باهتمامهم.

وصف الطبيعة:

الطبيعة بمفرداتها: الليل والنهار، والبحار والأنهار والرياض والأزهار تشغلهم وتحظى بالنصيب الأوفى من أشعارهم.

وقد افتن شعراء البليار والوافدون عليها في وصف جمالها ورياضها وأزاهيرها، فظهرت في سحر رسومهم، وعذوبة أنغامهم، وأناقة ألفاظهم، وجمال صورهم وتشبيهاتهم، ولعل قراءة هذه الأشعار تستطيع أن تنقلك إلى ذلك الحفل الرائع الذي اختلطت فيه الظلال بالألوان، والأصوات بالأنغام والروائح بالأشكال، حتى ترى امتزاج الطبيعة بالشعر امتزاج الماء بالخضرة.

(١) المصدر نفسه ٥٨.

(٢) المصدر نفسه ١٨٠.

فإدريس اليابسي يتتبع أنواع الزهور المختلفة: من الياسمين إلى البنفسج
فالسوسن فالخيري النمام إلى آخر قائمة هذه الزهور الرائعة الألوان الأخاذة
التصميم، النفاذة الرائحة، من ذلك قوله في أرض أزهـر فيها البنفسج:

وأريضة حاك الغمامُ برودها
وسقى بريق الغانيات برودها
ضحك البنفسج فوقها فكأنما
نثرت به خضر الحمام عقودها^(١)

ومن جميل روائعه في البنفسج تشبيهه لونه بلون أطراف الثدي حيث يقول:

فُتِقَ الثُّرى من نُوره بكواكبٍ
دُعجِ النواظر والخدود عجائبٍ
فأدر عليّ الكأس بيَذختيَّةً
في دولة النجم الرفيع الثاقبِ
طبعُ الربيع على بشاشته به
طبعُ الشَّبيبة فوق ثدي الكاعب^(٢)

ومن أوصافه المستطرفة وتشبيهاته المستطرفة قوله في السوسن:

مُمهى الحُسن مشقوقُ الجيوبِ
لهُ وجهُ البـريء من الذُّنوبِ
تَفَرَّجَ عن مناكبـه قميصُ
تَفَرَّجَ لوعـةِ الدَّنِفِ الكئيبِ
وقد علَّتْ عمائمُهُ بورسٍ
فقام بلا خطابٍ كالخطيبِ
على أنبوبٍ كافورٍ يراعٍ
تضمَّنَ بطنُهُ ينبوعَ طيب^(٣)

(١) البديع في وصف الربيع ١١٢.

(٢) البديع في وصف الربيع ١١٢.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٠.

فهذه القطعة التي بناها على وصف القائم في وسط السوسنة تمزج بين العواطف
والحالات للطبيعة الصامتة والمتحركة، فما أجمل هذا الوصف فزهرة السوسن تطل
علينا كوجهٍ طلقٍ بريء، وقد انفرجت وريقاتها كتفرج لوعة المحب بروعة اللقاء.

وهذا عياش بن حوافر يصف الليل فيجعل السماء حديقة خضراء والمجرة جدولاً دفاقاً:

يا رَبُّ لَيْلٍ قَدْ تَعَطَّيْنَا بِهِ
كَأْسَ السَّهَادِ نَعْلُ مِنْهُ وَنَنْهَلُ
وَكَأْنَمَا أَفَقُ السَّمَاءِ خَمِيلَةٌ
وَالزَّهْرُ زَهْرٌ وَالْمَجْرَةُ جَدُولٌ^(١)

وهذا الليل قد شد أزره وألحم ثوبه عليه، ومن بعيد يرنو ذاك الفجر بخيوطه البيضاء:

والليل قَدْ سَدَّى وَأَلْحَمَ ثَوْبَهُ
وَالْفَجْرُ يُرْسِلُ فِيهِ خَيْطًا أَبْيَضًا^(٢)

أما اليابسي أبو علي فيجعل للفجر برقاً والليل مسدول الرواق:

وَالْفَجْرُ مَلُوءٌ النَّقَابِ مُبْرِقٌ
وَاللَّيْلُ مَسْدُولُ الرِّوَاقِ مَطْنَبٌ^(٣)

وهذا ابن اللبانة يؤكد هذا المعنى ولعله سابق لعياش بن حوافر حيث ينقل السماء
إلى الرياض، فيقول:

أَدِيرَاهَا عَلَى الرُّوضِ الْمُنْدَى
وَحَكْمُ الصُّبْحِ فِي الظُّلُمَاءِ مَاضٍ
وَكَأْسُ الرَّاحِ تَنْظَرُ عَنْ حَبَابٍ
تَنْوِبُ بِهِ عَنِ الْحَدَقِ الْمِرَاضِ
وَمَا غَرُبَتْ نَجُومُ الْأَفَقِ لَكِنْ
نُقِلْنَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الرِّيَاضِ^(٤)

(١) بغية الوعاة ٢٣٩/٢ وهامش تحفة القادم ٢٤٦.

(٢) شعر ابن اللبانة ٦٠.

(٣) النخيرة ٢ م ١ ص ٣٤٠.

(٤) ربحانة الألبا ٣٨٥/٢.

ويرى الرئيس أبو عثمان سعيد بن حكم جارية تحمل في كفها زهرة فيقول:

نُـوارة تحمـل نُـوارة
أبهـتني أيهمـا أبهـج
كأنها في كفها شمعة
خضراء لكن رأسها مُسرج^(١)

وهو يمزج بين الوصف والغزل ويقابل مقابلة حسنة بين ضمة الورد والمرأة
فالحسن والريح والتثني صفات جامعة فيقول:

هاك باكوـرة من الورد تحكي
خدّ ظبي يدمى بلحظ العيون
فتذكر بريحها ريحه إذ لسـ
ت تنسى انثناءً بالغـصون^(٢)

وابن اللبانة يصف النيروز من قصيدة يمدح بها ناصر الدولة فيقول:

يا كوكب النيروز في بهجة
أسنى من البدر المنير اللياح
جاءت عطايك تهادى به
تهادى العير غداة اقتراح
لو أن لي قوة عهد الصبا
لم أترك النيروز دون اصطباح
يوم رقـيق نائر ناظم
كافوره فوق الربى والبطح^(٣)

وإذا كانت الأزهار هي شغلهم الشاغل فقد انشغلوا بالثمار أيضاً، فهذا الرئيس
ابن حكم يصف السفرجل وصفاً جميلاً جمع فيه بين صفاته وصفات العذارى من لون
وقسوة، فيقول:

(١) اختصار القدح المعلى، ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه ٣٣.

(٣) شعر ابن اللبانة ص ٣١.

وجوارِ خمسٍ كُسينٍ اصفرارا
إذ سُلبن الذي لبسن شعارا
قاسياتٍ وكننٍ للين أهلاً
أيُّ عُذرٍ في قسوةٍ للعذارى
من بنات الرياض أمسين أحرا
رأ وأصبحن في الأكف أسارى
كننٌ بالبدر عاكفاتٍ فما إن
كان ما يلتحفن إلا اغبرارا
وجلّ ليلة البراء^(٢) كساهن
اصفراراً ألم تر الأبقار؟^(١)

وتنال الطيور عناية الشعراء بمناظرها الجميلة، وأصواتها الغريدة، وحركاتها
البديعة، فابن اللبانة يصف عصفوراً بلله قطر الندى، فيقول:
نكَّره عهد الصببا ساجعُ
مدَّ جناحاً والتوى في جناح
بلله قطر الندى فاغتدى
ينفض ريشاً سندسيٍّ الوشاح^(٣)

وقد أجاد إدريس اليابسي في وصف الحمامة، إذ لم يتوقف عند صوتها أو
شكلها، أو جزء من جسمها، وإنما جمع ذلك في قدرة فائقة وصنعة متقنة، فقال:
ورقاً مطوقاً السَّوالفِ سندساً
لم يحك صنعته حياكة حاك
تشدو على خضر الغصون بالسِّن
صُبغت ملامئها بلا مسواك

(١) اختصار القدح ٣٣.

(٢) ليلة البراء: أول ليلة في الشهر.

(٣) شعر ابن اللبانة ص ٢٩.

وكان أرجلها القواني ألبست
نعلاً من المرجان دون شرارك
وكانها كحلت بنار جوانحي
فترى لأعينها لهيب حشاك^(١)

وصف أدوات المعركة:

الجيش بكثرتة وضخامته وثقل أدواته تتقلقل منه الأرض، هذا القلق والازدحام
في الأرض، يتبعه تشابك وتزاحم في السماء كما يقول ابن العطار الياضي:
فالأرض تقلق من جيش قفلت به
والجو يعثر فيه من قنا وظبا^(٢)

وأول وأهم أدوات المعركة السيف، فهو الحد القاطع والنور الساطع:
إذا سل في الهيجاء وهي دجنة
تألق فيها للصباح عمود^(٣)

ومن أروع الأوصاف لهذه الأداة الرئيسة في الحرب، قول ابن العطار يصفه
بشدة التوقد كالنار الملتهبة، وسرعة التموج حيث يترقرق اللمعان في صفحته كالماء،
وكأنه جمع الأضداد والمتناقضات، فأنت تجد في صفحته الماء والنار، كما يقول:
واجل الظلام بوقاد الفرند كان
في صفحته جمعت الماء واللهبا

ومن جميل الوصف ورائع التصوير وعذب التشبيه شدو السيوف، فالسيف يغني،
ولغناؤه وقع:

تشدو بهام المشركين فيعتري
أذن الهدى لغنائها إصغاء^(٤)

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٥.

(٢) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣٧٩.

(٣) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٨.

(٤) المصدر السابق ٣٧٩.

ويلتذ الأبطال لسماع هذا النغم الشجي والصوت الندي:
نغم السيوف أذ ما هو سامع
ومنى النفوس أقل ما هو باذل^(١)

وما أجمل ذلك الصدى في مجاوبة السيوف لصهيل الخيل:
وشدا سهيل مطرب فأجابه
من نحو السنة الغمود صليل^(٢)

والخيل هي عدة الحرب وأدواتها المفضلة في المعارك البرية، وإذا كان الشاعر العربي في الأندلس يتكئ على تراث زاهر بأوصاف الخيل في جميع حالاتها، فإن هذه الأوصاف التقليدية لا بد وأن تنسرب في ثنايا وصفه، فهذه الخيل قصيرة الشعر تقيد الأوبد:
من كل أشوس سامي الطرف منجرد
قيد الأوبد سباق لما انتدبا^(٣)

وهي غر محجلة عراب أصيلة:
غر محجلة تكامل خلقها
بمجانس من حُسنها ومطابق
كرت ذخائر عربها في عتقها
وشأت بفضلة عدوها المتلاحق^(٤)

ويؤكد إدريس الياسي على عتقها وأصالتها:
القائد الجرد العتاق كأنها
لجج زواخر أو عوارض لمع^(٥)

(١) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٧.

(٢) شعر ابن اللبانة ٨٤.

(٣) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣٧٧.

(٤) ديوان ابن حمديس ٣٣٠.

(٥) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٥.

ولعل وصف الخيل في أغلب الشعر الأندلسي، ومنه الشعر في جزر البليار لم يتوقف أمام الخيل طويلاً، أو بتعبير أدق لم نجد الشاعر الأندلسي في الأعم الأغلب يميل إلى أفراد وصف الخيل في قصائد ومقطعات، وإنما كان هذا الوصف يأتي عرضاً في قصيدة المدح، فيذكر الخيل كأداة من أدوات الحرب لا بوصفها جزءاً من أجزاء الطبيعة الجميلة، أو أداة من أدوات الصيد واللهو، أو تلك العلاقة الصميمة بين الفرس وفارسها كما عهدنا في شعر المشرق.

والخيل في شعر البليار أداة من أدوات الحرب، ترد في ثنايا قصيدة المدح، فهي كالعقبان تنقض على فريستها:

خيول كعقبان الدجّون وكلّها
لكلّ صيودٍ في العجاج صيود^(١)

وهي البحور واللجج الزواخر:
هي البحور ولكن في كواثبها
عند الكريهة منجاة من الغرق^(٢)

وهي حباب وعباب، وقد اجتمع في قول إدريس اليابسي:
حبابٌ ولكن ليس يثنّيه ذائدٌ
عبابٌ ولكن ليس منه سدود^(٣)

جمال التجنيس بجمال الوصف حيث تلك الحركة المناسبة المتموجة للحباب، وذلك الموج المتراكب المتدفق العارم الذي لا يقف في وجهه شيء.

وإذا كنا التقينا بنغم السيوف وصهيل الخيل المطرب فابن حمديس يجعل غناء الخيول يتفوق على غناء معبد ومخارق:

وإذا تغنّى بالصهـيل مطرباً
أنسى أغاني معبدٍ ومخارق^(٤)

(١) الذخيرة ٣٥٩/١/٣.

(٢) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

(٣) المصدر نفسه ٣٥٩/١/٢.

(٤) ديوان ابن حمديس ٣٣١.

والسفن في البحر تقابل الخيل في البر، بل هي هنا أوجب وأهم، فالمعارك
البحرية في جزر متقطعة في البحر يأتيها الأعداء بأساطيلهم من كل حذب وصوب أكثر
شيوعاً لذلك فإن وصف السفن والأسطول أكثر ألفة من وصف الخيل، وهذا زورق
البحرية يبدو ويختفي كالحية التي تتموج فوق الرمال والكتب:
يبدو على الموج أحياناً وتضمرة
كالأيم يعتسف الأهضام والكتبا
أمطاك عزمك منه متن سباحة
خلت الحباب على لباتها لهبا^(١)

وإذا كانت العروض البحرية العسكرية سمة من سمات الدول البحرية، فجزر
البليلار بنات البحار، وإذا كانت الأساطيل تجوب البحر فتحاً أو تجارة أو قرصنة أو
اعتداءً فلا بد من الاهتمام بالأسطول، لأنه رأس الحربة في الدفاع، وقلعة البلد وسورها
الحصين.

وهذه العروض تقام دائماً احتفالاً بالنصر، أو تدريباً للأسطول، أو إظهاراً للقوة،
وفي ذلك يصف لنا ابن اللبانة عرضاً بحرياً رائعاً، هو يوم مهرجان حقاً، فهذه السفن
الحربية تتدفق على الخليج كتدفق مياهه، يمتطي ظهرها المحاربون باقتدار ومهارة كما
يمتطون ظهور الخيل، ويشقون عباب الماء في سرعة خاطفة بعد أن قدموا التحية للأمير
ناصر الدولة بهزة المجاديف، يقول:

بشرى بيوم المهرجان فائنة
يومٌ عليه من احتفائك رونق
طارت بنات الماء فيه وريشها
ريش الغراب وغير ذلك شونق^(٢)
وعلى الخليج كتيبة جرارة
مثل الخليج كلاهما يتدفق

(١) النخيرة ٣٧٨/٤.

(٢) الشونق: الصقر أو الشاهين.

وبنو الحروب على الجوّاريّ التي
تجري كما تجري الجيادُ السُّبْقُ
خاضت غدير الماء سباحةً به
فكأثما هي في سرابٍ أَيْتُقُ^(١)
ملاً الكماءَ ظهورها وبطونها
فأنت كما يأتي السحابُ المغدقُ
عجباً لها: ما خلّت قبل عيانها
أن يحمل الأسد الضَّواري زورقُ
هزت مجاذيفاً إليك كأنها
أهدابُ عينٍ للرقيب تُحدَقُ^(٢)

٣ - الغزل:

يلتقي هذا الغرض مع الغرضين السابقين، حيث تبدأ به قصيدة المدح، ويتداخل مع الوصف، والغزل في شعر البليار لا يختلف عن مجرى الغزل في الشعر الأندلسي، ففيه التقليدية وفيه الغزل العف والماجن، والغزل بالذكر، وسماته الخلط بين أدواته وأدوات الحرب والطبيعة. فالتقليدية نجدها في تلك المواقف الغزلية التي يقفها الشاعر بين يدي قصيدة المدح، وخير من يمثل ذلك قصائد إدريس اليابسي وابن اللبانة، وسوف نعرض بالحديث عن غزلي هذين الشاعرين، ونورد هنا بعض ما لم يرد هناك، فهذا ابن اللبانة يوظف الغزل لقصيدة المدح في تقليدية واضحة من حيث وصف القدود بالغصون، والمرأة بالطبي، يقول:

وفي سدره الوادي من الحيّ شادنُ
ربيبٌ ولكن في عريضة ضايغَمِ
يديرُ عليّ الراح من لحظ ناضرٍ
ويمنعنيها من ثنيّة مبسمِ

(١) أَيْتُقُ: مفردھا ناقة.

(٢) شعر ابن اللبانة ق ٣ م ١ ص ٣٤١ وشعره.

رمانى بعينيه وثنى بسهمه
فأثبت في قلبي ثلاثة أسهم^(١)

وهذا إدريس يقدم لقصيدة في مدح المأمون بن ذي النون، فيتحدث واصفًا
الخدود بشقائق النعمان، والأنامل كالنعم، يقول:
خدودٌ غلائلها من شقيقٍ
وأيدٍ أناملها من عنم^(٢)

ومع هذه التقليدية فإننا نحس تلك الأناقة وذلك التوافق مع موضوع القصيدة
المدحية.

ولعل شعر الغزل الذي وصل إلينا في غالبته يميل إلى الاعتدال حتى يصل إلى
درجة عالية من الوقار والعفة، فإدريس يقول:
فبات في حرم لا غدر يذعره
وبت ظمآن لم أصدُر ولم أُرِد^(٣)

والعماري الميورقي يتساءل عن ذلك اللقاء الذي تتوق إليه نفسه، وهو المقيم المقعد بانتظارها:
هل للقا من موعدٍ بأغيد المقلدِ
أما تراني في هوا ك في المقيم المقعد^(٤)

وابن عبد الولي الميورقي يتساءل:
هل أمانٌ من لحظك الفنَّانِ
وقوام يمسُّ كالخيزرانِ
مُهجتي منك في جحيم ولك
نُ جفوني قد مُتَّعت في جنان^(٥)

(١) شعره ٩٥.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤١.

(٣) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٣٦.

(٤) عقود الجمان ٧٣/٦.

(٥) المغرب ٤٦٨/٢.

وكان لاختلاطهم ببنات الروم ما يدفعهم إلى ذكرهن والتغزل بهن، فهذا إدريس اليايسي يقول:

إلى خدود بنات الروم قد برزت
من حُجْبِهَا وأدارت أعين العرب
من كل سافرة عن مشرب خجلاً
فيه طرازان من ماءٍ ومن لهب^(١)

ويدير عياش بن حوافر معركة بين القلوب والعيون، ولعلّ هذه المقطوعة الغزلية تمثل الخلط بين الغزل وأدوات الحرب أفضل تمثيل، حيث يقول:

بين القلوب وبين الأعين النُّجُلُ
حربٌ تُشَبُّ بغير البيض والأسلِ
أما المِلاحُ فَحَدَّثَ عن ملامحهم
في العاشقين وعن صفيين لا تسل
من كلٍّ أحور قد أردت لواحظهُ
على غرارته من فارسٍ بطل
عنّوا لنا برمّاحٍ من قُدودِهِمْ
وأنجدوها بأسيفٍ من المُقل
وابن الأمير أميرٌ في كتائبه
يغزو القلوب بأفراسٍ من الغزل^(٢)

ويخشاه ابن حكم لذلك السيف المجرد من لحظها:
وكيف أرجو القرب منها وقد
أضحى حساماً لحظها فاتكا^(٣)

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٣.

(٢) تحفة القادم ٢٤٦.

(٣) اختصار القدح ٣٩.

وإدريس اليايسي يعلن استسلامه لتلك الرماح المشرعة:

ولما أقمن رماح القـدود

فـدانت لهن رماح البـهم^(١)

وابن اللبانة يرى أن ظبي الهند هي التي تحميها:

ظبي الهند مما ذب عنها وإنما

تلطف لي فيها بخدعته الحب^(٢)

ويصل الأمر بابن البني إلى القتل، يقول:

سلت محاسنه لقتل محبّه

من سحر عينيه حُسام سميّه^(٣)

أما الطبيعة وارتباطها بالغزل فذلك أمر طبيعي في شعراء الأندلس والبلغار، فلا تكاد تجد شاعرًا يتغزل إلا وهو ينهل من الطبيعة ألوانها وأشكالها وطبيعتها وحركتها، فنقل الصفات والمعاني للمرأة كان أساس الغزل لديهم، فهذا ابن البني يرى أن نور محبوبته يعيد الليل نهارًا، وهذه مياه الشباب تجري في عروقها فتزهر خدودها:

لو شبّ في وضح النهار شعاعها

ما عاد جنح الليل بعد مضيّه

شرقت بماء الحسن حتى خلّصت

ذهبيّة في الخد من فضيّه

في صفحتيه من الجمال أزهـر

غذيت بوسمي الصبا ووليّه^(٤)

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤١.

(٢) شعر ابن اللبانة ص ١٧.

(٣) القلاندي ٨٦٩/٤.

(٤) المطمح ٣٧٠.

أما ابن اللبانة وإن كان:

يجني الوري نرجس الربى وأنا
يُجنى فـؤادي بنرجس الحدق

فهو يحول مجرى استخدام أدوات الطبيعة إليه هو المحب العاشق، يقول:

أين وميضُ البروق من لهفي
وأين عصفُ الرياح من قلقي
وأين من عبرتي مُغيمةً
تسيلُ وطفاءُها على الأفق^(١)

أما الغزل بالمذكر فلا يعدو كونه خطاباً للمذكر، وفي ظني أن الكثير من الشعراء يتظرفون ويداعبون بتحويل الخطاب من التأنيث إلى التذكير للتحبيب، من ذلك قول إدريس الياسي:

عُلقته شادناً صغيراً
وكننتُ لا أعشقُ الصغاراً
أعـادني سـُـقم ناظريه
فاستشعرتُ نفسهُ حذاراً

وكقول ابن اللبانة:

يا شـادناً حلّ بالسـواد
من لحظ عيني ومن فـؤادي
وكعبلةً للجـمال طافت
من حولها أنفسُ العباد
ما زدني في الوصال حظاً
إلا غدا الشـوق في ازدياد
أعـشى سنا ناظريك طرفي
فليس يلتذ بالرقـاد^(٢)

(١) مختارات من الشعر المغربي ١٩٦.

(٢) شعر ابن اللبانة ٣٤ - ٣٥.

وقد يُصرح، كقول ابن اللبانة في غلام بدا الشعر في خديه:
 بدا على خده عذارُ في مثله يُعذرُ الكئيبُ
 وليس ذاك العذار شَعْرًا لكنَّما سرُّه غريبُ
 لما أراق الدماء ظلمًا بدت على خده الذنوبُ^(١)

وهذا أبو جعفر ابن البني يصرح باسم محبوبه، فيقول:
 كيف لا يزدادُ قلبي من جوى الشوق خَبالًا
 وإذا قُلْتُ عليَّ بهرَ الناسَ جمالًا^(٢)

٤ - الإخوانيات والمراسلات:

إذا كان هذا الموضوع قد ظهر في المشرق على يد طبقات ممتازة من الكتاب والشعراء إظهارًا لعواطفهم، وتبيانًا لقدراتهم الشعرية، فإن الأندلسيين قد اهتموا به وتأنقوا فيه، وكانت مجالس أنسهم ولهوهم، وعلاقاتهم الحميمة ببعضهم البعض، وارتحالهم وتنقلاتهم من بلد إلى بلد، كل ذلك قد أدى إلى ظهور هذا الموضوع الشعري ظهورًا واضحًا.

وما بأيدينا من شعر الإخوانيات والمراسلات يدور حول الشكر أو الإهداء أو الدعوة لمجلس، أو العتاب. أو لطلب أمرٍ من الأمور إلى غير ذلك مما يكون بين الأحاب والأصدقاء، فهذا الوزير أبو عامر بن مسلمة يدعو إدريس اليابسي وابن الأبار إلى لقاء أخوي:

أيا شقيقي إزاء ويا قسيمي صفاء
 تفضلا وأجيبا إلى ندي نداء
 لتأنسا بحديث وقهوة وغناء

فيرد عليه إدريس مجيبًا الدعوة قائلاً:

وقد أجبنا إلى ما دعوت من آلاء^(٣)

(١) شعر ابن اللبانة ١٦.

(٢) المغرب ٣٥٨/٢.

(٣) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٠٦ - ١٠٧.

ويرسل ابن النبي رسالة عتاب لأصحابه الذين لم يسألوا عنه، بعد أن ردت له الريح في سفينته إلى ميورقة:

أحببتنا الألى عتبوا علينا
فأقصرنا وقد أزعج الوداع
لقد كنتم لنا جذلاً وأنساً
فهل في العيش بعدكم انتفاع
أقول وقد صدرنا بعد يوم
أشوق بالسفينة أم نزاع
إذا طارت بنا حمامت عليكم
كان قلوبنا فيها شرعاً^(١)

ولابن اللبانة رسائل استعطاف لناصر الدولة، من ذلك قوله من قصيدة طويلة:

هلا ثنأك علي قلب مشفق
فترى فراشاً في فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذي لا يرتجى
ورجعت كالنفس الذي لا يلحق^(٢)

ويرسل له مودعاً ومعاتباً:

سلام على المجد يندى بليلاً
كنشـر الربى بكرة وأصيلاً
سلام وكننت أقول الوداع
ولكن أدرج قلبي قليلاً^(٣)

(١) المطمح ٣٧٣.

(٢) شعر ابن اللبانة ٧٠.

(٣) شعر ابن اللبانة ٧٩.

وقال يخاطب إخوانه حينما عزم على الفرار من ميورقة بعد أن تجهمه ناصر الدولة، ولم يقض حاجته صديقه الوزير:

أقول تحية وهي الوداع
خداعاً لي وما يغني الخداع
أعلل بالمني قلباً شعاعاً
وهل يتعلل القلب الشعاع
وأترك جيرة جاروا وأشدو:
«أضاعوني وأي فتى أضاعوا»^(١)
إذا لم يُرْعَ لي أدبٌ وبأسٌ
فلا طال الحُسام ولا اليراع
لقد باعثنني الأيام بخُسا
وعهدي بالذخائر لا تباع
أجفئتني فلم ينبت ربيعٌ
وحطتني فلم يثبت يفاع
ومكنت العدى مني فعاثت
بلحمي ضعفاً ما عاث السباع»^(٢)

وأظهر ما ظهر فيه هذا الغرض من منورقة، وفي بلاط الرئيس أبي عثمان سعيد ابن الحكم، حيث دارت مراسلات ومجاوبات ومطارحات أنقى من العين وأصفى من المزن، وكان قطب رحاها هو ابن الحكم نفسه، فها هو ذا يجابو ابن سعيد على رسالة شعرية برسالة شعرية:

أليس عين الكرم	شكر أيادي النعم
الشكر دين فلنقل	بفرضه ولنقم
ولنلتزمه للذي	لغيره لم يلزم
ولنوجب الحق له	بكل قلب وفم
فإن ذاك آية الد	ين الحنيف القيم» ^(٢)

(*) هذا صدر بيت للعجري - عجزه: ليوم كريمة وسداد ثغر «المراجع».

(١) شعره ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) اختصار القدح ٣٠.

وكتب إلى أبي الربيع التنملي:

سلامٌ لا يزالُ مدى الزمانِ
من الحال المحيلة في أمانِ
أخصُّ به حبيباً حلَّ منِّي
محلُّ الأمن من نفس الجبانِ
أصونُ وداده ما دمتُ حياً
وليس سوى فؤادي من صوانِ
وأذكرُ عهده فأذوبُ شوقاً
إليه حنان عذري الحنانِ
سألتُ من الزمان لقاءً فاسد
تجواب لنا على بخل الزمانِ
لقاء أبي الربيع أقر عيني
وأدنى لي القصي من الأماني^(١)

ولابن الحكم رسائل ومجاوبات كثيرة مع الخلافة الموحدية والفقهاء أبي الحسن
ابن مفوز، وأبي القاسم بن يامن، وإلى صاحب بجاية وإلى رئيس تونس.

كذلك فإن كثيراً من الشعراء الذين زاروه وعرفوه راسلوه وجاوبوه، منهم أبو
المطرف بن عميرة، وابن الخطاب الهنتاني، وابن سهل الإسرائيلي، وابن هشتمك وابن
العوام الإشبيلي وغيرهم.

٥ - البليار في الشعر:

لقد أفردتها وجعلتها موضوعاً قائماً بذاته، لأن الشعراء الذين ذكروها في
شعرهم لم يذكروها في معرض غرض واحد، وإنما وردت في أشعارهم على سبيل
الوصف، والمدح والدعوة للجهاد، والتهنئة بفتح، والهجاء أيضاً.

(١) المصدر نفسه ٣٤.

وجزر البليار هي جزء من تلك البيئة الأندلسية، التي حباها الله بطبيعة ساحرة، فميورقة «مدينة كبيرة على البحر بين جبلين يشقها واد صغير وهي مدينة متجر، ولها مرساتان... وأكثر غاباتها زيتون... وبها عيون ماء كثيرة، وتشق جميع جهاتها وتصب في البحر»^(١).

أما منورقة فقد قال ياقوت بأنها: «جزيرة عامرة بشرقي الأندلس»^(٢). وأما الثالثة الجزر «يابسة» فقد وصفها الحميري بكثرة الكروم والأعنان والأنهار والأشجار^(٣)، فإذا كانت هذه الجزر على ما وصفت به، وتحيط بها المياه من كل جانب، وتتفجر من داخلها العيون، وبها تجري الأنهار، فلا شك في أن تثير في النفوس الإعجاب ولعل أجمل شعر قيل في وصف هذه الجزر وعبر عن هذا الجمال أروع تعبير، شعر ابن اللبانة الداني حيث قال في ميورقة:

فكأنما الأنهار فيه مدامة
وكان ساحات الديار كؤوس
بلد أعارته الحمامة طوقها
وكساه حلة ريشه الطاووس^(٤)

ولجمال هذين البيتين فقد نُسب إلى ثلاثة شعراء هم: ابن اللبانة وابن حمديس، وابن قلاقس.

وهي المكان الآمن والبغية والأمل:
ولما رأيت عيني جناب «ميورق»
أمنت وحسب المرء بغيته حسب^(٥)

وهي جنة عدن:
فلا تسألوني عن فراق جهنم
ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن^(٦)

(١) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ص ٦١ - ٦٢.

(٢) معجم البلدان ٤٢٤/٥.

(٣) انظر الروض المعطار ٦١٦.

(٤) اخترنا رواية نفح الطيب، حيث اختلف في رواية صدر البيت الأول، ففي المغرب: «وكانما تلك الحياة مدامة» وفي شعر ابن اللبانة: «فكانما ماء الغمام مدامة»، وفي ديوان ابن حمديس حيث نُسب له: «وكان هاتيك الشقائق قهوة»، وبعض المصادر تجعل الأول تاليًا للثاني.

(٥) شعر ابن اللبانة ١٨.

(٦) المغرب ٣٢/٢.

كيف لا؟ وحصباؤها كافور ورملها تبر، وترابها جوهر:
نزلت بكافور وتبر وجوهر
يُقال لها الحصباء والرمل والتراب^(١)

وهي تطاول بغداد، وتتفوق في الإعمار على ما شاده الإسكندر:
وعَمَرَتْ بِالْإِحْسَانِ أَفْقَ «مَيُورْقَةَ»
وبَنَيْتَ فِيهَا مَا بَنَى الْإِسْكَنْدَرُ
فكأنَّهَا «بَغْدَادُ» أَنْتَ «رَشِيْدُهَا»
ووزيرها - وله السلامة - «جَعْفَرُ»^(٢)

أما منورقة فهي مقلّة البحر:
بدا للعيان البحرُ عَيْنًا بصيرةً
«مَنْوَرَقَةُ» فِيهَا مَقْلَةٌ أَنْتَ نُورُهَا^(٣)

وهي سحاب زاهر، وعباب ماخر عند ابن الأبار حيث يصفها بقوله:
تلك الجزيرة أقبلت تنويها
سُحْبٌ تَنَالُ بِسُقْيِهَا تَنْوِيهَا
في البحر لم تبرح فما جدوى الحيا
والبحرُ يبعثُ بالسَّحَابِ فِيهَا^(٤)

ولكن هذه العين المحبة هل تظل تنظر إلى هذه الجزر بالمنظار نفسه، جمال الجزر
لا يشك فيه، ولكنها الحالات النفسية التي تتغير، فما الذي غير ابن اللبانة الذي قال ما
قال حتى يقول:

أَفَرَّ بِنَفْسِي وَإِنْ أَصْبَحَتْ
«مَيُورْقَةُ» «مَصْرًا» وَ«جِدْوَاك» «نَيْلًا»^(٥)

(١) شعر ابن اللبانة ١٨.

(٢) شعر ابن اللبانة ٤٧.

(٣) اختصار القدح ٥٧.

(٤) المعجم ٣٣٦.

(٥) قلائد العقيان ٧٨٤/٣.

وما الذي يجعل شاعراً من أبنائها مثل ابن حوافر يستغيث من سكنى ميورقة،
ويهجوها هجاءً مرّاً فيقول:

إلهي إنني بك من زمــــــــاني
ومن سُنكى «مَيُورْقَة» مستغِيثُ
هي الأرضُ التي خبثت تراباً
فلم ينشأ به إلا خبيثٌ^(١)

إذا كان لابن اللبانة عذر في محاولته الخروج من ميورقة نتيجة لما لاقاه من تجهم
أميرها ناصر الدولة، فما عذر ابنها هذا؟ لا شك أن هذا من العقوق، ولقد صدق ابن
الأبار حين وصف هذا الشاعر بقوله: «كان أخبثهم لساناً»^(٢).

وإذا كان الثناء والهجاء للحالات النفسية، فإن هذه الجزر على أهمية موقعها
كانت تتعرض لهجمات من الفرنج والممالك المختلفة، لذلك وجدنا الفقيه عبدالحق بن
عطية يدعو أمير المسلمين لتخليص ميورقة من أيدي الإفرنج بعد احتلالها الاحتلال
الأول عام ٥٠٨ هـ حيث يخاطب أمير المرابطين:

ونحو أمير المسلمين تطامحتُ
نواظرُ أمالٍ وأيدي رغائبِ
من الناس تستدعي حفيظةً عدله
لصدمة خطبٍ في «مَيُورْق» ناصبِ
مقيمٍ فإن لم يرغم السَّعي أنفه
ألم فوافى جانباً بعد جانبِ
لقتلٍ وسبٍّ واصطلام شريعةٍ
لقد عظمت في القوم سُوءُ المصائبِ
أليس جديراً أن يُشَيَّعَ ذكْرُهُم
بأمانة قلبٍ في المدامع ذائبِ

(١) تحفة القادم ٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه ٢٤٦.

لنا اللُّهُ والملكُ الذي يُرتجى به
من الزمن المِذْئاب رجعةً تائبٍ
هو الغوثُ فليعطف علينا بنظرةٍ
من الحزم تحنُّو في وجوه النوائبِ
أليس الذي لم يُنجب الدهرُ مِثْلَهُ
أغرَّ صباح الرأي صدق المضاربِ
وأعفى ووقع الذنب تدمى كلومُهُ
وأكفى إذا كَعَتْ صدورُ الكتائبِ
عهدناه يُفْري الخطبَ قبل نزوله
ويلبسُ وقت السلم درع المحاربِ
ويغزو فلا شيء يقوم لعزمه
ولو أنه يرمي به في الكواكبِ
إذا ظنَّ لم يعدم يقين مشاهدٍ
وإن همَّ لم يُخطئ رميَّة صائبِ
فلا زال جيشُ النصر يقدمُ جيَّشَهُ
وتلقاه بالبُشرى وجوه العواقبِ^(١)

وإذا كان ابن عطية يستنصر أمير المرابطين ليدفع الإفرنج عن هذه الجزيرة
ويدعوه لتخليصها وأهلها مما حاق بهم من قتل وسبي وتشريد، فإن ابن أبي خالد
الكاتب^(٢) يهنئ ميورقة على يد الموحدين - ليس من الإفرنج، ولكن من العرب من
بني غانية -، الذين حاربوا دولة الموحدين وأوقعوا فيها، وكأن ذلك عام ٥٩٩هـ، يقول:
وغربانٍ يمّ قابله بوارحًا
فأدبر لا يرجو له مُتَيِّمًا

(١) قلاند العقيان ٦٦٨/٣ - ٦٦٩.

(٢) هو أبو عمر يزيد بن عبدالله أبي خالد اللخمي الكاتب من أهل إشبيلية، أديب كاتب شاعر، توفي سنة ٦١٢هـ.
انظر ترجمته في تحفة القادم ١٦٨.

بُكِّلَ كَمِيٍّ فِي اللَّقَاءِ مَدَجَجٍ
إِذَا كَلَجَ الْيَوْمُ الْعِمَاسُ تَبَسُّمًا
سَحَائِبُ جَوْنٍ أُرْعِدَتْ بِصَلِيلِهَا
وَأَبْدَتْ بُرُوقَ الْبَيْضِ كَالْوَشِيِّ مُعْلَمًا
وَيَا حُسْنَ مَا تَبْدُو خِلَالِ دُرُوعِهَا
أَسْتَنْثَاهَا تَحْكِي السَّمَاءَ وَأَنْجُمًا
وَقَدْ عَانَقَتْ سُمْرَ الذَّوَابِلِ سُمْرُهَا
كَمَا ضَمَّ رَوْضُ الْحُزْنِ غُصْنَا وَأَرْقَمَا
وَيَا لِلْجَوَارِي الْمُنْشَاتِ وَحُسْنِهَا
طَوَائِرَ بَيْنِ الْمَاءِ وَالْجَوِّ غَوِّمَا
إِذَا انْتَشَرَتْ فِي الْجَوِّ أَجْنَحَةٌ لَهَا
رَأَيْتَ بِهِ رَوْضًا وَنُورًا مُكَمَّمًا
وَإِنْ لَمْ تُهْجِهُ الرِّيحُ جَادَ مَصَافِحًا
فَمَدَّتْ لَهُ كَقَاً خَضِيْبًا وَمَعَصَمَا
مَجَازِيْفُ كَالْحَيَّاتِ مَدَّتْ رُؤُوسَهَا
عَلَى وَجَلٍ فِي الْمَاءِ كِي تَرْوِي الظُّمَأَ^(١)

وقد أجاد الشاعر في وصف الأسطول الموحي الذي حاصر ميورقة واستطاع ضمها إلى سلطان الموحدين.

٦ - موضوعات أخرى:

مهما حصرنا الموضوعات الرئيسية، فلا بد من وجود موضوعات فرعية، ترد عرضاً دون التركيز عليها، ولعل هذه الموضوعات التي لم نجد لها صدئاً كبيراً في ما بين أيدينا من شعر هي: «اللهو والهجاء والزهد والرثاء».

فاللهو لم يتخذ الشكل الذي كان سائداً بين شعراء الأندلس من دعوات ووصف المجالس وتبذل وتهتك أحياناً، وإنما نجد اللهو، في شعر جزر البليار يذكر في معرض

(١) تحفة القادم ١٦٨ - ١٦٩.

الشعر، أو يظهر أحياناً في مقطعات تتحدث عن الراح أو الغناء، دون أن تحس ذلك الإقبال من الشاعر، ولعل ظروف جزر البليار وما أحاط بها سبب في عدم التوجه إلى مثل هذا الغرض.

وإن رحنا نتمثل بعض الشواهد على ذلك فإننا نجد اليابسي يدعو إلى اللهو من خلال قصيدة مدحية:

لبيك لبيك داعي اللهو من كُثبٍ
إلى معاطفة الأغصان في الكُثب^(١)

وهذا يشعرنا بأن القصد هو الدخول إلى غرض المدح، ومع ذلك فقد وجدنا له أبياتاً مدهشة كقوله:

ثقلت زجاجات أتننا فرءاً
حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفّت فكادت أن تطير بما حوت
وكذا الجسم تخفُّ بالأرواح^(٢)

وجمال الوصف في هذه الأبيات يصرفنا عن اللهو إلى تتبع قدرة الشاعر الوصفية، وإبراز الصورة في ثوب معجب جديد.

وموسّدين على الأكف رؤوسهم
قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلت أسقيهم وأشرب فضلهم
حتى سكرت ونالهم ما نالني
والكأس تعرف كيف تأخذ ثارها
إني أملت إناها فأمالني^(٣)

وهذا ابن اللبانة أيضاً يصف لنا مجلس شرب، فيقول:

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٣.

(٢) فوات الوفيات ١/١٦٢.

(٣) الوافي بالوفيات ٨/٣٢٧.

أديرها على الروض المندى
وحكمُ الصبح في الظلماء ماضٍ
وكأسُ الراح تنظرُ عن حبابٍ
تنوبُ به عن الحـددِ المراضِ^(١)

ومما ذكر في منزع اللهو والاستهتار قول ابن العوام الإشبيلي:
إذا أسمعـت حيَّ على الفلاح
فقم في نحو ريحانٍ وراح^(٢)

والهجاء غرض لم يستول على الأندلسيين كما استولى على المشاركة، ولذلك قلما تجد شاعراً يلتفت إليه ويجعله غرضاً رئيساً من أغراض شعره وإنما هي حالات وانفعالات تفرض على الشاعر أحياناً، أن يقول، فيقول في البيت أو البيتين دون الاسترسال والتتبع والإسهاب والمبالغة، فعياش بن حوافر على خبث لسانه كما يصفه ابن الأبار، يهجو بني طلحة في صورة طريفة حيث يقول:

ما في بني طلحةٍ من يُرتجى لندى
ولا يُخافُ لبأسٍ منهم أحدٌ
هجوئهم حين عاف الناس هجوهم
فلي عليهم بتنويه الهجاء يد^(٣)

وقد مر معنا بعض الأبيات اليسيرة التي هجا بها إدريس اليابسي بعض من لم يروقوا له، كقوله:

نوالك من مخ رأس الظلـيم
وعـقلك من ذنب الثـعلب

ولذلك لم نجد الهجاء في جزر البليار يتسع ليصبح غرضاً مستقلاً له سماته وخصائصه، وإنما ظل انطباعات وانفعالات سريعة تمر مروراً عارضاً.

(١) ريجانة الألبا ٢/٣٨٥.

(٢) اختصار القدح ١٧٩.

(٣) تحفة القادم ٢٤٦.

أما الزهد فلعلنا لا نستطيع الحكم عليه بأنه من الأغراض الهامشية، وذلك لضياع دواوين الشعراء، أو عدم وصولها إلينا، وهم في هذا الميدان سباقون، وانصرافهم إليه مؤكد، فشاعر مثل الحميدي عرفنا اتجاهه، ووصلنا القليل من شعره الذي يؤكد هذا الاتجاه، فكيف لو وصل الديوان بأكمله، كذلك بعض الفقهاء والزهاد والصالحين من جزر البليار، ولا شك إن شعر الزهد جانب من جوانب الدعوة، ولا نتصور أن الشعر في البليار قد خلا منه، فالحروب والفتن، وتوالي الأزمات والمحن، واختلاف الأحوال والأهواء، ووجود مجالس اللهو والشرب، كل ذلك بل بعض ذلك سيدفع الشعراء الذين يتمثلون القيم الدينية والخلقية إلى الدعوة إلى الزهد، والعزوف عن مباحج الحياة ولذاتها، والانصراف عن إغراءاتها وشهواتها، فابن طنيز الميورقي يزهد في الدنيا والناس، ويدعو إلى الابتعاد عنهم، فليس فيهم من يسر:

وسائلة لتعرف كيف حالي

فقلت لها بحال لا تسرُّ

دُفِعتُ إلى زمان ليس فيه

إذا فتشت عن أهليه حُرُّ^(١)

والحميدي يؤكد هذه المقولة، ويدعونا إلى تجنب لقاء الناس إلا بشروط:

لقاء الناس ليس يُفيد شيئاً

سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلل من لقاء الناس إلّا

لأخذ العلم أو لصلاح حال^(٢)

وهذا ابن حكم يذكر وينبه:

لرحيل مأل كل مُقيم

ونزول بباب دار الكريم

أنا أخشى لكن رجائي أقوى

لقدومي على الغفور الرحيم

(١) معجم الأدباء ٢٤٧/٥.

(٢) الوافي بالوفيات ٣١٨/٤.

ربّ اغفر وارحم فأنت غنيٌّ
عن مصيري إلى العذاب الأليم^(١)

وفي الرثاء نجد بعض المقطعات القليلة، كما في رثاء ابن اللبانة لأخت المرتضى أمير ميورقة قبل ناصر الدولة، ويبدو لي أن هذا الرثاء كان إرضاءً وتعزية لناصر الدولة، الذي حفظ الود وظلّ وفياً للمرتضى الذي جعله حاكماً على هذه الجزيرة من بعده، وفي ذلك يقول:

أبنت الهدى جددت صنعاً علا صنعا
مضى المرتضى أصلاً وأتبعته فرعا
جرى الموت جري الرياح في ميْتَتَيْكُما
فأذواك ريحانا وكسّرهُ نبعا
على نسق جاء المصاب وإنما
تقدم وثراً ثم أتبعته شفعا^(٢)

وهذا رثاء جاء على نسق، ليس فيه قليل من عاطفة، وإنما صفٌّ من الكلام البارد المنمق.

ولأبي القاسم أحمد بن يامن رثاء في خال ابن حكم صاحب ميورقة، يقول:

لم يف الدهرُ في وفاة ابن عيسى
بئس والله ما أنا فيه بيسا
قائد قائم بأعباء ثغرٍ
لم يزل حُسْنُهُ عليه حبيسا
يرحمُ اللهُ منه أنفُسَ نفسٍ
نافست في الذي رأته نفيسا^(٣)

وهذا التنفيس كسابقه لا يرتقي إلى عنصر الرثاء الأصيل، وإنما هي مجاملات لا تحس فيها حرقة قلب، أو دمة حزن، أو لوعة فراق.

(١) اختصار القدح ٣٦.

(٢) شعر ابن اللبانة ٦١.

(٣) اختصار القدح ٥٩.

الفصل الرابع

شعراء البليار

«كان بميورقة جماعة أعلام وشعراء^(١)»، هذه مقولة المقرئ، وأقول لقد ازدانت منورقة ويابسة بمجموعة من الشعراء أيضا، وعلى الرغم من هاتين المقولتين، فإن الظفر بعدد أصابع اليدين يبين لنا الجناية على أدب هذه الجزر، كما أن وصول اسم الشاعر دون وصول شعره يؤكد الكارثة التي تعرض لها أدبنا العربي في هذا الثغر المتقدم.

ونظرا لأنني أريد أن استوفي الكلام في حق هذه الجزر، ولكون المصادر والمراجع لم تبلغنا إلا باليسير من أشعارهم، فسأعرض لهؤلاء الشعراء الذين مر ذكرهم في هذه المصادر وهم: إدريس بن اليمان اليابسي، وأبو بكر بن العطار اليابسي، وأبو عبدالله بن أبي نصر الميورقي، وأبو محمد عبدالله بن عشير اليابسي وابن عبدالولي الميورقي، وابن طنيز الميورقي، وعياش بن حوافر الميورقي، ومحمد بن عمر العماري الميورقي، ويحيى بن إسحاق الميورقي.

وسأركز الحديث على الشعارين: إدريس بن اليمان اليابسي، وأبي بكر بن العطار اليابسي لوصول باقة متنوعة من أشعارهما، ولكونهما أظهر شعراء هذه الجزر وأجودهما شعراً وأعلاهما كعباً ومكانة.

(١) نفح الطيب ٤/٤٧١.

١ - إدريس بن اليمان اليابسي(*)

نسبته:

هو أبو علي إدريس بن عبدالله بن اليمان العبدي الشهير باليابسي، واختلف في هذه النسبة، هل هو يابسي الأصل؟ أم أنه منسوب إليها نسبة إقامة؟

فابن بسام ينسبه إلى يابسة، ثم يذكر أنه أخبر بأن أصله من قسطة الغرب، فيقول في معرض الترجمة للشاعر: «ويابسة من الجزائر الشرقية على سمت مدينة دانية من الأندلس، وأخبرت أن أصله من قسطة الغرب من عمل شنت مرية^(١)»، ولكنه يعود مرة أخرى فيذكر خبراً يؤيد نسبة الشاعر إلى جزيرة يابسة، ففي معرض نقد مجاهد العامري لشعر الشاعر الذي استثقل شعره، فما كان منه إلا «أن أمر حاجبه، فاختلف القرطاس من يده، وقال سد خياشيمه: إن رائحة الشبين على شعرك تعريضاً له بيابسة، جزيرة في البحر كان منها^(٢)».

أما ابن سعيد فيرى أن هذه النسبة تعود بسبب إقامته الطويلة في جزيرة يابسة حتى عرف منها^(٣) لذلك فإنه يترجم له في كتابه المغرب على أنه من مدينة قسطة الغرب، مسقط رأس الشاعر الأندلسي الكبير ابن دراج القسطلي.

وما يؤكد صحة نسبته إلى يابسة هو أن الحميدي معاصره وابن ميورقة يؤكد على أن إدريس يابسي حيث يقول: «ذكره أبو عامر بن شهيد فنسبه إلى بلده، فقال:

(*) انظر ترجمته في الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٣٦، الجذوة رقم ٣١٣ ص ١٧٠، البغية رقم ٥٦٠، الرايات ١٢٦، المطرب ١٣٠، الحلة ١٨٤/٢، المغرب ٤٠٠/١، مسالك الأبصار ٢٠٤/١١، فوات الوفيات ١٦٢/١، الوافي بالوفيات

٣٢٨/٨، نفح الطيب ٧٥/٤.

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٤٠.

(٣) انظر المغرب ٤٠٠/١.

اليابسي، وينسبه آخرون فيقولون: الشبيني بالباء المعجمة، لأن الغالب على بلده شجرة الشبين، وشجرة الصنوبر، وقد أدركت زمانه ولم أره^(١)»، ويتكرر هذا القول في البغية^(٢)، وعلى الرغم من هذا الشك، فقد اتصلت به نسبة يابسة، واتصل بها اتصال البحر باليابسة، ولم تعرف له نسبة إلى غيرها.

وليس هذا فقط ما يعنينا في حياة إدريس اليابسي، وإنما حياته كلها لا تكاد تتضح، على الرغم من المكانة الشعرية، وهذا الثناء يفترض تتبع هذا الشاعر في سيرته والعرض لأحواله، ولكننا نصاب بخيبة أمل حين نريد التعرف على شخصية هذا الشاعر، فالإهمال يتحيفه، وينسدل ستار كثيف يطمس الظلال التي قد توهي لنا ببعض أخيلة عن خطوط حياته، فكبار مؤرخي الأدب الأندلسي من أمثال الحميدي والضبي والفتح بن خاقان، وابن سعيد والمقري المحوا إليه ولم يتوسعوا في الحديث عنه، أما العماد الأصفهاني وابن الخطيب فقد أهملاه، ولم يدر له ذكر في كتابيهما الموسوعيين: الخريدة والإحاطة.

ولولا تلك الترجمة التي لم تحط بحياة الشاعر وإنما عرضت لنماذجه الشعرية، أقول، لولا تلك الترجمة التي وردت في الذخيرة لابن بسام لظلَّ هذا الشاعر الفذ في طيِّ النسيان ككثير غيره، لم تسعف الظروف في وصول ترجماتهم أو نماذج أشعارهم. وإذا أردنا التعرف على سيرة حياته وأحواله وأسْرته من مصادر الأدب الأندلسي، فإن هذه الشذرات القليلة التي اقتطفناها من كتب التراجم لا تفي حقاً بتكوين صورة واضحة الملامح عن هذا الشاعر.

لذلك لا بد من تلمس طريق آخر، إذا ما أردنا أن نتبين أجزاءً من هذه الحياة وتلك الشخصية، وقد حاولت ذلك مستنطقاً أشعاره، ومستدلاً بتلك الإشارات التي وردت في شعره، عليّ أستكمل جوانب هذه الصورة فأخرج أنا والقراء بما يعوضنا عن ما أغفله كتاب التراجم والمؤرخون.

(١) الجذوة ١٧٠.

(٢) انظر ٢٣٧.

أما سنة ولادته فلم يذكرها أحد من الذين ترجموا له، لا على التحديد ولا على التقدير. أما وفاته فقد اختلف المؤرخون على رقمين، فالكتبي يرى أن وفاته كانت سنة (٤٧٠هـ) بينما يذكر الصفدي سنة (٤٥٠هـ) تاريخاً لوفاته، فأيهما أصوب؟ وهل نستطيع تقدير تاريخ ولادته؟

من خلال شعره نعرف أنه مدح مجاهدا العامري وابنه علياً، والمعتضد بن عباد^(١)، ومأمون بن ذي النون^(٢)، ويحيى بن حمود^(٣)، وباديس بن حبوس الصنهاجي^(٤).

وإذا كان مجاهد أول الممدوحين لكونه حكم دانية والبليار منذ (٤٠٥هـ - ٤٣٦هـ) فإن الباقيين قد حكموا ما بين (٤٣٣ - ٤٦٠هـ) وإذا ما علمنا أن رصيفه وزميله أبا جعفر بن الأبار^(٥) الشاعر قد عاش حتى عام ٤٣٣هـ يمدح المعتضد في إشبيلية فإن هذه الفترة هي الفترة الشعرية لشاعرنا.

وإذا كانت وفاته عام (٤٧٠هـ) على ما يذكره الكتبي أو عام (٤٥٠هـ) على ما يذكره الصفدي، فمتى كانت ولادته؟

نلتقط إشارة من ترجمة الكتبي عنه، حيث يذكر أنه روى عن أبي العلاء صاعد اللغوي.

وإذا كان أبو العلاء صاعد اللغوي قد جاز إلى الأندلس سنة ٣٨٠هـ، فإن رواية إدريس عنه ودراسته عليه تقع ما بين هذه السنة، وسنة (٤٠٢هـ) حيث وقعت فتنة البربر، إذ ترك صاعد في هذه السنة الأندلس متوجهاً إلى صقلية.

فإذا قدرنا ولادته في حدود السنة التي دخل فيها صاعد الأندلس أي سنة (٣٨٠هـ) أو ما بعدها بسنين فإنه بين هذا التاريخ وتاريخ خروج صاعد يكون شاباً

(١) هو عباد بن محمد المعتضد بالله، أبو عمر. ولد سنة ٤٠٧هـ وتوفي سنة ٤٦١هـ، ملك إشبيلية، كان داهية قاسياً، انظر ترجمته في الحلة السيرة ٤٩/٢ والذخيرة ق ٢ م ١٠ ص ٢٣ والبيان المغرب ١٥٧/٣ وأعمال الأعلام ١٥٦ ونفح الطيب ٢١٤/١.

(٢) هو يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون الهواري، ملك طليطلة، غلب على قرطبة وبلنسية، توفي سنة ٤٦٠هـ انظر ترجمته في القلائد ١٧٦/١، ١٩٨ والذخيرة ١٢٩/٤ والنفح ٤٤٠/١.

(٣) هو يحيى بن الناصر علي بن حمد الملقب بالمعتلي، استولى على مالقة وقرطبة، قتله محمد بن اسماعيل بن عباد عام ٤٢٧هـ. انظر ترجمته في النفح ٤٣١/١ والأعلام ١٥٧/٨.

(٤) هو باديس بن حبوس بن ماكس بن زيري، أبو مناد، ولقب بالحاجب المظفر بالله الناصر لدين الله، ملك غرناطة ومالقة. وكان جباراً شديداً توفي سنة ٤٦٥هـ. انظر ترجمته في القلائد ٨٠/١ والإحاطة ٤٥٣/١.

(٥) هو أحمد بن محمد الخولاني الأندلسي أبو جعفر بن الأبار، من شعراء المعتضد صاحب إشبيلية، ومولده ووفاته فيها، كان فاضلاً عارفاً بالأدب، له ديوان شعر، وهو غير ابن الأبار المؤرخ، انظر ترجمته في الأعلام ٢١٣/١.

مؤهلاً لتلقي الدراسة والرواية عن عالم كبير مثل صاعد، ولعل هذه الفترة وما بعدها بقليل، وهي فترة تسلم مجاهد العامري حكم دانية والبلبار توضح لنا البدايات الشعرية لهذا الشاعر، حيث يذكر ابن بسام أنه «بدانية قرأ وبها نشأ، ومنها انبعث انبعث السيل»^(١)، لذلك فإن أول أشعاره كانت في مدح مجاهد هذا - وهذا أيضاً يفسر لنا ذلك الموقف النقدي الذي وقفه مجاهد من الشاعر في ما يبدو أنه باكورة أمداحه، حيث يذكر ابن بسام دخول إدريس بن اليمان على الموفق أبي الجيش مجاهد وإنشاده مدحته البائية فيه التي يقول فيها:

ولربَّ ليلٍ قد طرقتُ وهمتي
أسري بها إذ ليس يسري كوكبُ
في معشر شُمِّ الأنوف كأنهم
سيّدان رملٍ أو أسودُ دُرِّ

إلى أن يقول:

وكانَ نور الصُّبحِ رايةً فارسٍ
حمراء يتبعها خميسُ أشهبٍ
وكانَ قرنَ الشمسِ وجهُ مجاهدٍ
لما أثارَ سناه كادات غروبٍ

وهو في كل ذلك يعبث بيديه في قليل شعر عارضته، استثقلاً للعارفة، وبخلاً بالجائزة، وجهلاً بالفائدة، فلما أمله الأمر، وأعوزه الصبر، غمز حاجبه بشطر حاجبه، فاخطف القرطاس من يده، وقال وقد سد خياشيمه إن رائحة الشبين على شعرك، تعريضاً له ببابسه، جزيرة في البحر كان منها، أكثر ثمرها الشبين فحجل لمقامه، وتعثّر في ذيل كلامه، فلما وثبت إليه نفسه وراجع حسه قال: أيها الأمير، إن كنت أسأت في مدحك فأحسن في منحك، أو قصرت في وصفك فأطل في عرفك^(٢). وما يهمني من هذا النص هو أنني أقدر أنها من بدايات شعره، لأننا نعلم أن ملوك الطوائف فيما بعد قد تسابقوا على خطب وده، لجودة شعره، وسمو مقداره.

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق ق ٣ م ١ ص ٣٣٦.

من ذلك كله أقدر أنه استوى على عود الشعر وأصبح نجم الشعراء في عصره «حتى تضاعلت له الهضاب عن قدره، وماجت الأرض ببحره، وصار شعره سمر النادي، وتعلت الحادي، وتمثل الحاضر والبادي^(١)»، في حدود سنة (٤٢٠هـ) وما بعدها إذ نجده مادحاً ليحيى بن حمود الذي قتل سنة (٤٢٧هـ) وصديقاً لابن الأبار شاعر المعتضد، وعلى علاقة وثيقة بابن مقنة وزير يحيى بن حمود، ثم نجده «يتردد على ملوك الطوائف بالأندلس تردد الكأس على الشرب، ويجري في أهوائهم جري الماء في الغصن الرطب^(٢)»، وإذا كانت أمداحه الأخيرة، في المعتضد والمأمون بن ذي النون وكليهما حكم حتى عام ٤٦٠هـ تقريباً، فإن المصادر تصمت بعد ذلك، ولا تذكر له مدحاً في من جاء بعدهم من ملوك الطوائف، فهل كانت وفاته كما ذكر الصفدي سنة (٤٥٠هـ) فتفسر لنا عدم وجود شعر له في مدح المعتضد بن عباد واسطة عقد الشعراء وجامع منشورهم الذي تولى الحكم بعد أبيه المعتضد في حدود (٤٦١هـ) أم أنه على رواية الكتبي الذي ذكر أنه توفي عام (٤٧٠هـ) يكون قد كبر وأسن فلم يعد بإمكانه التنقل والسير وقول الشعر، ويكون بذلك قد بلغ التسعين من العمر، لعلي في النهاية أرجح رواية الصفدي، وأقول على الظن إنه قد توفي في حدود عام (٤٥٠هـ).

أحواله وتنقلاته:

إذا كان شاعرنا قد ولد في جزيرة يابسة، ولها انتسب، فإنه نشأ وتعلم وظهر في دانية وبها بدت شاعريته ومخايل نجابته، فاتجه كعادة شعراء عصره، إلى أمراء دانية بالمديح، فمدح مجاهداً ومن ثم ابنه علياً، ولعله في أثناء إقامته في دانية قد اتجه إلى قرطبة حيث التقى بصاعد اللغوي، أو لعل صاعداً قد قدم إلى دانية حيث ما ذكرناه من علاقته مع مجاهد عند حديثنا عن بلاط مجاهد العامري، ومع ذلك فهو يتجه إلى قرطبة، ويمدح ملكها يحيى بن علي بن حمود، الذي ملك قرطبة من عام (٤١٥ - ٤٢٧هـ) وبوزيره ابن مقنة^(٣) يوثق علاقته، ثم ينتقل إلى طليطلة ويمدح ملكها المأمون بن ذي

(١) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) لم أعثر على ترجمته ولإدريس قصيدة في مدحه.

النون الذي ملك طليطلة من عام (٤٣٥ - ٤٦٠ هـ) وإلى غرناطة حيث يمدح ملكها باديس الصنهاجي الذي ظل ملكاً عليها من عام (٤٢٨ - ٤٦٥ هـ) وتراه خلال هذه الفترة يلتقي المعتضد بن عباد ويطلب منه أن يمدحه، وتتأكد عرى المودة بين شاعرنا والشاعر أبي جعفر بن الأبار، والوزير أبي عامر بن مسلمة^(١) الذي ترك قرطبة بعد الفتنة وعاش في إشبيلية، ومما يدل على صفاء هذه العلاقة بين الشعراء الثلاثة، ما ذكره هذا الوزير حيث قال: «كتبت يوماً بهذه الأبيات إلى الأديبين أبي علي إدريس وأبي جعفر بن الأبار مستدعياً لهما:

أيا شقيقي إخاء	ويا قسيمي صفاء
ومن هما في نوي الفه	م جوهراً الأدياء
تفضلاً وأجيباً	إلى ندي نداء
لتأنسنا بحديث	وقهوة وغناء

قال، فأجابني إدريس:

يا صنو ماء السماء	في رقة وصفاء
ويا سراج ضياء	يجلو دجى الظلماء
بهرت سيما ذكاء	في بهجة وذكاء
وحزت في العلياء	قوادم الجوزاء
يا حاتم الكرماء	وأحمد الشعراء
بادهتنا بالآل	سواطع اللآلئ
قريض حسن كدر	على طلا الحسناء
يقود في كل معنى	معنى الغنى والغناء
وقد أجبنا إلى ما	دعوت من آلاء
لا زال نجمك أسمى	من نجم كل سماء ^(١)

(١) هو أبو عامر محمد بن عبدالله بن محمد بن مسلمة وزير أديب عالم، ألف كتاب «حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح»، وقد أثنى عليه ابن بسام والحجاري والفتح وعلى بيته وهاجر من قرطبة زمن الفتنة إلى إشبيلية فكان بينه وبين إدريس اليابسي وابن الأبار مراسلات، وتوفي في إشبيلية. انظر ترجمته في المطمح ٢٠٣ والذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٠٦ والجزوة رقم ٨٩ والبغية ١٧٠ والمغرب ٩٦/١.

(٢) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٠٧.

ويبدو أنه كبر وأسن، ونستدل على ذلك بقوله:
صاح الصَّبَّاحُ بجانبِي ليلي فلم
أسف لليلي إذ محاهُ صباحي^(١)

وقوله:

ظننتُ الشَّبَّابُ يفي حين وافي
فلم يكُ إلا خـيـالاً أَلَمْ
تولَّى وشـيـكا ولم أجـنِ منه
سوى حُلْمٍ أو شـبـيـه الحُلْمِ^(٢)

ونحس من خلال شعر الفخر بأنه رجل مكافح، خاض غمرات الحياة بطلوها
ومرها ويبدو أنه اشترك في بعض المعارك كما يظهر ذلك من شعره.

وتغمض أخبار الشاعر، فلا نكاد نتبين فصول حياته ولا نهايته، ولا نعرف أفراد
أسرته، فالمصادر ضنت علينا بذلك، وكثير من أشعاره التي قد تدلنا على بعض أخباره
قد فقدت ولم نعثر عليها.

أغراض شعره:

نستطيع من خلال مجموع شعر إدريس اليابسي أن نتبين الأغراض التي انتظمت
شعره، إذ نجده يضم معظم الأغراض الشعرية، وعلى رأس هذه الأغراض «الغزل
والمدح» يليهما الوصف واللهو والفخر والهجاء والإخوانيات» وهو في جميع هذه
الأغراض شاعر متمكن قادر على اختراع المعاني، بدقة تشبيه، وإصابة غرض، وجمال
تصوير، وروعة بيان، ونلمح كذلك ثقافة دينية وتراثية وأدبية، ونحس نكهة شعرية
جديدة بالتقدير، ولنترك شعره يوضح شخصه، ويصرح عن نفسه، ويبين عن سماته.

(١) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٤٣ وشعره.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٣.

أ - الغزل:

لإدريس القدح المعلى في غزل يخلب الألباب ويملك القلوب والأسماع، فلسست تحس وأنت تقرأ غزله بتلك التقليدية الجافة، أو تلك العذرية المخدرة، الحاملة، أو المجونية الخالعة، وإنما تندهب لهذا الغزل الأنيق الرقيق، الجديد المختلف النكهة والمذاق عما ذكرناه، ولننظر إليه وهو يتغزل في مشية محبوبته حيث يقول:

أقبلت تهترُّ كالغُصن وتمشي كالحمامه

ظبية تحسدُ عينيها وخديها المدامه^(١)

إنك تحس بحفيف الغصن وأجنحة الحمام ترف من فوق رأسك وأنت تنظر إليها مقبلة إليك، أهى الطبيعة وجمال الحياة وتدفعها؟ أم هي تلك المشية التي تجول في القلب؟

لا تملك أمام هذا الإبداع إلا أن تنسى تلك الأوصاف التقليدية التي تصف المرأة في مشيتها بالتخلع والتثني والهوينى كما يقول بشار بن برد:

إذا قامت لمشييتها تثنت

كأن عظامها من خيزران

أو كما يقول الأعشى:

غرَّاء فرعاء مصقول عوارضها

تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحلُ

إلى غير ذلك من هذه الأوصاف التي لا ترقى - على جمالها - إلى تلك الصورة العذبة، صورة اهتزاز الغصن ومشية الحمامة، ولا يكتفى بهذا الإبداع، بل ينتقل إلى إبداع آخر حين يريد أن يخبرنا عن رونقها، وتدفق ماء الشباب في عروقها، فعيونها المشعة ودماء الحيوية المندفعة من خديها تورث المدامة حسداً وغيظاً، وقديماً كان في الناس الحسد، إنه حسد حملته المدامة لذلك التفوق والسبق في اللون والفعل والأثر.

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٣٣٩.

وهذا ابن بسام الشاعر والكاتب والمؤرخ، والناقد الأندلسي الكبير يقرأ هذه القصيدة الغزلية العفة، التي يقول فيها إدريس:

لم تدرِ ما خلّدت عيناك في خلدي
من الغرام ولا ما كابدت كبدي
أفـديـك من زائرِ رام الدؤو فلم
يسـطـعـه من غرق في الدمع مُتـقـدر
خاف العيونَ فوافاني على عجلٍ
مُعـطـلاً جيده إلا من الغيد
عاطيته الكأسَ فاستحييتُ مدامتها
من ذلك الشنب المعسول بالبرد
حتى إذا غازلت أجفانه سنة
وصيّرتُهُ يدُ الصهباء طوعَ يدي
أردتُ توسيـدهُ خـديّ وقلّ له
فقال كفك عندي أفضلُ الوسـد
فبات في حرم لا غدّرَ يذعره
وبتَ ظمآن لم أصـدّرُ ولم أريد
بدر ألم وبدر التـمّ مُنـمّـحـق
والأفقُ مُحـلـولُك الأرجاء من حسـد
تحيرَ الليلُ فيه أين مـطـلـعـه
أما درى الليلُ أن البدرَ في عضدي^(١)

يقول ابن بسام: «رائقة، ومتأخرة سابقة في التزام العفاف مع السلاف، وما سمعت بأبدع منها لأحد من أهل هذا الأفق»^(٢).

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٣٩.

ولست أريد الزيادة على قول الناقد ابن بسام وإنما أريد أن أنبه إلى أن الجمال يوشح هذه القصيدة، فإذا صرفت النظر عن تشبيه المعنوي بالمحسوس من حياء المدامة ومغازلة سنة النوم للأجفان، ومن تلك الاستعارات الأنيقة في يد الصهباء، والمقابلة بينها وبين بدر السماء، وصورة الأفق المغيظ المحنق المتلطي من الحسد، وهذا العفاف القوي الحازم، فإنك لن تستطيع أن تصرف النظر عن الليل الحائر، لا بد وأنت ستشفق عليه في حيرته وبحثه عن ذلك القمر المشع الذي لا يدري مطلعته، فإذا أصابه اليأس ومضت الألم، انبعث الشاعر في سخرية الواثق يدل الليل على مطلع البدر:

أما درى الليل أن البدر في عضدي

وإذا كنا قد بدأنا بهذه اللقطات الرائعة من غزله قبل أن نبين خصائص شعره الغزلي، فما هي إلا طاقة ورد، ورشة عطر أحببنا أن نقدمها بين يدي الحديث عن هذا الغرض الذي علق الشاعر وتعلق به:

علق الهوى قبل الهواء علاقةً

ما زال في نزع بهما ونزاع

فكانما سكن الهوى في قلبه

من قبل سكنى القلب في الأضلاع^(١)

فليس الغزل عند اليابسي نزوة أو مجرد غرض من الأغراض على الشاعر أن يقول فيه، وإنما هو إحساس بصدق الانفعال والتجربة، وتسليم تام أمام الجمال:

لا يستثير وشاح الخود لي شغفاً

ما لم يجب كفؤاد العاشق الوجيب

ولا أهيم بجيد غير ذي جيد

ولا أهش لقرط غير مضطرب

ولا أروح لروض غير ذي زهر

ولا أهش إلى كأس بلا طرب

(١) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٣.

ومن نافلة القول الحديث عن الغزل بالمذكر، ولعل هذا الغرض الذي طرقه كثير من الشعراء حقيقة أو ليقال إنه قال في جميع الأغراض - قد ورد عند اليابسي، وفي مجموع شعره الذي قمت بجمعه، وجدت له مقطعتين: الأولى صريحة، ولكنها لا تدل على توجه حقيقي من الشاعر لمثل هذا الغرض، فقد رأى غلاماً وسيماً عليه أسمال بالية، فقال فيه:

توشح بالظلماء وهُوَ صَبَاحُ
فَأْمَرَضَتْ أَلْبَابُ وَهِيَ صِحَاحُ
وظل فؤادي طائراً عن جوانحي
وليس له إلا الغـرام جناحُ
قَضِيبُ صَبَاحٍ فِي وَشَاحِ دَجْنَةٍ
أَلَا لَيْتَنِي تَحْتَ الْوَشَاحِ وَشَاحُ
وَلَا عَجَبُ إِنْ أَفْسَدْتَنِي جَفَوْنُهُ
فَكُلُّ فَسَادٍ فِي هَوَاهُ صَالِحٌ^(١)

أما المقطعة الثانية فالخطاب فيها للمذكر، ونحن نعلم أن كثيراً من الشعراء كانوا يتغزلون بالمؤنث على خطاب المذكر، كقوله:

عَلَقْتُهُ شَادِنًا صَغِيرًا
وَكُنْتُ لَا أَعْشَقُ الصَّغَارَا
أَعَارَنِي سُقْمُ نَاطِرِيهِ
فَاسْتَشَعَرْتُ نَفْسُهُ حَذَارَا
يُسْفِرُ عَنْ وَجْهِ مُسْتَنِيرٍ
يَرُدُّ جُنْحَ الدَّجَى نَهَارَا^(٢)

وإذا كان غزله يتميز بالجدة والطرافة ودقة التصوير وبراعة التشبيه، فإنه يتميز أيضاً بخصائص منها:

(١) شرح مقامات الحريري ٣/ ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١٣٢٨.

• المزج بين الطبيعة والغزل:

فالمرأة عند الياسي هي الطبيعة الجلوة في أحلى معانيها ومغانيها، إذ تتجسد في الطبيعة، والطبيعة تتلخص في المرأة، وكلتاها تستعير من الأخرى صفاتها وسماتها، فالمرأة تهتز اهتزاز الغصن حركه نسيم الصبا، وتمشي مشية الحمامة: أقبلت تهتز كالغصن وتمشي كالحمامة^(١)

وهي حديقة ناضرة ممرعة بالأزاهير والوررد:
سُقِيًّا لَوَادِيكَ الْأَغْنُ مَرِيْعُهُ
إِنَّ الشَّبَابَ بِهِ مَرِيْعٌ مُمْرِغٌ
إِنْ كَانَ خَدُّكَ فِيهِ وَرْدٌ يَانِعٌ
فَهَوَاكَ فِي عَيْنِي وَقَلْبِي أَيْنَعُ^(٢)

وانظر إلى هذه السوالف التي تتصعد كالسوسان، وتلك الغدائر التي تنصب انصباب الماء في الخلجان، وما أعذبها من صورة! وما أنداه من تشبيه! فما هذه الجدائل والغدائر في تموجها وحركتها إلا تكسرات ذلك الماء المتدفق من الخلجان: إلى السوالف كالسوسان في صُعْدٍ
إلى الغدائر كالخلجان في صَبَبٍ^(٣)

وهو يجمع بين النار والماء، النار في وقدتها، والماء في تدفقه:
مَنْ كُلٌّ سَافِرَةٌ عَنْ مَشْرَبٍ خَجَالٌ
فِيهِ طَرَاظَانِ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ لَهَبٍ
ويعجب الشاعر بهذه الأضداد، فإذا اجتمع الماء والنار في صعيد واحد، وهو ما لم يعهده:

لَمْ أَرِ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ مَاءً
أَضْرَمَ فِيهِ الْحَيَاءُ نَارًا

(١) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٥.

(٣) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٣٩.

إذا كان ذلك لم يعهد، فلماذا لا تجتمع الرحمة والعذاب؟
أجني مرأشفها العذاب وفي الحشا
حُرِّقْ فَأَمْزِجْ رَحْمَةً بِعَذَابٍ^(١)

ولنمتع النظر والسمع والفؤاد بصورة الحصى الأبيض النقي ينبض من تحت
حوافه ماءً رقيقاً سلسبيل، يقطر عذوبة وبرودة، ويميس صفاءً ونقاءً:
واستضحكت عن لالٍ أو حصى بردٍ
يكاد يقطر من مائئة الشئبِ^(٢)

بل هي نهر طاب مورده:
فلو يتأتى وردها أو مرادها
تسلسل مورودٌ وطاب مورودٌ^(٣)

وإذا كان المنهل لا يمنع ورده، فلم تمنعه هي؟
من الصَّيْدِ حِرَّانٌ أَطْلَتْ عَوِيلَهُ
وثغرك سلسال الرُّصَابِ برودٌ^(٤)

ولكن هذا المنع والحرمان لا يستمران، وتجد عليه فيصيح طرباً:
قُبْلَةً كَانَتْ عَلَى دَهْشٍ
أَذْهَبَتْ مَآبِي مِنَ الْعَطَشِ
ولها في القلب منزلةٌ
لو عَدَّ نَهَا النَّفْسُ لَمْ تَعِشِ^(٥)

وإذا كانت مفردات الطبيعة تتمثل في هذه المحبوبة فإنها أولاً وأخيراً تلك الشجرة
الطيبة التي يأوي إلى ظلها كل مكدود:

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٧.

(٤) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٧.

(٥) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٣٧ والنفع ٤/٧٥.

من الهيف تستجفي النسيم إذا جرى
عليلاً على أعطافها فتميد^(١)

• الخلط بين أدوات الحرب والغزل:

إذا كانت هذه الخاصة وسابقتها من خصائص الشعر الأندلسي بعامته، فإنها عند إدريس اليابسي تلبس الأنيق من التشبيه، والفائق من التعبير والرائق من التصوير، فهي هو ذا يصف لنا كحيلة الأجفان بصدرها الرامح، وأطرافه الذرية المدببة، ثم يأتي على عينيها التي ترشق النبل، وهذا العقد فوق الجيد كالفرند الجائل في الحسام، وأخيراً يختم بجعل الحواجب سيوفاً حمائلها الأهداب الطويلة:

أَكْحِيلَةُ الْأَجْفَانِ بِالسَّحَرِ الَّذِي
لَوْلَاهُ مَا زَوَتْ الْبَلَابِلُ بَابِلُ
قَدْ كَانَ قَلْبِي غَافِلًا عَمَّا بِهِ
أَوْدَى وَقَلْبُ أَخِي السَّلَامَةُ غَافِلُ
حَتَّى دَهَانِي مِنْكَ صَدْرُ رَامِحُ
ذَرَبُ سَنَانَاهُ وَطَرْفُ نَابِلُ
مَا عَقْدُكَ الْمُؤَمَّهَى بِجَيْدِكَ دُرَّةُ
لَكِنْ فَرَنْدُ فِي حَسَامٍ جَائِلُ
كَمُلْتُ سَيْوْفُ الْهَنْدِ فَوْقَ جَفَوْنِهَا
وَطَوَالَ أَهْدَابِ الْجُفُونِ حَمَائِلُ^(٢)

وتتكرر هذه الصور، فيستعير أدوات المعركة من رماح وسيوف وسهام لقد الحبيبة وعينيها، وإذا ما احتدمت المعركة فسيكون النصر في جانبها:
وَلَمَّا أَقَمَّنَ رِمَاحُ الْقِدُودِ
فَدَانَتْ لَهُنَّ رِمَاحُ الْبِهِمِ

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٧.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٦ وشعره.

رَفَعْنَ الهوى علمًا خافقًا
فكان فــــوادي جناح العلم^(١)

● الاتكاء على التقليدية:

إن هذا التراث الضخم الذي تربى عليه الشاعر وتثقف به لا بد أن يظهر في شعره، ولذلك تحس في غزله بتلك التقليدية من وصف المحبوبة بالشمس والبدر، وتشبيهها بالظبي والوحش، واستعارة الورد للخد والآس للصدغ، والعنم للأنامل، والوشاح الجائل فوق خصر مهفّف، ورسيس الحلي، إلى غير ذلك من الصور التقليدية، والتشبيهات المطروقة، وهذا ليس منه بد لشاعر عربي يتكىء على تراث عربي يجري منه مجرى الدم من العروق، وإن كان وشحه بأزاهير الجمال، ودفق فيه ماء الحيوية والدلال، فهي كالشمس:

بشمسٍ يكادُ الوهمُ يدمي أديمها
لها الليل تاجٌ والنجومُ عقودُ^(٢)

وهي بدر:

بدر ألمٌ وبدرُ التّمّ منمــــحق
والأفقُ مُحلولكُ الأرجاء من حسد^(٣)

وهي غزال:

غزالُ كناسٍ بل غزالةٌ جِلَّةٍ
تزين الحلي منها سـوالفُ غيـدُ^(٤)

وتتجلى فيها تلك الأوصاف الطبيعية التقليدية:

بذي لعسٍ للأقـــــحـــــوان ثنـايـاهُ
وللورد خداه ولآس صدغاهُ

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤١ وشعره.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٨ وشعره.

(٣) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١٣٦ وشعره.

(٤) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٨ وشعره.

وللسوسن الريان صفحة خذ
وللبدر مجلاه وللمسك رياء^(١)

ب - المدح:

غرض قديم جديد دائم متصل وفي الأندلس وجد المراح الخصب، والجو الملائم، والبيئة المناسبة، ووجد نفسه في ظل البيئة السياسية الأندلسية الجديدة في عهد ملوك الطوائف مطلوباً لا طالباً ومرغوباً فيه لا راغباً، فهذا المعتضد بن عباد على شكاسة أخلاقه، واضطراب مزاجه، وقساوة أفعاله يطلب من إدريس اليابسي أن يمدحه، يقول ابن بسام: «وقد سأله عباد في بعض رحله إليه، على كثرة بوائقه، وشكاسة أخلاقه أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها آل حمود، فقال له: «إشارتي مفهومة، وبناتُ صدري كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها، فقد عرف مهرها^(٢)». وكان مهر القصيدة على ما يذكر ابن بسام مائة دينار.

في هذه التربة الخصبة نما شعر المدح، وكان لإدريس اليابسي قصب السبق في هذا الميدان «وظفقت يتردد على ملوك الطوائف بالأندلس تردد الكأس على الشرب، ويجري في أهوائهم جري الماء في الغصن الرطب^(٣)»، وكانت تسبقه شهرته وقصائده في انتجاع الملوك، وقد ذكرنا في الحديث عن أحواله وتنقلاته أنه مدح ملوك دانية مجاهداً وابنه علياً ومدح ملوك قرطبة وطليلة وإشبيلية وغرناطة ولعله مدح غيرهم فكثير من شعره فقد وضاع، ولكن ما تبقى من شعره يصدق مقولة ابن بسام السابقة.

وأول ممدوحيه هو مجاهد العامري ملك دانية وفيه يقول:

وَكأن قَرْنُ الشَّمْسِ وَجْهٌ مُجَاهِدٍ
لَمَّا أُنارَ سَناءُ كَادَتْ تَغربُ^(٤)

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ وشعره.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٣٦.

(٤) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٠.

ويمدح ابنه علياً فيقول:

بعليّ ابن مـجـاهـدٍ أوردته
روض المديح ومـوسـم المـدّاح
تهلّان في عقد الحُبّ ولدى الوغى
غُصنٌ يراخُ إلى نسيم رياح
فالبُرّ بحرٌ من مدائحه التي
تُربي على الطيّار والسَّبّاح
بسياسةٍ يقفُ الزّمانُ إزاءها
خضَلَ الحياءِ ملازمَ الأسجاح
محفوفةً بمكارمٍ وصوارمٍ
تثني وتصرفُ غربَ كلِّ جمّاح^(١)

أما المظفر الصنهاجي باديس بن حبوس ملك غرناطة فإنه يحظى بقصائد عديدة في مدحه، منها قصيدة عينية، يصفه فيها بالقائد اللامع والشهاب الساطع، والقمر الطالع، يقول:

القائدُ الجردُ العتاقُ كائُها
لججٌ زواخرٌ أو عوارضٌ لمعُ
متوقِّدٌ في الحادثات إذا دجتُ
فكأنه فيهما شهابٌ يسطعُ
علم هو القمرُ المباهي طالعاً
صنهاجياً وهمُ النجومُ الطُّلُعُ
متسرّبلين لكلِّ حربٍ مُرّةٍ
بأساً يُقرّعُ كلَّ من لا يقرّعُ
فلو انهمُ رفضوا الأسنّة والقنا
قامت قلوبُهمُ بها والأذرُعُ^(٢)

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٤.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٥ وشعره.

وهو في مدحه يسير على الدرب الممهد، فالممدوح قائد شجاع وبطل متفرد، وهو يجمع إلى جانب البأس والذكاء الكرم والجود، يقول من قصيدة:

يلقى الوغى بأديم وجهه ضاحك
صافي الأسرّة في العجاج الأكر
بطل ترى الأبطال منه كالقطا
أشفقن من زجل الجناح مُصرصر
في سرجه زحل وبهرامّ معا
وببُردتيه عطارد والمشتري
بأساً يُخلي الخيل حين يخوضها
كالأيكة انقصفت بريح صرصر
وذكاء فهم كلّما استخبرته
ألفيت أذكي مندل في مجمر
في كلّ كفّ منه خمس أصابع
لكنّها في الجود خمسة أبخر^(١)

وتلقى هذه المعاني في أغلب قصائده المدحية، ولكنك تحس بمعاني القوة التي يضيفها على البطل، من خلال قوة ألفاظه، وجزالة سبكه، وفخامة إيقاعه، وقرأ معي هذه الأبيات:

فنتى يخرق الأغيال وهي أسنة
ويقتنص الأبطال وهي أسود
فليس لمختال لديه مخيلة
وليس لمريد عليه مؤرود
بعيد المدى ماض يريك جلادة
إذا لم يُطق حرّ الجلال جليد

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٨ وشعره.

يحيّد عن القول الكريه سمائعه

وليس عن القرن الكريه يحيّد^(١)

ومن أروع مدائحه قصيدته الميمية في مدح المأمون بن ذي النون ملك غرناطة، إذ أضفى عليه روائع المعاني وفائق الصفات، فالزمان به استقام، وعمّ الأمن عموم رعيته لا يفزعها شيء بل هي أمانة مطمئنة كحمام الحرم، وقد تميز هذا الملك عن سائر الملوك كما تميزت أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر الأمم، لقد طابت به الدنيا، وسرى طيبه يعبق، ولم يبق شيء إلا طاب به:

وطيّب حتى رضاب الثغور

فلا فم إلا وفيه شيبم^(٢)

يقول فيه:

وما زال يقفو زمان زماناً

فإمّا بحمد وإمّا بدم

ولكنّ هذا الزمان استقام

ولولا ابنُ ذي النون لم يستقم

فقد سكنت عين دهمائه

كما سكّن الفعلُ جزمًا بلّم

رعايا الملوك قطا البعيد لكنّ

رعيّة يحيى حمام الحرم

ج - الوصف:

حظيت الطبيعة بالنصيب الأوفى من شعر الوصف عند إدريس اليابسي، وفي حديثنا عن هذا الغرض في أغراض وموضوعات الشعر في جزر البليار عرضنا لبعض اللقطات من شعره في الوصف، ولا بأس في إكمال جوانب الصورة في هذا الحديث الخاص عن غرض الوصف في شعره.

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٩ وشعره.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٢.

ووصف الطبيعة عند شاعرنا يكاد يقتصر على مقطعات في وصف الياسمين، أو البنفسج والسوسن والخيري، ويعتمد في ذلك على أوصاف طريفة، وتشبيهات ظريفة، كقوله من قطعة:

وضاحكٍ كالفلق	عن فلجٍ ^(١) في ورقٍ
على حِفايٍ مِرْوَدٍ ^(٢)	مُذهبٍ مُندَلِقٍ
كَمُنْتَجٍ مِنْ غَرَقٍ	وخارجٍ من نَفَقٍ
بين اصفرارٍ فاقعٍ	على ابيضاضٍ يَقْقٍ
كأئما كلاهما	في راحةٍ أو طبقٍ
بُرادةٍ من ذهبٍ	في وَرَقٍ من وَرَقٍ ^(٣)

ولقد أجاد إجادة تامة في تشبيه القائم وسط السوسنة بالناجي من الغرق، أو الخارج من النفق ولكنه يعود بعد هذا التشخيص إلى التشبيهات الجامدة، وعلى الرغم من طرافتها إلا أنني أميل إلى ذلك التشخيص الذي بدأه.

وها هو ذا يعود إلى التشخيص الذي بدأه.

وها هو ذا يعود إلى التشخيص مرة أخرى في البنفسج الذي يستعير وريقاته المدببة من شعر كث، ولون نواره من نور الوجه، حيث يقول:

شَهِدْتُ لِنَوَّارِ الْبَنْفَسَجِ أَلْسُنُ
من لونه الأَحْوَى ومن إيناعه
بِمُشَابِهِ الشَّعْرِ الْأَثِيثِ أَعَارُهُ
قَمَرُ الْجَبِينِ الصَّلْتِ نَوَّرَ شَعَاعَهُ^(٤)

(١) الفلج: الفرجة بين الأسنان.

(٢) المروء: القائم وسط السوسنة.

(٣) البديع في وصف الربيع ص ١٤٠ وشعره.

(٤) البديع في وصف الربيع ص ٨٢.

وهو ينصب الياسمين أميرًا للأزهار والنواوير، يأمر فيطاع:
أَمِيرُ النُّورِ يَأْمُرُنِي بِشَرْبِ
ولستُ أَطِيقُ عَصِيانَ الأَمِيرِ^(١)

ومن جميل تشبيهه قوله في الخيري:
أَهْلًا بِسَارٍ طَيْبُـهُ لَا سَارِبِ
أَضْحَى هَوَاهُ مُضَرَّبًا بِضِرَائِبِ
يا نَاجِمَ الخَيْرِ جَادَكَ كُلُّ ذِي
ثَغَرٍ لَجِيْبِ الدَّجْنِ فَوْقَكَ جَائِبِ
أَعْطَيْتَ أَنْفَاسَ الحَبِيبِ مُعْطَرًا
وخلقت من خيـلانِ ثوبِ الكاتب^(٢)

وإذا كان الياسي يرسم صورة صادقة ورائعة من خلال فتنته بالأزاهير والورود،
فإنه في المقطعات التي سلمت من الضياع يُعبّر في لمحات فريدة وساحرة عن وصف
الرياض والطيور والليل والثريا والخيـل.

ومن جميل وصفه قوله في الليل:
طَرَقَتْني والدجى لبست
خِلَعًا من جلدة الحنشِ
وكـأنَّ النـجم حين بدا
درهمٌ في كفٍّ مُرتعش^(٣)

ولعل من أقوى وصفه تلك الصورة التي وصف بها الخيل عاصفة هوجاء، والدهر
غصنًا يميل به فعل الريح العاصف بالقضيب الطري:
خيل يميلُ الدهرُ عند هبوبها
ميلدَ القضيب بعاصفٍ زعزاعٍ

(٢) المصدر نفسه ص ٩٧.

(٣) المصدر نفسه ص ١١٥- ١١٦.

(٤) نفح الطيب ٧٥/٤.

فكأنَّ خُطْفًا من نتائج أعوجٍ
تنقضُّ من فرسانها بسباع^(١)

وهي تنقض كعقبان الدجون على فريستها:
خيول كعقبان الدجون وكلُّها
لكلِّ صيودٍ في العجاج صيود^(٢)

ومن ساخر وصفه قوله في لحية كثة بأنها تشبه السحابة الكثيفة، وتتصاعد
دعوة المظلوم تحاول اختراقها فترتد عاجزة:
لو أنَّها دون السماء سحابةٌ
لم تخرقها دعوة المظلوم^(٣)

د- اللهو:

إذا كان شاعرنا قد فتح عينيه في جزر البليار، وترعرع في دانية، وملاً سمعه
وبصره وكل حواسه بقرطبة الغراء، وغرناطة الجميلة، وإشبيلية الفاتنة، وطليلة
البديعة، وجال في تلك الطبيعة الأندلسية الندية التي قيل فيها:
«فكلُّ مكان بهـا جنة^(٤)».

وكل أرضها رياض ومنتزهات وقصور، تضج جنباتها بأغاريد الطيور، وتظللها
الأشجار الوارفة، وتدفق من أرضها الينابيع والأنهار، ويعبق الجو بأريج العبير، لا شك
أن أرضاً كهذه سيكون نهارها فرحاً ولياليها أسماراً.

وعشاق الطبيعة الشعراء يغتنمون هذه الفرص، أيما اغتنام، فيلهون، ويتواعدون
للهو بين البساتين الغناء والبرك المزخرفة:

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٨.

(٣) المغرب ١/٤٠٠.

(٤) نفح الطيب ١/١٧٤ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا فُوقَ اغْتِنَامٍ
فَمَهْمَا تَفُوقَتْهُ فَاغْتَنِمَ^(١)

واليابسي يسمع داعي اللهو فيصيح مليباً:
لبيك لبيك داعي اللهو من كُثْبِ
إلى معاطفة الأغصان في الكُثْبِ^(٢)

فإذا دعاه الهوى لبى:
دعاه الهوى من ذي الأراك فلِبَّاهُ
وَعَنَاهُ أَيْكِيَّ الحِمَامِ فَاِبْكَاهُ
وَصَدَّقْ دَعْوَى الشَّوْقِ بَرَهَانُ جِسْمِهِ
وَمَا كُلُّ ذِي دَعْوَى تُصَدِّقُ دَعْوَاهُ^(٣)

وهو يصف لنا مجلس الشرب، فيقول:
وموسدين على الأكفِ روؤسهم
قد غالهم نومُ الصباحِ وغالني
ما زلتُ أسقيهم وأشربُ فضلهم
حتى سكرتُ ونالهم ما نالني^(٤)

وإذا كانت مجالسهم تعقد تحت ظلال الأشجار، تحفهم الزهور والأنهار، وتصدق
المزاهر بالأنغام والألحان، فلا بد من وصف الراح تدار بالراح، فتطير من صرفها
الأرواح، ومن شعره الذي شرق وغرب، فتناقله الأدباء، وأعجب به البلغاء، قوله في
وصف زجاجات الراح:

ثقلت زجاجات أتنا فُرْغَا
حتى إذا ملئتُ بصرف الراحِ

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤١.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٣ وشعره.

(٣) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٢.

(٤) الوافي بالوفيات ٨/٣٢٧.

خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ
وكَذَا الْجَسُومُ تَخَفُّ بِالْأَرْوَاحِ^(١)
والشَّمُولُ فِي رَأْيِهِ تَمِيتُ الْهَمُومَ وَتَحْيِي الْهَمَمَ:
هَمَامٌ لَهُ شَيْمَةٌ كَالشَّمُولِ
تُمِيتُ الْهَمُومَ وَتَحْيِي الْهَمَمَ^(٢)
وَيَصِفُهَا فِي شَكْلِهَا وَأَثَرِهَا:
وَكَأْسٌ كَرَقَرَاقِ الشَّرَابِ كَأَنَّمَا
لَهَا رَعْدَةٌ عِنْدَ الْمَزَاجِ عَقُودُ
هِيَ الْعَيْنُ عَيْنُ الشَّمْسِ تَأْبَى عَلَى الْقَذَى
فَتَنْفِي الْقَذَى عَنْ نَفْسِهَا وَتَذُودُ^(٣)

هـ - الفخر:

يرد غرض الفخر في ثنايا قصيده، ولم نجد له قصائد أو مقطعات تقتصر على هذا الغرض إلا مقطعة واحدة.

والفخر عند اليباسي يتمثل في نقطتين هما: الفخر بالنفس والفخر بالشعر.

والفخر بالنفس يتحدث عن حزمه وقوته ومضائه وشجاعته، فهو يلقي الليالي في شوكرها وقتادها، وهو الذي أيقظ الردى في العدى:

لَقِيتُ اللَّيَالِيَّ فِي شَوْكِهَا
فَبَرَحَ نَحْوِي بِصُمِّ الصَّمَمِ
وَنَبَّهْتُ سَوْقَ الرَّدَى فِي الْعَدَى
فَقَامَتْ وَلَوْ لَا يَدِي لَمْ تَقُمْ^(٤)

(١) فوات الوفيات ١٦٢/١ وشعره.

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٣ وشعره.

(٣) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٩.

(٤) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٢ وشعره.

وهو القادر على اقتناص مهج الأسود، تشهد له الصوارم، بذلك:
فإن لم أردْ ذاك اللمى العذب إنني
على مُهَجِ الْأُسْدِ الْوَرَادِ وَرُودُ
وإن صديتْ شوقًا إليك جوانحي
فصدَّ به من عارضيك صدودُ
فحسبي من شهيدةٍ ماءً صارمٍ
فلولْ ظبَاهُ لي بذاك شهوودُ
إذا سُلِّ في الهيجاءِ وهي دُجْنَةٌ
تألَّقَ فيها للصَّبَّاحِ عموْدُ^(١)

وقد خاض غمار الحياة وحلب أشطر الدهر، وتمرس بالتجارب، علواني الهوى،
يتمتع بصفتين يحبهما الله ورسوله، صفتين إيمانيتين اقتبسهما من القرآن الكريم في
قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾^(٢) فهو
متواضع يخفض جناحه لأحبائه، أما على أعدائه فهو قامع لهم شديد عليهم، تراه
يمشي المخيلة تحت ظلال السيوف، وهو يجلو لنا طرفًا من تجربته، ويظهر لنا قوة
شكيمته، ويطلعنا على خصائص نفسه، في هذه القصيدة، البائية التي يقول منها:

ماذا أقولُ لدُنْيَا لو ظفرتُ بها
أدبْتُهَا غَضْبًا لِلظَرْفِ وَالْأَدَبِ
تجلو الرياسة في تاجِ البهاءِ على
من لا يُفَرِّقُ بين الرأسِ والدُّنْبِ
شجى من أقذية الأيام برح بي
بل بالعوالي وبالهندية القُضْبِ
لكنني علواني الهوى مرسٌ
حلبتُ أشطُرَ دهري أئِمْما حَلَبِ

(١) الذخيرة ق ٣ م ١٣٥٨ وشعره.

(٢) سورة الفتح آية ٢٩.

ألقى الأُحبةً مخفوض الجناح وقد

أختال تحت الرداء العضب ذي الشطْبِ^(١)

وعلى الرغم من هذه الدنيا التي تعطي من لا يستحق، وتثبت التاج فوق رؤوس
خاوية لا تفرق بين الرأس والذنب، إلا أن الشاعر يقر بنعم الله عليه، هذه النعم التي
أثارت حاسديه، وقد صور لنا ذلك بأسلوب أخاذ، وتعبير نفاذ يقول:

إني لأرْحَمُ حاسدي لفرطِ ما

ضمت صدورهم من الأوغارِ

نظروا صنيع الله بي فعيوئهم

في جنةٍ وقلوبهم في نار

لا ذنب لي قد رمت كتم فواضلي

فكأنما برقعنَّها بنهار^(٢)

أما فخره بشعره فيعرض لنا في أثناء قصيدتين من قصائد المدح، فقصيدته
سيارة سياحة، يتناقلها الركبان وتشدو بها الألسن، وهي كالغرر الطالعة والنجوم
اللامعة، وتصديق ذلك يظهر من خلال حكم الملك عليها، وطربه لسماعها:

هشَّت لتسمعها بفضلِكَ فاستمع

سيَّاحةً بثنائك السيَّاحِ

غررا كطالعة الكواكب موهباً

طمحت إلى لُقياك كُلَّ طماحِ

فأنتك جانحةٌ إليك وإنما

وعُلاك تحكُّم لي بفوز قداحي^(٣)

وشعره في رأيه يتفوق على شعر شاعرين كبيرين: أحدهما في العصر الجاهلي
والآخر في العصر العباسي:

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٣.

(٢) شرح مقامات الحريري ١/١٣٧.

(٣) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٤.

وَحُذِّهَا تَجِرُّ إِلَى حَسَنَهَا
أَتَهْجُرُ غَانِيَةً أَمْ تُلِمَّ
لَوْ اعْتَرَضَتْ لَزَهْيِرِ الْبَدِيعِ
سَلَا عَنْ بَدَائِعِهِ فِي هَرَمٍ
وَلَوْ خَطَرَتْ بِحَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ
طَوَى كُلَّ مَا حَاكَ فِي الْمَعْتَصِمِ^(١)

ونتساءل، لماذا اختار هذين الشاعرين: زهير بن أبي سلمى وأبا تمام حبيب بن أوس الطائي؟ ألكونه يهتم بالبديع ويتأنق في الصنعة على طريقتيهما وأسلوبيهما؟ أم لشهرتيهما ومكانتيهما؟ مهما كان، فإن اليابسي يتأنق في شعره، ويجود في صنعه، وهو مع جودة الطبع، وتدفع العاطفة، فنان رسام، ذو موهبة شعرية متأقّة.

و - أغراض أخرى:

إلى جانب هذه الأغراض الرئيسة، فقد اندرجت بعض الأغراض الفرعية في شعره كالهجاء والإخوانيات.

ويبدو لي أنه لم يعتد بالهجاء كغرض أساسي، وإنما كان يرد به على بعض من أسأوا له، فقال يعيب إنساناً:

نَوَالِكَ مِنْ مَخِّ رَأْسِ الظَّلِيمِ
وَعَقْلِكَ مِنْ ذَنْبِ الثَّعْلِبِ
وَحِظُّكَ مِنْ كُلِّ مَعْنَى بَدِيعٍ
كَحِظِّ النُّمَيْرِيِّ مِنْ رَيْنَبِ^(٢)

وذكر ابن بسام تعرض اليابسي لهجاء أبي جعفر بن عباس وزير زهير الصقلبي، على ما ذكره ابن شهيد في قوله: «وذكروا أن إدريس هجاه فأفحش^(٣)».

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٤٣.

(٢) الجذوة ص ١٧٠.

(٣) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٠٧.

أما إخوانياته فنجدها في تلك الدعوات وتلبيتها، كما مر في دعوة الوزير أبي عامر بن مسلمة له ولابن الأبار وإجابة إدريس على بطاقة الدعوة هذه.

التصوير في شعره:

إن الرسم بالكلمات، والقدرة الفائقة، على استجلاب المعاني المخترعة التي تميل إليها القلوب، وجودة التشبيه، والتصوير الأخاذ كل ذلك أعطى شعر الياسي ذلك الرونق والعلوق بالنفس، وتلك الأناقة الفائقة التي تحس بها عند قراءة أشعاره.

وتعال معي لنجول في مرسوم هذا الشاعر الفنان، ولننظر معاً، إلى هذه الصورة، في قوله:

والكأسُ تعرفُ كيف تأخذُ ثارها

إني أملتُ إناءها فأملاني^(١)

إنه تصوير حركي أخاذ، فالشاعر يصور كأس بشخص لا ينام عن تأره، على طريقة الاستعارة المكنية، والحركة تظهر في هذا الصراع الدائر بينه وبينها، فهو يميلها تارة، وتميله أخرى إلى أن تصرعه.

وها هي ذي صورة أخرى:

كأنهم والنورُ يسقطُ فوقهم

مصابيحُ تهوي نحوهُنَّ فراشُ

إن هذه الحركة الخفية الجميلة التي نراها ونلمحها من خلال التشبيه^(٢) حركة رقيقة جميلة، وهي حركة أغصان الشجرة بفعل نسيم الربيع التي تؤدي إلى تساقط الأزاهير والنواوير عشوائياً فوق هذه الأجساد الممتدة تحت الأشجار والتي جعلها الشاعر كالمصابيح المنيرة، وقد استعان الشاعر بالأدوات البلاغية المتعددة، ومما يبهز هو ما أتى به من تشبيه صورة بصورة على طريقة التشبيه التمثيلي، فالفتيان

(١) فوات الوفيات ١/١٦١.

(٢) الوافي بالوفيات ٨/٣٢٨.

الجالسون تحت الدوحة مصابيح مضيئة، والنوار الساقط عليهم كالفراش، ولم يكتف بذلك بل أتى بجناس رائع بين الفرّاش والفرّاش.

وكلما توغلت في شعر اليابسي فإنك تلمح هذه الخاصية المتميزة، حيث التشبيه الأنيق والصورة المشعة، والمعنى غير المتوقع، ففي قوله:
وَأَيْنَ مِنَ الْمُرْتَادِ، أَعْفَرُ مَقْمَرُ
نَفُورُ كَنُومِ الْعَاشِقِينَ شَرُودُ^(١)

فهو يشبه محبوبته في نفورها، كنوم العاشقين، ذلك النوم المتأبّي النفور الشارد، فما إن يواتيه حتى يفارقه:

وانظر إلى هذا التشبيه وتلك الصورة التي كررها الشعراء كثيراً، ألا وهو تشبيه المحبوبة بالشمس، فهل يمضي شاعرنا على نهجهم، ويسير على جادتهم - بتشبيهها بالشمس في علوها وارتفاعها؟ أو في ضوئها وشعاعها؟

لنقرأ هذه الأبيات الثلاثة التي ورد فيها تشبيه محبوبته بالشمس:
سَرَتْ فِي قَمِيصِ الصُّبْحِ وَهُوَ جَسِيدُ
فَأَبْلَتْ قَمِيصَ اللَّيْلِ وَهُوَ جَدِيدُ
وَلَمَّا اسْتَمَدَّ الْأَفْقُ مِنْ نَوْرِ وَجْهِهَا
تَقَاصَرَ بَاعُ اللَّيْلِ وَهُوَ مَدِيدُ
بِشَّمْسٍ يَكَادُ الْوَهْمُ يُدْمِي أَدِيمَهَا
لَهَا اللَّيْلُ تَاجُ وَالنَّجُومُ عَقُودُ^(٢)

لا شك أنك تحس معي بأن هذا التشبيه مختلف المذاق، جديد النكهة، بعيد عن التقليدية فيه من الأناقة ما فيه من الرقة، وفيه من الحيوية ما فيه من الحركة، فهذه الموجات السارية في قميص الصبح أعطته الحياة والحركة، والنشاط والإشراق، وفي

(٢) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٨.

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٨.

جانب آخر مضت تخرق ثوب الليل، وتمزق أستار الظلام على الرغم من جدتها، فانظر إلى هذه الحركة التي تفعل فعلين متضادين، حيث هي تهب في جانب، وتمنع في الجانب الآخر، ثم انظر إلى تلك الإطلالة، وذلك الهروب الذي عبر عنه بتقاصر باع الليل، فها هي ذي تتناول، وها هو ذا يتقاصر، حركة تناول وتقاصر، وإطلال وهروب، وعطاء ومنع.

ومع ما نحسه من قوة المحبوبة وقدرتها، فإن الشاعر يحاول أن يوقف هذا التصور في أفكارنا حتى لا نتابع تصورهما في قوتها فيصيبنا شيء من عدم الرضا، لذا فإنه يجعلنا نمتص جرعة الإعجاب بها، وقبل أن يتحول هذا الإعجاب إلى تساؤل عن مدى هذه القوة والقدرة؟ وما فائدة محبوبة قوية كهذه لحبيبها؟ يحول مسارنا إلى انبهار آخر فهي على الرغم من سطوعها، وإشراقها وقدراتها في تمزيق ثوب الليل، وتناولها عليه، وهروبه منها، فإنها رقيقة ناعمة يكاد خاطر والوهم يدميان جسدها البض.

وما ذلك التشبيه الرائع صورة بصورة إلا تكملة لإطار الصورة العامة، فهي على الرغم من سطوعها كالشمس، إلا أن الليل تاج والنجوم عقود، ومع هذا الوصف المنفرد لمحبوبته فإن الشاعر يرينا في النهاية أن هذا هو رأيه في محبوبته ولكل فرداته.

وتعال معي إلى هذه الصورة الجديدة:

مضوا ونحور النبل من صبغ طعنهم

كما أُشْرِبَتْ ماءَ الحياةِ خدوداً^(١)

فالشاعر لم يكتف بأن جعل للنبل نحوراً على طريقة الاستعارة المكنية، وإنما تحول بها من كونها نبلاً، فصيرها كواعب قد أشربت خدودها بجمرة الشباب.

ولننظر في صورة أخرى مألوفة، وهي غرق إنسان العين في ماء الدمع، فماذا يفعل اليابسي بهذه الصورة المألوفة؟ إنه يجعل إنسان العين شهيداً، به من نزف الجراح من السلاح ما أترع الثياب، حيث يقول:

(٢) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٩.

كأن جفوني فوق عيني من أجلها
ثياب دوام تحتنهن شهيد^(١)

فالجفون التي قرحها الوجد، وأضناها السهر، ثياب مصبوغة بالدماء وقد غطت
هذه الثياب الحمراء إنسان عينه فلم يظهر من خلالها.

وشاعرنا يجمع في أسلوبه دائماً بين السلاسة والجزالة، والرقّة والشدة، وصوره
تمتاز بالجمع بين الدلال والحزم، والإقبال والعزم، فهو يرق ويعنف دون أن تهتز
الصورة أو تتناقض.

وها هو ذا يستعير جدائل الحسان لأعراف الخيل، يقول:
لها من ذؤابات الحسان مقاوّد
ومن لبـد الأسد الوراء لبوّد^(٢)

ما أجمل هذه الأعراف التي تتطاير مع الرياح في شدة كره هذه الخيول، فعلى
الرغم من أن الصورة في الأصل حربية، إلا أنه ينقلنا إلى صورة أخرى، صورة
العداوى يتسابقن والنسيم العليل يداعب شعورهن، ما أجملها من صورة! وما أروع
هذا النقل في التصوير!

ولو سمع عبدالله بن مروان بهذا البيت لقرنه بجودة مناديل عبدة بن الطبيب^(٣).

ومن جميل معانيه وصوره قوله:
لولا اضطرام البأس فيك لدى الوغى
لاخضّر في يدك الوشيح الذابل^(٤)

(١) المصدر نفسه ق ٣ م ١ ص ٣٥٨.

(٢) المصدر السابق ق ٣ م ١ ص ٣٥٩.

(٣) سأل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أصحابه: أي المناديل أفضل؟ فاختلفوا هل هي مناديل مصر أم اليمن،
فقال: أفضل المناديل مناديل عبدة بن الطبيب حيث جعل أعراف الخيل مناديل في قوله:

ثم قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

انظر العقد الفريد ١١٣/١.

(٤) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٥٧.

إنه ذلك الجمع بين النار والماء، بين القوة والكرم، بين العزم واللين، بين الشدة والرحمة. ومع تفرّد اليابسي، في كثير من معانيه وصوره بابتكارات وإضافات، فإننا نقول إن الخلط بين معاني الحب والحرب، والمزج بين الحب والطبيعة، والحرب والطبيعة، من خصائص الشعر الأندلسي العامة، ومع ذلك يبقى اليابسي نهراً متفرد المجرى عذب الورد، وإن صب في النهاية في مصب بحر الشعر الأندلسي.

شعره ومكانته:

إن شاعراً يقول فيه الحميدي: «شاعر جليل عالم ينتجع الملوك فينفق عليهم... وشعره كثير مجموع، ولم يكن بعد ابن دراج من يجري عندهم مجراه^(١)» لشاعر كبير، فهو يجمع إلى موهبة الشعر الفخامة والعلم، والمكانة الرفيعة العالية التي تجعله ينفق على الملوك بضاعتهم، وتكسد بضاعة الشعراء الآخرين، ثم يبين لنا أنه من الشعراء المكثرين، الذين جمع شعرهم وتداوله الناس، وأخيراً يقرنه بشاعر الأندلس الكبير ابن دراج القسطلي^(٢)، ذلك الشاعر الفحل الذي امتاز بغزارة الشعر مع نضج ثقافي، إلى جانب قدراته المتميزة في التحليل، المعنوي والوصف النفسي، وقد قيل في ابن دراج: «لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد، وقال مرة أخرى، لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأن حبيب والمنتبي^(٣)»، فإذا كان هذا شأن ابن دراج فإن مقارنة اليابسي به تدل على هذه المكانة العظيمة التي حازها شاعرنا.

ويذكر ابن بسام مكانة اليابسي بكثير من التقدير حيث يقول: «انبعث انبعاث السيل، وأدرك إدراك الليل، حتى تضاءلت له الهضاب عن قدره، وماجت الأرض ببحره وصار شعره سمر النادي، وتعلت الحادي، وتمثل الحاضر والبادي، وطفق يتردد على

(١) الجذوة ص ١٧٠.

(٢) هو أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي من كبار شعراء الدولة العامية في الأندلس، ولد سنة ٣٤٧هـ وتوفي سنة ٤٢١هـ. انظر ترجمته في الجذوة رقم ١٨٦ والرايات ١٠٤ والذخيرة ق ١ م ٤٣ ص ٦٠/٢.

(٣) المصدر نفسه.

ملوك الطوائف بالأندلس تردد الكأس على الشرب، ويجري في أهوائهم جري الماء في الغصن الرطب، وكان كلما قال قصيدة لم يضرب عليها حجابًا، ولا ضمنها كتابًا، حتى يأخذ بها مائة دينار، وقد سألته عباد في بعض رحله إليه، على كثرة بوائقه، وشكاسة أخلاقه، أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها آل حمود، فقال له: إشارتي مفهومة، وبنات صدري كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها، فقد عرف مهرها، وقد أخرجت من أشعاره، ما يشهد بسمو مقداره، ويعرب عن غرائب أخباره^(١).

ومن خلال هذا النص النقدي نستطيع أن نؤكد على تلك الحقائق التي ذكرناها آنفًا وتميز بها الشاعر، منها غزارة شعره، وسمو مقداره، وسيرورة معانيه المتداولة بين العامة والخاصة، ثم تلك الملحوظة الخاصة بقصيدته السينية التي قالها في آل حمود والتي يطالب المعتضد بن عباد بقصيدة يمدح فيها تكون على غرارها، فأين هذه القصيدة الرائعة التي يعجب بها ذلك الملك؟ لم نعثر عليها في مصادر ترجمته على الرغم من مكانتها، وهذه الملحوظة مع ملحوظة الحميدي عن شعره الكثير، تبين كم جار الزمان على شعر اليايسي، فأيبس غصنه الرطب.

ويعد ابن سعيد من أشهر شعراء الأندلس، ويذكر أنه طائر بجناح الاشتهار^(٢).

ويقول ابن سعيد: «أبدع شعره قوله:

ثقلت زجاجات أتنا فرغًا

حتى إذا ملئت بصرف الراح

خفت فكادت أن تطير بما حوت

وكذا الجسوم تخف بالأرواح»^(٣)

ويرى المقرئ أن هذين البيتين من مشهور شعره بالمغرب والمشرق^(٤).

(١) الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٣٣٧.

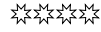
(٢) انظر الرايات ١٢٦ والمغرب ١/٤٠٠.

(٣) المغرب ١/٤٠٠.

(٤) نفح الطيب ٧٥/٤.

واستحسن الحميدي قوله في صفة الدرق:
إلى موقحة الأبخار من درقٍ
يكاد منها صفا الفولاذ ينفطرُ
مؤنثاتٍ ولكن كَلِّما قرعت
تأنت الرُّمَحُ والصمصامةُ الذكرُ^(١)

واستحسن له أبو عامر بن شهيد في التشبيه قوله:
فكأنَّ كلَّ كمّامةٍ من حولهم
خَلِبُ وكلُّ شقيقةٍ تامور^(٢)



(١) الجذوة ص ١٧٠ والدرق: ضرب من الترسة تتخذ من الجلود.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٠ والخلب بكسر الخاء الطُّفَر وحجاب بين القلب [وسواد البطن] [والخَلْب] بضم الخاء لب النخل، والتامور: البريق، ودم القلب.

٢ - ابن العطار اليايسي(*)

اسمه ونسبه:

هو أبو بكر محمد بن العطار اليايسي شاعر مرموق أوجزت بعض كتب التراجم الأندلسية في الحديث عنه، ولم تحدد هذه المصادر الفترة التي عاشها، فلم تذكر متى ولد؟ ومتى توفي؟ ولكن إشارة ابن بسام في ترجمته إلى أنه كان من جملة من لقيه وأنشده شعره^(١) تجعلنا نستطيع تقدير هذه الفترة، وخصوصاً أن شعره جله في مدح المعتمد بن عباد، بالإضافة إلى ما ورد في المغرب من أنه كان في مدة ملوك الطوائف^(٢)، فهو إذن من شعراء المعتمد، وإذا كان المعتمد قد حكم من سنة ٤٦١هـ - ٤٨٤هـ حيث تمكنت قوات المرابطين من اقتحام إشبيلية وأسر المعتمد، وإذا كان هذا الشاعر يدل على تمكن في الصنعة، واقتدار في السبك، وإصابة الغرض، بحسن أداء، وجودة تشبيه، وسلامة عبارة، فإنه يكون قد استوى على عود الشعر في هذه الفترة، ولا شك أن ابن بسام لقيه بعد وفاة المعتمد، وابن بسام متوفى عام (٥٤٢هـ) بالتقدير نستطيع القول: إن ولادته كانت في حدود بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وعاش حتى نهاية الثلث الأول من القرن السادس الهجري.

وإذا لم تسعفنا هذه المصادر بأي إضاءة عن حياة هذا الشاعر وتنقلاته، فإن ابن بسام يعبه من الطارئ على جزيرة الأندلس، إذ ترجم له في القسم الرابع الخاص بمن جاءوا إلى الأندلس، فقال: «ويابسة من الجزائر الشرقية وهي من الأندلس في سمت دانية، وهو من جملة من لقيته وأنشدني شعره، ولم أحفظ منه عند تحريري هذه النسخة إلا أبياتاً من قصيدة في المعتمد أولها:

(*) انظر ترجمته في الذخيرة ٣٧٦/١/٤ والمغرب ٤٧٠/٢ ونفع الطيب ١٠/٤ والمسالك ١١/ق ٤٥٨.

(١) انظر الذخيرة ٢٧٦/١/٤.

(٢) انظر الذخيرة ٤٧٠/٢.

بجدّ عزمك نصّلتَ القنا السُّلْبَا
قَدَمًا وَأَجَّجْتَ فِي مَاءِ الطُّبَا لَهَا^(١)

أغراض شعره:

وشعر ابن العطار اليايسي يندرج في موضوعات ثلاثة: «المدح، والوصف، والجهاد».
أما المدح فلم نجد له قصائد في غير المعتمد وجلها نبض بصدق العاطفة وروعة
التصوير، من ذلك قوله:

يَا حَبُّذَا شُهْبُ الذَّوَابِلِ مَا اعْتَلَى
مِنْ نَوْرِ وَجْهِكَ فَوَقَّهَا لِأَلَاءِ

إلى أن يقول:

هِيَ هَاتِ يُعْجِزُهُ الْعَدُوُّ لَوْ أَنَّهُ
فَوْقَ الْيَفَاعِ فَرِيدَةٌ عَصْمَاءُ^(٢)
وَإِذَا أَقَامَ عَلَى الرِّضَا فِي بِلَدٍ
رُبَّ النَّبَاتِ بِهَا وَمَا جَ الْمَاءِ

فهذه الأرض تهتز، ويربو النبات فيها، ويموج الماء، وتزغرد الخضرة، وكأن
الأرض تشارك الناس فرحهم بقاء هذا القائد، وفي المعتمد يقول:
فَالْأَرْضُ تَقْلُقُ مِنْ جَيْشٍ قَفَلَتْ بِهِ
وَالْجَوُّ يَعْتَرُّ فِيهِ مِنْ قَنَّا وَظُبَا
جَيْشٌ إِذَا مَا قَتَامُ النَّقْعِ جَلَلُهُ
كَانَتْ سَيُوفُكَ نَارًا وَالْعَدَا حَطْبَا

فهذه الأرض تميد بهذا الجيش الجرار، وهذه السماء تتشاجر فيها الرماح
وتتشابك، وهذه السيوف تتلظى في أيدي جنوده وتستعر، إنها نار تتوقد، والأعداء
حطبها، وروعة البيان والتشبيه تتجلى في ذلك القمر الذي تحرسه شهب الأسنة:

(١) الذخيرة ٣٧٦/١/٤.

(٢) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

لَأَنْتَ بَدْرُ سَمَاءِ الْمُلْكِ تَحْرُسُهُ
شَهْبُ الْأَسْنَةِ عَنْ إِصْغَاءِ مُسْتَرْقٍ^(١)

والوصف يختلط بغرض المدح، والقارئ لشعره يحس بقدرة الشاعر الوصفية التي لا تكتفي بالشكل الظاهري من مشبه به، أو ذكر ما يتضح للعيان، وما هو معروف بالمشاهدة، وسمع قوله في وصف السيوف حيث يقول:

والببيضُ سافرةُ الوجوه كأنما
لخدودهنَّ من اللقاء حياءُ
تشدو بهام المشركين فيعتري
أذن الهدى لغنائها إصغاء^(٢)

لقد سمعنا صليل السيوف وضربها الجماجم، وقرأنا التشبيهات الكثيرة في ذلك، ولكننا لم نسمعها تغني فتطرب أذن الإسلام، وتصدع رأس الكفر في غير شعر ابن العطار اليابسي.

والخيول عنده بحور، وأي بحور هي؟؟
هي البحورُ ولكن في كواثبها
عند الكريهة منجاةٌ من الغرقِ
إذا تسعرت الهيجاءُ أخمدها
ما في معاطفها من ندوة العرق^(٣)

والجيش بحر أيضا:
والجيشُ مضطربُ البنود كأنه
تحت العواصف لجأة خضراء^(٤)

(١) المصدر السابق ٣٧٨/١/٤.

(٢) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

(٣) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

(٤) المصدر نفسه ٣٧٩/١/٤.

والسيف الصقيل لم يكتف بجمع الماء واللهب بين صفحتيه، وإنما هو جدول
رقراق، هبت عليه الصبا فأبانت حده من إفرنده، وينتقل إلى مرحلة أعلى من الوصف
والتشبيه فقد جعل لليالي الغراء، وهي ليالي النصر والفتح فمأ يفتر عن سمرة حديد
السيف، يعلوه بياض الحد القاطع:

واجلُ الظلام بوقادِ الفرندِ كأنْ
في صفحتيه جمعت الماء واللهبا
يروقُ مضطرباً ماءُ الصقال به
كأنَّه جدولٌ هبَّتْ عليه صبا
تفترُّ منه الليالي الغرُّ عن لعسٍ
تخالُ إفرندهُ من فوقه شنباً^(١)

أما الجهاد والدعوة إليه فيظهر من خلال هذين الغرضين واضحاً عند شاعرنا،
كيف لا وهو يرى العدو يعيث ببلاده فساداً؟؟ كيف لا وهو يرى تجمع الأعداء للقضاء
على الإسلام في معركة الزلافة المشهورة؟ من هنا ينطلق الشاعر مدافعاً عن دينه
وكيانه ووجوده، فيصرخ بكل قواه وعاطفته:

فدُسْ - فُديتْ - بخيل الله أنديء
للشُّركِ تصطلمُ الأوثان والصُّلُبا
واجلُ الظلام بوقادِ الفرندِ كأنْ
في صفحتيه جمعت الماء واللهبا
ولا تردُّ حديد الهند ذا وضح
حتى يرى بنجيع الكُفر مُختضباً^(٢)

ويظهر ذلك النغم الإسلامي والتوجه الإيماني من خلال هذه القصيدة المدحية في
المعتمد، حيث يقول:

(١) المصدر السابق ٣٧٧/١/٤.

(٢) المصدر نفسه ٣٧٧/١/٤.

والبيضُ سافرةُ الوجوهِ كأنما
لخدودهنَّ من اللقاءِ حياءُ
تشدو بهامِ المشركين فيعتري
أذنَ الهدى لغنائها إصغاءُ
والجيشُ مضطربُ البنودِ كأنه
تحت العواصفِ لجأُ خضراءُ
ثابرت في طلبِ العدوِّ مغاوراً
حتى اشتكى التأويبُ والإسراءُ
فصدت والاسلامُ فوق جبينه
وضحُ تضاعلَ عن سناه ذكاءُ
والكُفْرُ مُنْحَطِمُ الفقارِ بعُنقه
خَضَعُ وفي أجفانه إغضاءُ

وتتبدى في هذه القطعة أغراضه الثلاثة، فمدح المعتمد بقوة جيشه ومثابرتة في طلب العدو، ثم هذا النفس الإسلامي القوي، ثم هذا التصوير الجميل والوصف الرائع بتشخيص المعنوي فالإسلام وجهه يشرق بنور ساطع تتستر الشمس حياء منه.

والكفر يجر أذيال الخيبة، منحطم الفقار، خاضعاً ذليلاً منكس الرأس وأجفانه تغفي على الذل.

نكتفي بهذا القدر المتميز من شعر هذا الشاعر، ولعلنا قد استكملنا بعض جوانب القوة في شعره عند حديثنا عن أغراض الشعر في جزر البليار، وحتى لا يتكرر ما ورد هناك اقتطعت بعض أشعاره لورودها في موضعها في الأغراض.



٣ - ابن طُنيز الميورقي (*)

هو أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدالعزيز بن طُنيز الأنصاري الميورقي، ولد في ميورقة ولما شب رحل في طلب العلم إلى الشام والعراق، وجلس للإقراء والتعليم في عمان وبلاد الزنج، قال ياقوت في ترجمته «قدم دمشق، وسمع بها، وحكى عن أبي محمد بن عبدالبر النميري، وأبي الحسن علي بن عبدالغني القيرواني وغيرهم، روى عنه عبدالعزيز الكناني وهو من شيوخه، وأبو بكر الخطيب، وهبة الله بن عبدالوارث الشيرازي، وعمر بن عبدالكريم الدهستاني، وأبو محمد بن الأكفاني، وقال: إنه ثقة.

وكان عالماً باللغة، وسافر من دمشق في آخر سنة ٤٦٣هـ «متوجهاً إلى بغداد ومنها إلى البصرة حيث وصلها سنة ٤٦٩هـ فسمع من أبي علي التستري كتاب السُّنن، وأقام عنده نحواً من سنتين، ثم خرج إلى عمان بعد ذلك، وممر على مكة حاجاً عام ٤٧٣هـ ثم عاد إلى البصرة وتوفي بها أو ببغداد سنة ٤٧٧هـ وبعدها بسطور يقول: «ثم إنه مات من وقته، وذلك في سنة ٤٧٤هـ، والقفطي يذكر الرواية الأولى عن موته.

أما بروكلمان^(١) فيذكر أنه توفي في كاظمة من ضواحي بغداد سنة ٤٧٥هـ - ١٠٩٢ نقلاً عن ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد.

(*) انظر ترجمته في معجم البلدان ٢٤٧/٥ وبغية الوعاة ٣٢٧ وذيل تاريخ بغداد ٨٠/١٧ إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٣٠/٢ وتاج العروس ٨٤/٤ وتاريخ ابن عساكر ٤٣٣/٢٨ وتلخيص ابن مکتوم ١٢٦ و(طُنيز) كَرْنِيَر هكذا ضبطه صاحب تاج العروس ونقل عن ابن النجار أنه «طنز» بالطاء وتشديد النون والراء وفي معجم البلدان «طير». (١) تاريخ الأدب العربي ١٢٣/٥.

فهو عالم باللغة والنحو عارف بعلوم القرآن والحديث وهو في الوقت نفسه شاعر،
فكل من ترجم له ذكر أنه شاعر، ولكنهم جميعاً أوردوا له مقطعة واحدة هي قوله:

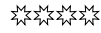
وسائلةٍ لتعرفَ كيفَ حالي

فقلتُ لها بحالٍ لا تسرُّ

دُفِعتُ إلى زمانٍ ليس فيه

إذا فتشتُ عن أهليه - حُرٌّ^(١)

وذكر بروكلمان أن له أشعاراً مخطوطة في الأسكوريال^(٢) وذكر صاحب معجم
المؤلفين أن من آثاره مجموعة شعر^(٣).



(١) معجم الأدباء ٢٤٧/٥ وإنباه الرواة ٢٣٠/٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٢٣/٥.

(٣) معجم المؤلفين ١٩/٧.

٤ - الحميدي الميورقي^(١)

هو محمد بن فتوح بن عبدالله بن فتوح بن حميد بن يصل، أبو عبدالله بن أبي نصر الحميدي الميورقي، الحافظ المؤرخ الأديب الشاعر، ولد بميوقرة قبل ٤٣٠هـ وتلقى العلم في الأندلس على كبار علمائها: كابن عبدالبر النمري القرطبي وابن حزم الظاهري، وسمع بمصر ودمشق وبغداد واستوطن أخيراً ببغداد، وكتب بها الكثير، وروى عنه ابن الخطيب وابن ماكولا.

له العديد من المصنفات في مختلف التخصصات في الفقه والحديث والتاريخ والتراجم والأدب والشعر، ومن مصنفاته المذكورة: «تجريد الصحيحين للبخاري ومسلم والجمع بينهما»، و«تاريخ الأندلس» و«جذوة المقتبس» و«تسهيل السبيل إلى علم الترسيل» و«الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، و«ترسل مخاطبات الأصدقاء»، و«أدب الأصدقاء» و«كتاب تحية المشتاق في ذكر صوفية العراق»، و«المؤتلف والمختلف»، و«وفيات الشيوخ» و«المتشاكه في أسماء الفواكه»، و«نوادير الشعر» و«تفسير غريب ما جاء في الصحيحين»، و«التذكرة» و«بلغة المستعجل أو تاريخ الاسلام» و«ديوان شعره».

وإذا كانت اتجاهات الحميدي تظهر من خلال هذه المؤلفات فإن الشعر كان من هذه الاتجاهات التي ظهرت لديه، فقد ذكر ابن شاعر وابن الدمياطي أن له ديوان شعر، وذكر ذلك الذهبي والصفدي.

وشعره الذي ورد في مصادر ترجمته يتجه اتجاهاً دينياً خلقياً تهذيبياً، فيه من الزهد ما فيه من الجد والعفة، وهو أميل إلى شعر الفقهاء والزهاد، من ذلك قوله:

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢٨٢/٤ - ٢٨٤ ومعجم الأدباء ٢٨٢/١٨ - ٢٨٦ والوفاء بالوفيات ٢١٧/٤ - ٣١٨ والبغية رقم ٢٥٧ والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٣٤/١٨ - ٣٦ والأعلام ٣٢٧/٦.

كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلِي
وَمَا صَحَّتْ بِهِ الْأَثَارُ دِينِي
وَمَا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَيْهِ بَدَأُ
وَعُودًا فَهُوَ عَنْ حَقِّ مُبِينٍ
فَدَعُ مَا صَدَّ عَنْ هَذَا وَهَذَا
تَكُنْ فِيهِ عَلَى عَيْنِ الْيَقِينِ^(١)

ويقول زاهدًا في لقاء الناس:
لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا
سِوَى الْهَذْيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالَ
فَأَقْلَلْ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا
لِأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ لِصَلَاحِ حَالِ^(٢)

وبعد طول تجوال، ماذا قال؟:
أَلْفَتُ النَّوَى حَتَّى أَنْسَتُ بَوَحْشَتِي
وَصِرْتُ بِهَا لَا بِالصَّبَابَةِ مُولَعًا
فَلَمْ أُحْصِ كَمْ رَافَقْتُ فِيهَا مِرَافِقًا
وَلَمْ أُحْصِ كَمْ يَمُمْتُ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعًا
وَمِنْ بَعْدِ جُوبِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
فَلَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أُوَافِيَ مَصْرَعًا^(٣)

ويدعو أن يعيش الإنسان للعلم فبه يحيا ويظل يذكر بعد الفناء:
مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعِلْمِ عِنْدَ فَنَائِهِ
أَرْجُ فَإِنَّ بَقَاءَهُ كَفَنَائِهِ

(١) معجم الأدباء ٢٨٥/١٨.

(٢) الوافي بالوفيات ٣١٨/٤.

(٣) معجم الأدباء ٢٨٦/١٨.

بالعلم يحيا المرء طول حياته

وإذا انقضى أحياءُ حُسْنُ ثنائه^(١)

وقد شهد جميع من ترجم له بالتقوى والصلاح، فقال ياقوت: «لم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم^(٢)» وتوفي في بغداد عام ٤٨٨هـ.

(١) الوافي بالوفيات ٣١٨/٤.

(٢) معجم الأدباء ٢٨٣/١٨.

٥ - عياش بن حوافر^(*)

هو أبو الحيا، أو أبو المحجي عياش بن حوافر، ولد في حدود (٥٩٠هـ) من عرب ميورقة، شاعر هجاء، قال عنه ابن الأبار: «كان أخبثهم لساناً وأكثرهم افتتاًناً^(١)» وأورد له من هجائه قوله:

ما في بني طلحةٍ من يُرتجى لندى
ولا يُخافُ لبأسٍ منهم أحدٌ
هجوتهم حين عافَ الناسُ هجوهم
فلي عليهم بتنويه الهجاء يد^(٢)

وقوله أيضاً:

بنو يَفْعُولَ إن كانوا قضاةً
فقد رأوا الحرامَ لهم حلالاً
إذا أعطوا رشاً كانوا خفافاً
وإن سئلوا الندى صاروا ثقالاً^(٣)

وله من النسيب المعجب ذلك المزج الرائع بين الغزل والحرب في قوله:

بين القلوب وبين الأغنياء النُّجُلُ
حَرْبٌ تُشَبُّ بغير البيض والأسل

(*) انظر ترجمته في تحفة القادم ٢٤٦ والمقتضب ١٥٤ وبغية الوعاة ٢/٢٣٩ وانظر الوافي.

(١) تحفة القادم ٢٤٦.

(٢) المصدر نفسه ٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه ٢٤٧.

أَمَّا الْمَلَأُ فَحَدَّثَ عَنْ مَلَامِحِهِمْ
فِي الْعَاشِقِينَ وَعَنْ صِقَّيْنِ لَا تَسْلُ
مَنْ كُلِّ أَحْوَرَ قَدْ أَرَدَتْ لَوَاحِظُهُ
عَلَى غَرَارَتِهِ مِنْ فَارِسٍ بَطْلٍ
عَنُّوا لَنَا بِرِمَاحٍ مِنْ قَدُودِهِمْ
وَأَنْجَدُوهَا بِأَسْيَافٍ مِنَ الْمُقْلِ
وَابْنُ الْأَمِيرِ أَمِيرٌ فِي كِتَائِبِهِ
يَغْزُو الْقُلُوبَ بِأَفْرَاسٍ مِنَ الْغَزْلِ

ومن جميل شعره قوله^(١):

يَا رَبَّ لَيْلٍ قَدْ تَعَاطَيْنَا بِهِ
كَأْسَ السُّهَادِ نَعْلُ مِنْهُ وَنَنْهَلُ
وَكَأَنَّمَا أَفَقُ السَّمَاءِ خَمِيلَةٌ
وَالزَّهْرُ زَهْرٌ وَالْمَجْرَّةُ جَدُولُ

وأخبر عنه ابن مسدي قال: كان عارفًا بكتاب سيبويه، رأيته بشاطبة ثم ببلاد
شتى ويبدو أنه تنقل في بلاد الأندلس.



(١) بغية الوعاة ٢/٢٣٩ وهامش تحفة القادم ص ٢٤٦.

٦ - ابن عبد الولي الميورقي^(*)

لم تفد الترجمتان اللتان وردتا لابن عبد الولي الميورقي في إمطة اللثام عن وجه هذا الشاعر، فابن سعيد أورد له في كتاب «الغبقة في حلى جزيرة ميورقة» خبراً في سطر واحد وثلاثة أبيات من الشعر، وفي ذلك قوله:

هل أمانٌ من لحظكِ الفُتَّانِ
وقوامٍ يَمِيسُ كالخيزرانِ
مُهَجَّتِي مِنْكَ فِي جَحِيمٍ وَلَكِ
نَجَفُونِي قَدْ مُتَّعَتْ فِي جِنَانِ
فَتَنَّنَتْنِي لَوَاحِظُ سَاحِرَاتِ
لَسْتُ أَخْشَى مِنْ فِتْنَةِ السُّلْطَانِ

ومن هذا الخبر نعلم كم ضاع من شعر هذا الشاعر ومن شعر جزر البليار، ونعلم أن غرض الموشحات قد انتقل إلى هذه الجزر، ولكن هذا العلم لا يفيدنا سوى حسرة تضطرم في الفؤاد على ما فقدناه من هذه الآداب.

أما الترجمة الأخرى التي أوردتها المقرئ فلم تتجاوز الترجمة السابقة: إذ أنشد له الأبيات الثلاثة نفسها، وقال في مقدمتها: «وكان بميورقة جماعة أعلام وشعراء، ومن شعر ابن عبد الولي الميورقي.....» ثم يورد الأبيات.

وهذا الخبر الذي أوردته المقرئ يؤكد المقولة السابقة بضيا ع الكثير والكثير من شعرنا ونثرنا في تلك البقاع فأين هم جماعة الأعلام والشعراء الميورقيين؟



(١) انظر ترجمته في المغرب ٤٦٨/٢ ونفح الطيب ٤٧١/٤.

٧ - ابن عشير اليابسي (*)

هو أبو محمد عبدالله بن الحسن بن عشير اليابسي. من جزيرة يابسة، شاعر نحوي، ذكر القفطي أنه «قرأ بالأندلس على أبي الحسين بن محمد بن طراوة السبائي المالقي النحوي بالأندلس، وقال: لم أر مثله، وكان يعظمه جداً ورحل إلى الشرق وتصدر للإفادة بجامع الإسكندرية لإقراء القرآن والنحو، وكان له شعر كثير.

دفن بمقبرة باب البحر بالإسكندرية، ووصى بأن يصلي عليه أبو طاهر السلفي فلم يمكنه ذلك لوجل ومطر كان في ذلك اليوم^(١) وذكر ياقوت وفاته فقال: «مات ليلة السبت في العشرين من محرم سنة ٦٢٥ هـ^(٢)».



(*) انظر ترجمته في بغية الوعاة ٣٨/٢ ومعجم البلدان ٤٢٤/٥ وإنباه الرواة ١١٥/٢.

(١) إنباه الرواة ١١٥/٢.

(٢) معجم البلدان ٤٢٤/٥.

٨ - محمد بن إبراهيم العبدري الميورقي

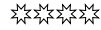
أورد ترجمته ابن الشعار الموصلي في كتابه المخطوط الموسوم بـ«عقود الجمان في شعراء هذا الزمان»، في المجلد السابع، فقال: «محمد بن إبراهيم بن أمية بن خلف أبو عبدالله العبدري، من أهل ميورقة من بلاد الأندلس، شاب أشقر قصير، من حفاظ القرآن العزيز.

زعم أنه درس صدرًا من علم العربية، وأتقنه في حلب واستوطنها يسترزق من الوراقاة والنسخ، وذكر أنه ولد سنة عشر وستمائة ويقول الشعر، أنشدني لنفسه بحلب في سنة أربعين وستمائة:

عج بالكئيب المستهام وسِرْ به
متيممًا نحو العقيق وسِرْ به
وانشد فؤادًا ضلَّ فيه وقل لهم
ليس المتيمم أمينًا في سِرْ به
واسفح بسفح الأبرقين وتربه
سحبَ الدموع على تشئتْ تربه
فلعلَّه يقضي لبانة نفسه
من قبل أن يقضي لمُرغم حِبِّه
يا مُدْنَقًا عبث السقام بجسمه
ومتيممًا لعب الهيام بلبه
وطوى السرور لبينهم يوم الندى
طيَّ الأديب اللوزعيَّ لكُتْبِ به

وله أيضاً:

وهل يستطيع الواله الصَّبُّ سلوةً
وقد بان من معموله ثُمَّ ودَّعا
وأودعها بين الجوانح جذوةً
فضرَّمها داعي التَّفَرُّقِ إذ دعا
وقلقل أحشاء المُتيم لوعةً
فأصبح مذعور الفؤاد مفرَّعا
يهيم إلى ندِّ العذيبِ إذا سرى
نسيمٌ عليلٌ منهم فتَضوَّعا
تمازجه أنفاسهم فكأنَّما
تحمل مسكاً إذ فرَّ فيه مُودَّعا^(١)



(١) - ج ٧/ق ١١٤ أ.

٩ - العماري الميورقي

هو محمد بن عمر العماري الميورقي، ولم أجد له ترجمة تعين على التعرف على هذا الشاعر، سوى أنه من شعراء القرن السابع الهجري، وقد ذكره ابن الشعار الموصلي في كتابه المخطوط، عقود الجمان، ولم يعرف به تعريفاً كاملاً، وأورد له قصيدة مدحية في مدح المؤيد، يبدوها متغزلاً فيقول:

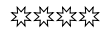
هَلْ لَأَقَامَ مِنْ مَوْعِدٍ
بِأَغْيَدِ الْمُقَادِرِ
أَمَّا تَرَانِي فِي هَوَاكَ
فِي الْمُقِيمِ الْمُقْعَدِ

وقد جمعت نفرة الطيبي وبطش الأسد.

ثم ينتقل إلى المدح فيقول:

وَلَيْسَ لِي مِنْكَ حَمِي إِلَّا حَمِي الْمُؤَيَّدِ
فَقَالَ لِي لِزَامَنَا وَابْشُرْ بَنِيْلِ الْمُقْصَدِ
إِنَّ الْمُؤَيَّدَ الَّذِي اسْتَنْجَدْتَ خَيْرُ مَنْجَدِ
أَشْهَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي مَكَارِمٍ وَسُؤْدِ
أَقْدَمُهُمْ فِي شَرَفِ الْأَصْلِ وَطَيْبِ الْمُحْتَدِ
أَطْوَلُهُمْ يَدًا نَدَى أَصْوَلُهُمْ فِي مَشْهَدِ

أَعَزُّهُمْ جَارًا وَأَوْفَاهُمْ بِحَسَنِ مَوْعِدٍ
أَمَّا سَمِعْتَ فَضْلَهُ يَرَوِي بِكُلِّ بَلَدٍ
وَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ بَحْرِ عُلُومٍ مُزْبَدٍ
أَمَّا سَمِعْتَ مَدْحَهُ فِي فَمِ كُلِّ مُنْشَدٍ
هُوَ الْكَبِيرُ قَدْرُهُ فِي صُورَةِ الْمُقْتَصِدِ
كَمْ مِنْ يَدٍ لَهُ عَلَى هَذَا الْوَرَى كَمْ مِنْ يَدٍ
دَامَتْ لَهُ النِّعْمَةُ وَالسَّعْدُ دَوَامَ الْأَبَدِ^(١)



(١) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان: لابن الشعار مخطوط ح ٦ ص ٧٢

١٠ - يحيى بن غانية^(١)

الأمير أبو زكريا الميورقي صاحب ميورقة، ذكر ابن الشعر في ترجمته المختصرة قال:
«كان مشهوراً بالبأس والشجاعة بطلاً من الأبطال، مقدماً في الحروب جواداً سخياً، أديباً
بليغاً، شاعراً فصيحاً، لم يقع إلي من شعره غير بيت مفرد من قصيدة، وهو:

حَفِيَّتْ خَيْلُنَا وَعَزُّ عَلَيْنَا

فَجَعَلْنَا لَهَا الْخُدُودَ نَعَالاً^(٢)

ويحيى هذا شغل الموحدين فترة من الزمن، وأقضى مضاجعهم، واستولى على كثير
من ديارهم ومراكزهم، مثل: بجاية وقفصة وتونس، وذكر المراكشي أنه: «استقل
بأفريقيا فترة، ولما كانت سنة ٦٠١ هـ تجهز أمير المؤمنين أبو عبدالله في جيوش
عظيمة، وقصد بلاد أفريقيا، وقد كان الميورقي يحيى بن غانية قد استولى عليها، هياً له
ذلك غفلة الموحدين عنه، واشتغال أمير المؤمنين أبي يوسف بغزوه الروم بالأندلس»^(٣)،
وقد استطاع الناصر أبو عبدالله بن المنصور أبي يوسف أن يهزم يحيى في معركة
ضخمة، فكانت نهاية بني غانية في سنة ٦٠٦ هـ^(٤) وعمل في خدمة يحيى بن إسحاق

(١) انظر ترجمته في المعجب ١٧٩، الغصون الياضنة ٩٠ وابن خلدون ١٩٥/٦ والإحاطة ٣١١/١-٣١٢ والاستقصاء
١٦٣/١ وعقود الجمان ٩/٩، والبيان المغرب ٢١٤/٣ وتحفة القادس ١٠٢ وعصر المرابطين والموحدين ٢٥١/٢
والأعلام ١٣٧/٨.

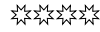
(٢) عقود الجمان ج ٩/٩.

(٣) المعجب ٢٧٥.

(٤) انظر الإحاطة ٣١١/١.

ابن غانية مجموعة ضخمة من الأدباء، والشعراء نذكر منهم على سبيل المثال: أبا محمد عبد البر ابن فرسان^(١)، وأبا عبدالله محمد بن عبد الملك^(٢) ومالك بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد^(٣)، وأبا العلاء عبد الحق بن خلف بن مفرج بن الجنان^(٤)، وأبا بكر محمد بن عيسى ابن عبد الملك بن عيسى بن قزمان الأصغر^(٥) والفقيه الكاتب أبا بكر محمد بن يحيى الشلطيش المعروف بابن القابلة^(٦) وغيرهم كثير.

ولولا أن بني غانية ويحيى هذا قد خرجوا إلى أفريقيا وانشغلوا بها، لكان ذكرهم والتركيز عليهم في أدب البليار ضرورياً، لذلك نجد معظم الشعر والنثر الذي يدور حولهم، إنما يدور خارج أطر البليار، ومع ذلك فقد أشرنا في هوامشنا إلى مواضع هؤلاء الشعراء والكتاب للفائدة، وهلك يحيى شريداً في تلمسان سنة ٦٣١ هـ وبوفاته انتهت دولة بني غانية.



(١) شاعر كان من رجالات وقته خدم يحيى بن غانية وتوفي قبله سنة ٦١١ هـ. انظر ترجمته في المغرب ١٤٢/٢ وتحفة القادم ١٦٤.

(٢) كان مقدماً عند يحيى بن غانية توفي سنة ٥٨٩ هـ انظر ترجمته في المغرب ١٦٢/٢.

(٣) انظر ترجمته في المغرب ١٧١/٢.

(٤) انظر ترجمته في المغرب ٣٨١/٢.

(٥) انظر ترجمته في المغرب ١٠٠/١.

(٦) انظر ترجمته في المغرب ٣٥٢/١.

الفصل الخامس

الشعراء الوافدون على البليار

إن وفود شعراء الأندلس على جزر البليار يعود في ظاهره لأسباب ثلاثة:

الأول: فتنة البربر واستيلائهم على قرطبة عام ٤٠٢ هـ حيث شرد العلماء والأدباء والكتاب والشعراء، وتفرقوا في الأمصار، فكانت البليار وجهة الكثير منهم.

الثاني: سقوط المعتمد بن عباد، ونهاية مملكة إشبيلية، باستيلاء المرابطين عليها، مما أدى إلى انفراط عقد الشعراء الذي كان ينتظم في إشبيلية حول المعتمد، فغادر عدد من الشعراء، أمثال: ابن البني، وابن اللبانة، وابن حمديس، وأبي العرب الصقلي إلى ميورقة.

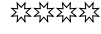
الثالث: سقوط إشبيلية في يد الإسبان، حيث لم يبق أمامهم بعد تدهور الموقف في الأندلس سوى جزيرة منورقة، تلك الإمارة التي كان يحكمها ابن حكم القرشي، وتمتعت تحت حكمه بالاستقلال والاستقرار، وقد وصف هذا الحاكم بأنه كهف الغرباء وملأ كل طريد، فأقبل عليه الشعراء من كل مكان في الأندلس وأفريقيا، ينهلون من عوارفه، ويأوون إلى ظله، وتحت جناحه أحسوا بشيء من الأمن والاطمئنان الذي افتقدوه في بلادهم.

وسأتبع الشعراء الوافدين في مرحلتين:

أ - الشعراء الوافدون إلى ميورقة وبالذات إلى بلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان من عام (٤٨٦-٥٠٨ هـ) أي إلى بداية السقوط الأول لميورقة، وهؤلاء الشعراء هم: أبو جعفر بن البني وابن اللبانة، وابن حمديس الصقلي.

ب - الشعراء الوافدون إلى منورقة، وإلى بلاط الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم
الأموي القرشي، الذي حكم جزيرة منورقة من عام ٦٣٠ هـ إلى حدود عام ٦٨٠ هـ، أي
ما يقارب الخمسين عامًا.

والشعراء الوافدون إلى بلاطه هم: أبو القاسم بن يامن، أبو المطرف بن عميرة،
وإبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وأبو بكر بن العوام الإشبيلي وكثير الأديب.



١ - أبو جعفر بن البني^(*)

هو أبو جعفر أحمد بن الحسين بن خلف بن البني^(١) الأبيدي^(٢) اليعمري.

شاعر مجنون وهجاء، وصف بأنه «خليع العذار، قليل المحاشمة في اللهو والاعتذار، لا يبالي أي مذهب ذهب، ولا يفكر في من عذر أو عتب، وله أهاج أرغمت المعاطس، وبدائع أخرت المنافس وأخذت المنافس^(٣)».

كان كثير الأسفار، ينتقل من وطن إلى وطن، ومن دار إلى دار، لا يستكنُّ على حال، ولا يستقرُّ له قرار.

وفي تصوير حالته يحدثنا الشاعر الأندلسي أبو الصلت أمية حيث أجابه على قصيدة خاطبه بها أبو جعفر، فيقول:

مَجْدُكَ عَلَوِيٌّ يَا جَعْفَرُ
وَالشُّهُبُ لَا تَعْرِفُ سُكْنَى الْقَرَارِ
أَنْسَتْ بِالْبَيْنِ وَطُولَ السُّرَى
فَالنَّاسُ أَهْلُكَ وَالْأَرْضُ دَارُ

(*) انظر ترجمته في المغرب ٣٥٧/٢ والمطرب ١١٨ ورايات الميرزبن ١٢٨ والمعجب ٢٣٥ والقلائد ٤٦٨ والمطمح ٣٦٩ والبغية ١٨٢ واللباب ١٤٨/١ ومعجم البلدان ج ١ ق ٢ ص ٤٨٨ والتكملة ٢٤/١ والوافي بالوفيات ٣٤٢/٦ والذيل والتكملة س ١ ق ١ ص ٢٧٣ ونفح الطيب ٤٨٧/٣ والخريدة ٢٧٩/١ وفيها أبو جعفر عبدالوالي، وقد اختلط على صاحب الخريدة فأبوجعفر أحمد بن عبدالوالي قد أحرقه السيد الكنبوطر في بلنسية، وقد نبه ابن الأبار في التكملة ٢٤ إلى ذلك. وكذلك حصل اللبس في الرايات.

(١) البني: بكسر الباء وتشديد النون نسبة إلى قرية بنة كما ذكر ابن سعيد في المغرب ٣٥٧/٢.

(٢) بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة ويعدها دال مهملة، نسبة إلى بلدة بالأندلس من كورة جيان بناها عبدالرحمن ابن الحكم وجدها ابنه محمد.

(٣) الذخيرة ٢٨٠/١ والمطمح ٣٦٩.

إن سرت كُنْتَ الشمس أو لم تسرْ فأنت كالقُطْبِ عليه المدارُ

ويبدو أنه كان يضطر أحياناً للظهور بغير مظهره، وعلى غير حقيقته، فيتنسك طلباً للمال، أو تقرُّباً لوال، أو خوفاً من حاسد، وفي ذلك يقول الفتح بن خاقان: «تنسك مجوناً وفتكاً، وتمسك باسم التقى وقد هتكه هتكاً»^(١).

أغراض شعره:

شُهر بالهجاء شهرة ذائعة، قال ابن الزبير في كتاب الجنان: «وله أهاج جرَّع بها صاباً»^(٢)، ومع ذلك، فقد أثنى على شعره ابن الزبير وعدَّ له «بدائع أخرت المنافس، وأخذت المنافس»^(٣) ويصفه الفتح بأنه: «رافعُ راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعُه وأظهر بدائعُه، إذا نظم أزرى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رقم البرود»^(٤).

والمطلع على ما أثبت له من مقطعات في مصادر ترجمته يتأكد بأن «له ما يُرتشف ريقاً، ويشرب تحقيقاً»^(٥).

وشعره الذي بين أيدينا من المرقص المطرب وأكثره في ميدان الغزل والمدح، أما ما ذُكر من تجريعه الصاب لمن تعرض له بالهجاء والعتاب، فلم نجد له ذكراً.

ولعل الذين ترجموا له تخرجوا من إثبات هجائه، إذ يذكر ابن الأبار بعض الشعراء الذين تخرج من الترجمة لهم لكونهم هجائين.

(١) المطمح ٣٦٩.

(٢) الخريدة ٢٨٠/١.

(٣) المطمح ٣٦٩.

(٤) المطمح ٣٦٩.

(٥) المصدر السابق ٣٧٠.

ومن شعره الذي يقطر عذوبة، قوله يتغزل:
 من لي بغُرة فاتنٍ يختالُ في
 حُلل الجمال إذا بدا وحليِّه
 لو شِمتُ في وضح النهارِ شعاعها
 ما عاد جُنح الليل بعد مُضيِّه
 شرقت لآلي الحُسنِ حتى خلُصتُ
 ذهبيةً في الخدِّ من فضيِّه
 في صفحتيه من الجمال أزهراً
 عُذيت بوسميِّ الحيا ووليِّه
 سلَّت محاسنهُ لقتل مُحبِّه
 من سمر عينيهِ حُسام سميِّه

ومن ذائع شعره مقطعة في غلام اسمه علي، يقول فيها:

كيف لا يزدادُ قلبي	من جوى الشوق خبالا
وإذا قُلْتُ عليُّ	بهر النَّاسَ جمالا ^(١)
هو كالغُصن وكالبدر	قواماً واعتدالا
أشرق البدرُ كملاً	وانثنى الغُصنُ اختيالا
إنَّ من رام سُلوِّي	عنه قد رام محالا
لستُ أسلو عن هواهُ	كان رُشدًا أو ضالا
قُلْ لمن قصرَ فيه	عذل نفسي أو أطالا
دُون أنْ تُدرك هذا	تسلُّبُ الأفق الهلالا ^(٢)

وله تشبيهات رائعة واستعارات ذائعة، والتشبيه لديه يقوم على أساس طريف، فإذا كنا نسمع أن المشبه هو عين المشبه به أو كأنه هو، أو أنه استعار وجه الشبه على وجه العارية، فالمشبه عند أبي جعفر يغتصب وجه الشبه اغتصاباً من المشبه به، كقوله:

(١) المصدر نفسه ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق ٣٧٠ - ٣٧١.

وكأنَّما رشأ الحمى لمَّا بدا
لك في مُضْلَعَةِ الجَدِيدِ المُعْلَمِ
غَصَبَ العِمَامِ قَسِيَّةً فأَراكها
من حُسْنِ معطِفِهِ قَويِمِ الأَسْهُمِ^(١)

فإذا كان رشأ الحمى يغصب الحمام أو الغمام قسيه، فإن محبوبته قد تباعدها عنه، تغصب الثريا ذلك البعد والنأي، فيقول مشبهاً بعدها ببعد الثريا:

غَصَبَتِ الثُّرَيَّا فِي البَعَادِ مَكَانَهَا
وَأُودِعَتْ فِي عَيْنِي صَادِقَ نَوْنِهَا^(٢)
وَفِي كُلِّ حَالٍ لَمْ تَزَالِي بَخِيلَةً
فَكَيْفَ أَعَرْتَ الشَّمْسَ حُلَّةَ ضَوْئِهَا

ويبدو أن ميورقة كانت إحدى محطاته التي أوى إليها في تنقلاته وأسفاره الكثيرة، فنزل في كنف ناصر الدولة بن مبشر، وعلى ما يظهر من أخباره أنها لم تسر به ولم يسر بها، وفي ذلك يقول الفتح: «وكننت بميورقة وقد حلها متسما بالعبادة، وهو أسرى إلى الفجور من خيال أبي عبادة.. وكانت له رابطة لم يكن للوازمها مرتبطا ولا بسكناها مغتبطاً^(٣)»، فميورقة لم تحقق له مأربه، إذا اضطر إلى التنسك الذي قيده عن اللهو وغل مجونه، إلى جانب ما وصل إلى علم ناصر الدولة من حاله، فكان افتضاح أمره باعثاً للخوف في نفسه، وكاد يفقد مهجته مرتين، مرة عندما طرده ناصر الدولة من ميورقة، فركب مركباً هبت عليه رياح كادت تغرقه واضطرته إلى العودة إلى ميورقة مما جعل ناصر الدولة يفكر في قتله، ويؤكد ذلك الفتح حيث ذكر ذلك في خبره، قال: «ولما تقرر عند ناصر الدولة من أمره ما تقرر، وتردد على سمعه انتهاكه وتكرر، أخرجه

(١) المصدر السابق ٣٧٤ والخريدة ٢٨٠/١ - ٢٨١.

(٢) الخريدة ٢٨١/١.

(٣) المطمح ٣٧١.

من بلده ونفاه، وطمس رسم فسوقه وعفاه، فأقلع إلى المشرق وهو جار، فلما صار من
ميورقة على ثلاث مجار، نشأت له ريح صرفته عن وجهته إلى فقد مهجته، فلما لحق
بميورقة أراد ناصر الدولة استباحته وإبراء الدين منه وإراحته، ثم أثر صفحه^(١).

ولقد كانت هذه العودة الاضطرارية مؤلمة له من جانبيين:

الأول: تنكر أصحابه له وعدم وفادتهم عليه والسؤال عنه، لسوء سيرته، وعدم
الجرأة في مخالفة الوالي الغاضب عليه.

فقال يخاطب أصحابه عاتباً ومذكراً جميل عيشه معهم، ثم معلناً حبه لهم:

أَحْبَبْتَنَا إِلَى عَتَبُوا عَلَيْنَا
فَأَقْصُونَا وَقَدْ أَزَفَ الْوَدَاعُ
لَقَدْ كُنْتُمْ لَنَا جَذَلًا وَأَنْسًا
فَهَلْ فِي الْعَيْشِ بَعْدَكُمْ انْتِفَاعُ
أَقُولُ وَقَدْ صَدَرْنَا بَعْدَ يَوْمٍ
أَشَوْقُ بِالسَّفِينَةِ أَمْ نَزَاعُ
إِذَا طَارَتْ بِنَا حَامَتْ عَلَيْنَا
كَأَنَّ قُلُوبَنَا فِيهَا شَرَاغُ^(٢)

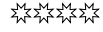
ونحن لا نستطيع أن نستخلص من أشعاره التي وردت في مصادر ترجمته شيئاً
يتعلق بميورقة سوى هذه المقطعة الأخيرة، ولعل له أشعاراً لم تصل إلينا، فيها حديث
عن هذه المرحلة غير الموفقة، فالفتح يذكر أن له الكثير من الأهاجي التي جرع بها من
هجاهم صاباً^(٣)، ونسأل أين راية القريض التي رفعها كما يذكر الفتح؟ وأين هي تلك
البدائع التي تزرني بنظم العقود؟

(١) المصدر نفسه ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٢) المصدر السابق ٣٧٣ ونفع الطيب ٤٨٧/٣.

(٣) انظر المطمح ص ٣٦٩.

وإذا كان من سوابق حلبة عصره وغرر دهره كما يقول ابن سعيد، وإذا كان
مطبوع النظم نبيله، واضح نهجه في الإجابة وسبيله^(١)، فلم لم يعط حقه؟
ألكونه شاعر مجون وهجاء؟ أم لسبب آخر؟
لا ندري، ولكن هذه المقطعات اليسيرة التي وردت من شعره تدل على قدرة
متميزة، وجودة متحيزة.



(٢) المغرب ٢/٣٥٧ - ٣٥٨.

٢ - ابن اللبانة الداني^(١)

اسمه ونسبه:

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي، عرف بابن اللبانة^(٢)، من أهل دانية^(٣)، أحد كبار الشعراء الأندلسيين، عاش متنقلاً يمدح بشعره ملوك الطوائف، واختص باثنين منهما هما: المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وناصر الدولة مبشر بن سليمان صاحب ميورقة، حيث اتصلت علاقته الحميمة بالمعتمد، وتواصلت بعد أسره وسجنه في أغمات، ولما يؤس توجه إلى ميورقة، وظل في كنف مبشر حتى قضى أجله.

وابن اللبانة الذي رضع لبان دانية ذلك الثغر الأندلسي الذي شهر بمكانته الثقافية، كان متمكناً من الصناعتين: صناعة الشعر وصناعة النثر، فإلى جانب مجموع شعره وموشحاته، فله ثلاثة كتب مشهورة هي:

«نظم السلوك في وعظ الملوك، ومناقل الفتنة، وسقيط الدرر ولقيط الزهر»، وللأسف فلم يصلنا واحد من هذه الثلاثة، وإن وصلنا بعض قطع من هذه الكتب لا تكاد تروي ظمأً.

ولست بصدد التوسع في الحديث عن ابن اللبانة، فذلك له مكانه الخاص من كتابنا المخطوط «ابن اللبانة الداني، حياته وأدبه»، وإنما سأعرض لما يتعلق ببحثنا هذا من شعر ابن اللبانة ذلك الطائر المغرد الذي ظل يغرد على أغصان شجر الأندلس

(١) انظر ترجمته في القلائد ٧٧٦ - ٧٩٠، الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٦٦ - ٧٠٢، البغية رقم ٣١٣ ص ١٠٩ - ١١٠، المختار من شعر شعراء الأندلس في مواضع متفرقة، الخريدة ١٠٧/١ - ١٣٩، المعجب ص ١٤٧ - ١٦٣، المطرب ص ١٧٨، التكملة ٤١٠/١، المغرب ٤٠٩/٢، رايات المبرزين ١٢٠، سير أعلام النبلاء ١٢، شذرات الذهب ٢٠/٤، فوات الوفيات ٢٧/٤، الوافي بالوفيات ٢٩٧/٤، نفح الطيب ٢٥٦/٤.

(٢) نسبة لأمه التي كانت تبيع اللبن لإعالتة.

(٣) نسبة إلى دانية وهي مدينة تقع على ساحل البحر الأبيض في شرق الأندلس.

الرطيب، وينتقل من غصن إلى غصن، ويتردد «على ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس
تردد القمر في المنازل»، وحلّ من ملوكها محل الحلي من صدور العقائل...^(١).

وإذا كنا قد أَلحنا إلى علاقة شاعرنا بناصر الدولة عند حديثنا عن بلاطه، فلعلنا
هنا نستطيع أن نوضح هذه العلاقة بدءاً وعرضاً وختاماً، كيف بدأت؟ وكيف سارت؟
والأمّ انتهت؟

وإذا كانت شمس المعتمد بن عباد قد أفلت بغروبه عن إشبيلية إلى المغرب أسيراً
في أغمات، لا حول له ولا قوة، فماذا يصنع شاعر أحبه لا يملك غير الكلمة؟ لا بد أنه
الوفاء. ولقد كان ابن اللبانة وفياً، فبكائياته التي أرسلها لوعة وحرناً على ما آل إليه
مصير مليكه ورصيفه في الشعر والنسب - فكلاهما شاعر وكلاهما ينتهي نسبهما
إلى لحم - ظلت دليلاً ناصعاً على هذا الوفاء النادر.

ومع ذلك فالرحلة إلى المغرب كلفت ابن اللبانة ما لا يطيق: من رؤية المأساة،
والغربة، وقلة ذات اليد، ودليل ذلك أن المعتمد الأسير أشفق عليه، وبعث إليه بأموال
قليلة ومعها أبيات من الشعر يقول فيها:

إليك النزر من كفّ الأسير
وإن تقنع فكُن عين الشكور
تقبل ما يذوبُ له حياءً
وإن عذَرْتُهُ حالاتُ الفقير^(٢)

فردها ابن اللبانة، وأجاب عن أبياته من أبيات يقول منها:

رويدك سوف تسعدني سرورا
إذا عاد ارتقاؤك للسُّرير
وسوف تُحلُّني رُتبَ المعالي
غداة تحلُّ في تلك القصور^(٣)

(١) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٦٧.

(٢) المختار من شعر شعراء الأندلس ص ٢٥.

(٣) المصدر نفسه.

وأتبعها أبياتا أخرى يقول منها:
أيها الماجدُ السميْدُ عذراً
صرفي البرِّ إنما كان برّاً
حاش لله أن أجريح كريماً
يتشكى فقراً وكم سدّ فقراً
وكفاني كلامك الرطب نيلاً
كيف ألقى دُرّاً وأطلبُ تَبْراً
لم تمتْ إنما المكارمُ ماتتْ
لا سقى اللهُ بعدك الأرض قطراً^(١)

ولهذا فقد ساءت أحوال ابن اللبانة، وأحسّ بالفراغ وعانى من الفقر، وأسقط في يده عندما انتهى ملوك الطوائف بسيطرة المرابطين على الأندلس.

وإذا كانت دانية مسقط رأسه، وعلى بعد يسير منها تقبع مملكة شبه مستقلة في جزيرة ميورقة، فلماذا لا يتوجه إليها؟ عله يجد في كنف أميرها شيئاً مما وجده عند المعتمد، وتعود تبسم له الدنيا بعد تجهم.

انتقاله إلى ميورقة:

ويحزم أمره، ويعزم على ركوب البحر والتوجه إلى تلك الجزيرة، ويصف الشاعر هذه الرحلة المخيفة، والبحر في تلك الفترة مخيف حقاً، والانتقال على ظهره غير آمن، فمن بين الأمواج قد تخرج على حين غرة سفن القراصنة، أو مراكب الأعداء، ومن هنا نحس صعوبة هذه الرحلة، وإذا كان لا بد من ركوب الصعب، فعلى الشاعر أن يركبه وهو يقول:

وبحر سوى بحر الهوى قد ركبتهُ
لأمر كلا البحرين مركبهُ صعبُ

(١) المصدر السابق ص ٣٦ وشعره ص ٤٤.

لَهُ لُجَجٌ خُضِرُ كَمَا اخْضُرَتِ الرَّبْيُ
إِلَى أُخْرٍ بَيْضٍ كَمَا ابْيَضَتِ الْكُثْبُ
غَرِيبٌ عَلَى جَنْبِي غَرَابٌ نَهَوْضُهُ
بِقَادِمَتِي وَرَقَاءٌ مَطْلَبُهَا شَعْبُ
هُوَ بَيْنَ عَصْفِ الرِّيحِ وَالْمَوْجِ مِثْلَمَا
هُوَ بَيْنَ أَضْلَاعِ الْمُعْنَى بِهِ قَلْبُ
كَأَنِّي قَدْزِي فِي مُقْلَةٍ وَهُوَ نَاطِرُ
بِهَا وَالْمَجَازِيفُ الَّتِي حَوْلَهَا هُدْبُ
وَلَمْ يُحَسَّ بِالْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ حَتَّى لَاحَتْ لَهُ مَيُورِقَةٌ:
وَلَمَّا رَأَتْ عَيْنِي جِنَانَ «مُيُورِقٍ»
أَمَنْتُ وَحَسَبْتُ الْمَرْءَ بُغْيَتَهُ حَسَبُ^(١)

ولعل هذا الإحساس بالأمن والطمأنينة والحصول على بغيته لم يدم طويلاً.

فالقارئ لشعر ابن اللبانة يجد في بداية أمره ونزوله على «مُبَشِّرٍ» فيه مثل هذا الشعور، إلا أنه لا يلبث أن يحس بخمود الجذوة، وإذا كان الدافع لمجيئه ما ذكرناه، فإن لديه من الدوافع والأسباب الكثيرة التي أصبحت تدعوه إلى الرحيل عن جناب ميورقة وحمى ناصر الدولة، ويذكر ابن بسام من هذه الأسباب أنه، «سُعي به إلى ناصر الدولة وبُغي ونُبذ حقُّ نباهته وأُلغي، فلم يرع انقطاعه، وجازى إحسانه وإبداعه...»^(٢).

ويبدو أن السعاة والوشاة قد نجحوا في تأليب ناصر الدولة، ففسدت هذه العلاقة بعد صفاء، وتعكرت بعد نقاء، ويتعجل ابن اللبانة الخروج قبل أن تفصم عرى هذه المودة وينقطع ما تبقى من حبالها، وينبئ ما اتصل من أسبابها فيصرخ راجياً ومؤملاً إطلاق سراحه:

(١) الأبيات من قصيدة في شعره ص ١٧ - ١٨ في مدح ناصر الدولة، مطلعها:
بكت عند توديعي فما علم الركبُ أذاك سقيطُ الطلِّ أم لؤلؤُ رطبُ
(٢) الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٨٣.

عسى رافلةً في سراجٍ كريمٍ
أبلٌ ببـرد نداءُ الغليـلا^(١)

موضوعات شعره في ميورقة:

إذا كان أكثر من نصف شعره الذي أبقتة عوادي الدهر هو في مدح ناصر الدولة، فلا بد من أن تتعدد الموضوعات والأغراض التي بثها في هذه المدائح، وإذا رحنا نحصرها فإننا نستطيع أن نقول إنها وقعت في الآتي:

«المدح، والوصف، والغزل، والغربة والشكوى».

وسننتبع هذه الموضوعات بإيجاز لأننا سنعيد الحديث عنها في فصل «موضوعات الشعر في جزر البليار».

١ - المدح:

إذا كان ابن اللبانة شاعر المعتمد لوفائه، فإنه يعدُّ شاعر ناصر الدولة مبشر بن سليمان لكثرة ما وجدنا له فيه من قصائد المدح، إذ بلغت أكثر من نصف شعره المجموع على الرغم من أن بعضها قد جاء مبتوراً. فأول قصيدة تطالعنا في هذا المجموع في مدح ناصر الدولة ولم يثبت منها إلا مقدمتها الغزلية، وكذلك القصيدة رقم ٣٩، والقصيدة رقم ٨٣.

أما أول قصيدة قالها في مدحه فلعلها تلك البائية التي مطلعها:

بكتْ عند توديعي فما علم الركبُ

أذاك سـقـيـطُ الطلِّ أمْ لؤلؤُ رطبٍ

وفي هذه القصيدة يصف الرحلة إلى ميورقة وما عاناه من ركوب البحر، ويذكر لقاءه بمبشر، ولأنها تمتاز بالحرارة والحماسة على خلاف ما جاء بعد ذلك من قصائد حيث فتور الإحساس والعاطفة.

(١) المصدر السابق ص ٦٨٤.

ومن هذه القصيدة يقول في مدحه:

وقلتُ المكانُ الرحبُ أين؟ فقيل لي:
ذرى ناصر العلياء أجمعه رجبُ
براحته بحرٌ محيطٌ مُسَخَّرُ
يُفَادُ الغنى فيه ولا يُذعرُ الركبُ
حوى قصبات السبق عفوًا ولو سعى
لها البرقُ خطفًا جاد من دونها يكبو
ويرتاحُ عند الحمدِ حتَّى كأنَّه
- وحاشاه - نشوان يَلْدُ له الشربُ^(١)

وله فيه:

وقبِلتي ناصر شرع العلا
فوجهه وجه الهدى في البطاح
الديمة الوطفاء يوم الندى
والأسدُ الباسل يوم الكفاح
مُـوَطأ الأكناف رطب الجنى
مقدم السبق مُعلَى القداح^(٢)

ومن جميل قوله فيه وقد أبل من مرضه:

شكى لشكواك حتى الشمس والقمرُ
وبات درُ الدراري الزهر ينتشرُ
وراحتِ الرياح لا يذكو لها عبق
وأصبح الروض لا يندى به زهرُ
وقلَّص الظل في فصل الربيع لنا
فكادت الأرض بالرمضاء تستعرُ

(١) شعر ابن اللبانة ص ١٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠.

والماء غاض لنا غيضاً فما نبعتُ
عينٌ ولا سال في بطحائها نهرُ
والسُّحبُ صاحبها ذعرُ فما نشأتُ
ولا استهلَّ له فوق الربى مطرُ

إلى أن يقول:

يومان غبت فغاب الأنسُ أجمعه
وأيُّ أنسٍ إذا ما غبت ينتظرُ
يا ناصر الملك إنَّ الملك وجهُه عُلَى
وليس غيرك فيه السمعُ والبصرُ
إبلال جسمك أهدانا بليلاً صَبَا
فعاد عهد الصبا واستبشر البشرُ^(١)

من خلال قصائد المديح في ناصر الدولة ما الذي نستطيع استخلاصه؟

أ - لعل الصور التقليدية التي وشاها ابن اللبانة بصوره ومقابلاته ومزجه بين الأغراض أول ما يطالعنا في قصائد المدح هذه فالكرم الصورة التقليدية تنبث في هذه القصائد فهو:

براحته بحرٌ محيطٌ مُسخرُ
يُفاد الغنى فيه ولا يذعرُ الرُّكبُ^(٢)

فمن يفد عليه ففي نعمائه يستقر:

من رام عن مـورده مـصدرًا
قالت له نعمـاؤه لا براح^(٣)

(١) شعره ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) شعره ص ١٨.

(٣) شعره ص ٣١.

ونواحيه كلها خصب:

خصيب نواحي الفضل يضحك كله

عن المكرمات السبط والحسب الجعد^(١)

ولعلنا لا نستطيع الفصل بين الكرم والشجاعة، فابن اللبانة يجمع هاتين الصفتين، ومن الصعوبة بمكان أن نستخلص واحدة من الأخرى لولع ابن اللبانة بالجمع بين الصفات، والمقارنة التي يشتد الشاعر في طلبها، فهو يجمع بين كرمه وقوته في أن معاً فيقول:

مكارمه مرعى إلى جنب معقل

أرود إذا أضحى وأوي إذا أمسى^(٢)

فهو:

الديمة الوطفاء يوم الندى

والأسد الباسل يوم الكفاح

ولم يكتف بجمع صفتي الكرم والشجاعة، وإنما يجمع أيضاً الصفات الخلقية والخلقية المعنوية والمادية، حيث يقول:

يطالع عن صُبْحٍ وينهل عن حيا

ويخطف عن برقٍ ويعصف عن رعد^(٣)

ولعل ما قلناه يظهر من خلال هذين البيتين:

متباعد الطرفين جود غافل

عمّا يحلُّ به وعزمٌ مُطرقٌ

بأسٌ كما جمد الحديد وراءه

كرمٌ يسيلُ كما يسيلُ الزئبق^(٤)

(١) شعره ص ٣٧.

(٢) شعره ص ٥٧.

(٣) شعره ص ٢٧.

(٤) شعره ص ٧١.

ثم يظهر بوضوح ويسفر عن وجهه في قوله:
ضدان فيه لمعتد ولمعتف
السيف يجمع والعطاء يُفرق^(١)

ب - المقارنة:

من جميل شعر ابن اللبانة تلك المقارنات التي ميزت شعره من شعر غيره، وهي
من سمات شعره التي غطت على الكثير من أغراضه وإن اتضح ظهورها في غرض
المدح ولننظر إلى هذين البحرين، البحر الحقيقي والبحر المجازي:

وبحرٍ سوى بحر الهوى قد ركبته
لأمرٍ كلا البحرين مركبه صعبٌ
له لججٌ خضرٌ كما اخضرَّت الربي
إلى آخرٍ بيضٍ كما ابيضت الكُثْبُ

ويستمر في هذه المقارنة الشائقة بينهما فيقول:
سألت أخاه البحر عنه فقال لي
شقيقي إلا أنه البارد العذبُ
لنا ديمتا ماء ورملٍ فديمتي
تماسك أحياؤا وديمته سكبُ
إذا نشأت بريةً فله الندى
وإن نشأت بحريةً فلي السُحْبُ

ولم يتوقف عند مقارنته بالبحر لكنه يقارنه بالربيع:
قدمت ربيعاً والربيع كأنما
تأخر وثراً إذ تقدمته شقفا
على نسق وافيتما ووفيتما
فكنت حياً سكباً وكان حياً معاً^(٢)

(١) شعره ص ١٨ - ١٩.

(٢) شعره ص ٦١.

وما أجمل هذه المقارنة بين المادح والمدوح حيث يقول:

وإني وإياه لمزناً وروضاً

يباكرني سقياً وأزكو له غرساً^(١)

ومقارنته لمدوحه بالسحاب والورد والأسد والشمس والصبح، تجدها في ثنايا قصائد المدح، ولعل أروع هذه المقارنات التي شهر بها شاعرنا هذه المقارنة اللطيفة حيث مزج غرض الغزل بالمدح وقارن بين صفات محبوبته وصفات مدوحه فجاء - حقا - بالأنيق الرقيق والمطرب المعجب، فصفات محبوبته المادية والمعنوية يقارنها بصفات وعطايا وأفعال المدوح، فيقول:

وضحتُ وقد فضحتُ ضياءَ النُّيِّرِ

فكأنَّما التحفتُ ببشرٍ مُبَشِّرِ

وتبسَّمتُ عن جِوهرٍ فحسبته

ما قلدته محامدي من جِوهر

وتكلَّمتُ فكأن طيبَ حديثِها

مُتَّعَتْ مِنْهُ بِطِيبِ مِسْكِ أَنْفَرِ

هرَّتْ بنغمة لفظها نفسي كما

هرَّتْ بذكره أعالي المنبر

أذنبْتُ واستغفرتُها فجرتُ على

عاداته في المذنب المستغفر

جاءتُ عليَّ بوصلها فكأنَّه

جدوى يديه على المُقل المُقترِ

ولثمتُ فإها فاعتقدتُ بأنني

من كَفَّه سَوَّغَتْ لثم الخنصر

سمحتُ بتعنيفي فقلتُ صنيعة

سمحتُ علاه بها فلم تتعذَّر

(١) شعره ص ٥٧.

نهدُ كقسوة قلبه في معركِ
وحشًا كلينِ طباعه في محضرِ
ومعاطفٍ تحت الذوائبِ خلَّتْها
تحت الخوافقِ ما له من سمهري
حَسُنْتُ أَمامي في خمارٍ مثل ما
حسُنَ الكميُّ أَمامهُ في مغفرِ
وتوشحتُ فكأنه في جَوْشَنِ
قد قام عنبره مقام العيْثَرِ
غمزْتُ ببعضِ قِسيِّه من حاجبِ
ورنتُ ببعضِ سهامه من محجرِ
أَوَمْتُ بمصقولِ اللحاظِ فخلَّتْهُ
يومي بمصقولِ الصَّفِيحةِ مُشهرِ
فكأنْ أنملَها سيوفُ مُبَشَّرِ
وقد اكتستَ علقَ النَّجيعِ الأحمرِ^(١)

ونتهي هذه المقارنات بهذا الحشد الهائل الذي جمعه ابن اللبانة في قصيدة واحدة متكناً على أداة التشبيه كأن في المشبه والمشبه به، فيقول:

صفا فلو أنَّ الشمسَ تعطي شعاعهُ
لما احتجبتُ في ليلٍ أريدُ أقتمِ
ورقٌ فلولا أنَّ فيهِ جِزَالُهُ
من البأسِ لاستنشقتُهُ في التنسُمِ
كأنَّ سجاياهُ ربيعٌ مُفَوِّقُ
تفتَّحَ عن زهرٍ نضيرٍ منعِمِ
كأنَّ تخاطيطَ الحياةِ بخده
حواشي رداءٍ مُذهَّبِ النَّسجِ مُعْلَمِ

(١) شعره ص ٥٣ - ٥٥.

كأن سنا مرآه في جود كَفَّه
سنا الشمس.. في حبا الغيث ينهمي
كأن الذي في نوره من تالؤ
شقيق الذي في ناره من تضرُم
كأن تواقع الرضا بعد سُخطه
مواقع مُزن في عواقب صيلم
كأن مذاقيه لياناً وشدة
حلاوة شهد في مرارة علقم
كأن لدى هيباته وهباته
جنى جنة محفوفة بجهم
كأن ثبوت الراسيات ثبوته
إذا خَفَّ من خوف الردى كلُّ محجم
كأن أديم الأرض راحة كَفَّه
وفي بسطها قبض على كلِّ مُجرم^(١)

ج - المبالغة:

المبالغة المقبولة عند البلاغيين من البديع المعنوي^(٢)، فالمبالغة منها المقبول ومنها المردود عند علماء البلاغة وعندنا، فالوصف الذي يصل حد المستحيل يخرج عن حد القبول، ولست هنا بصدد مناقشة هذا الموضوع البلاغي وبيان أنواعه، ولكني أحس أن الوصول بالمبالغة إلى حد الغلو والتطرف ناتج عن إحساس بالضعف الشديد، فهذا الصوت المرتفع ينبعث من ذلك الخائف المتفرد، فالمبالغة الخارجة عن الحد تغطية لحالة، وتستتر على قضية وإبعاد للشبهة، وكأني بآبن اللبنة الذي شهد ضياع مملكة ابن عباد، وهو يشهد هذه الحروب المتصلة مع الإفرنج، يتسلح بالمبالغة ويأنس إليها، ولعل ظهورها في شعره المتأخر في مدح [ناصر] الدولة يفسر لنا هذه الظاهرة، من ذلك قوله:

(١) شعره ص ٩٦.

(٢) معجم البلاغة العربية ص ٨٩.

وعنه أفيضوا إنَّه مشعرُ العلى
وحوليه طوفوا إنَّه كعبةُ القصد^(١)

ولم يكتف بأن جعله مشعرًا أو كعبةً، حتى جعل الرزق يبعث على يديه، والقدر يجري على حكمه:

ملكٌ غدا الرزق مبعوثًا على يده
وظل يجري على أحكامه القدر^(٢)

وهذا الملك المحاصر في جزيرة ميورقة:
لو رام رومةً جاءه أربابُها
والبيضُ أغلالُ لهمٌ وسلاسِلُ
ولو الجبالُ يهزها ليهدَّها
عادتُ أعاليها وهنَّ أسافل^(٣)

وأخيرًا فقد ربط إسلام الناس بتسليمهم لناصر الدولة:
ومن لم يُسلِّمْ في الديانة والدُّنا
إلى ناصرِ الأنصار ليس بمُسْلِمٍ^(٤)

٢ - الغزل:

يبدو أن الفترة الأخيرة من حياة ابن اللبانة لم تكن تتسع لغزل حقيقي، فتقدمه في السن، وسقوط المعتمد، وغربته في جزر البليار أخفتت هذا الصوت في صدره، لذلك جاء نبض الغزل ضعيفًا، فاتر العاطفة، تقليدي الصورة والأسلوب، إن دبت فيه بعض مظاهر الحياة فهي مظاهر مصنوعة، كما يظهر ذلك من قوله:

بكت عند توديعي فما علم الركبُ
أذاك سقِيطُ الطلِّ أم لؤلؤُ رطبُ

(١) شعره، ص ٣٧.

(٢) شعره، ص ٤٩.

(٣) شعره، ص ٨٢.

(٤) شعره، ص ٩٦.

وتابعها سربٌ وإني لمُخطئٌ
نجومُ الدياجي لا يُقال لها سربٌ
لئن وقفتُ شمسُ النهارِ ليوشعِ
لقد وقفتُ شمسُ الهوى لي والشهبُ
عقيلة بيت المجد لم ترها الدُجى
ولا لمحتها الشمسُ وهي لها تربُ

وإذا ما رحنا نقلب قصائده التي قالها أثناء إقامته في ميورقة، فإننا لا نجد سوى
هذا الغزل التقليدي الذي يمهّد به لدح مبشر، أما أن يفرد قصائد أو كمقطعات خاصة
بالغزل فذلك ما لم نظفر به في مجموع شعره الذي بين أيدينا، ونحس أن العهد لم يعد
يصلح لذلك، والشاعر يعترف بأن ذلك عهد بعيد وأنه في إجازة من الحب والشوق:

عاوده الشوق وكان استراحُ
وانبـرت الطيـرُ تغني فناحُ
نكّره عهد الصُّبـا ساجعُ
مدّ جناحًا والتوى في جناح

إلى أن يقول:

أعطافُه تشبّه أعطاف مَنْ
راح فؤادي معه حيث راحُ

ويمدّ يده ليتحسس الحقيقة وإذا بها طيف خيال:

وزارني طيفُ خيالٍ لهم
فألحف الليل رداء الصـباح
بتُّ به تحت ظلال المُنـى
أشتمُّ ريحاناً واستفُّ راحُ

ونتساءل عن السبب الذي جعله يزور عن واقعه حيث يصف الملاح التي حضرت
بين يدي ناصر الدولة، ويمتطي الخيال يحدث طيفه، فيجيبنا:

ما بقيت في سوى نظرةٍ
واقعةٍ باطنُها من صلاح^(١)

ولعل الجديد الذي أضافه في هذا الغرض هو ذلك المزج الرائع بين الغزل والمدح في مقارنة بديعة، تظهر هذه الصنعة المتأنقة التي غلبت على شعر ابن اللبانة، كما يظهر في ذلك من قصيدته في مدح ناصر الدولة التي مرت أنفًا في المقارنات ومطلعها:

وضحتُ وقد فضحتُ ضياء النُّيرِ
فكأنَّما التحفتُ ببشرٍ مُبشِّر^(٢)

٣ - الغربية والشكوى

من أجود شعر ابن اللبانة وصفه لحالته النفسية، ومعاناته بعد تحوله إلى ميورقة، فأنت تحس فيه صدق التعبير دون تكلف وتعمل، ويطالعك في تصوير هذه الحالة من خلال مقدمات قصائده، فأنت تستطيع التعرف على حالته النفسية بمجرد أن تصافح البيت الأول من القصيدة.

وإذا كان ابن اللبانة قد أحس بشيء من الرضا والتعويض في رحاب مبشر أول الأمر، حتى كانا كما وصف نفسه مع الوزير أبي القاسم:

وإنِّي وإيَّاهُ لمزْنٌ وروضَةٌ
يباكرني سقيًّا وأزكو له غرسا
صفا بيننا من خالص الود جوهرُ
غلبنا به في نور جواهرها الشمسا
ومما أنا إلا من علاه مكوْنُ
غدوتُ له نوعًا وأصبحَ لي جنسا^(٣)

(١) شعره ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) شعره ص ٥٣.

(٣) شعره ص ٥٧.

فإن صفاء هذه العلاقة لم يدم «وسُعيَ به إلى ناصر الدولة وبُغي، فلم يرع انقطاعه، ولا جوزي إحسانه وإبداعه، وهَجَرَ هَجَرَ الجرب، وأقام مقام الحائر المضطرب»^(١) وأحس بالدنيا تحاربه وبالغربة تضغط على عنقه:

رَمَانِي الدهر من كلِّ النواحي
فَأَنْبَتَ فِي مَقَاتِلِي النَّبَالَا
وَصَيَّرَنِي غَرِيبًا فِي مَكَانٍ
بِهِ الْغُرْبَاءُ تَكْتَسِبُ الْعِيَالَا

وأحس بالجرح الغائر في قلبه، هذا القلب الذي صفا لمبشر يعاقب بلا ذنب؟ وينجح الوشاة في صرف الأمير عن الشاعر، ويتذكر صديقه السابق ووزير ناصر الدولة الحالي، ليهرع إليه علَّه يكشف عنه هذه الغمة، ويعيد البشر إلى تلك العلاقة التي غاض ماؤها مع مبشر، وفي ذلك يقول الفتح: «وكان بينه وبين وزيره أبي القاسم ذمام وائتلاف، ومعاونة سلاف، وراحات والتها بكر وروحات، راح السرور عليها وابتكر، ووداد أشبه عصر الشباب.. فلما وصل ميورقة تجدد دارسه، وعادت أجامًا مكانسه، فكان أبو بكر يظن أن تلك الموات تنفقه وإن كسد، وتخلصه ولو حصل في لهوات الأسد... فلما تغير له ناصر وتنكر، ورأى من قعود أبي القاسم عنه ما أنكر، هبَّ من غفلته، واحتال في نقلته، فلاذ بالفرار.. وجعل يستنزله ويستعطفه، ويداريه من هناك ويستلطفه ليمنَّ بإعادته وصرفه إلى عادته، بكل مقال يسيل سخائم الأحقاد»^(٢) من ذلك قوله في الوزير أبي القاسم هذا:

نَسِيْمُكَ حَتَّامٌ لَا يَنْبِرِي
وَطِيْفُكَ حَتَّامٌ لَا يَعْتَرِي
أَعْيِيْذُكَ مِنْ عَرَضٍ أَنْ يَكُونَ
وَأَنْتَ الَّذِي كُنْتَ مِنْ جـــــــــــــوهرٍ

ثم يذكره بتلك العلاقة القديمة في الأندلس التي تساقيا فيها كؤوس المحبة ورحيق الشوق، وصافي المودة:

(١) قلائد العقيان ٧٨٣/٣.

(٢) قلائد العقيان ٧٨٥/٣ - ٧٨٦ وانظر الخبر في النخيرة ق ٣ م ٢ ص ٦٨٤.

أَتَذْكُرُ أَيَّامَنَا بِالْحَمَى

وَأَيَّامَنَا بِذَوِي الْأَعْمَصِرِ^(١)

ومن قصيدة أخرى يقول مذكراً:

صَفَا بَيْنَنَا مِنْ خَالِصِ الْوَدِّ جَوْهَرٌ

غَلَبْنَا بِهِ فِي نَوْرِ جَوْهَرِهِ الشَّمْسُ^(٢)

وبعد أن يذكره، يستعطفه:

أَلَا رَأْفَةً مِنْ وَفِيِّ صَفِيٍّ

أَلَا عَطْفَةً مِنْ سَنِيِّ سَرِيِّ^(٣)

ويناديه بالتصريح بعد التلميح، لإقالة عثرته والأخذ بيده:

أَبَا الْقَاسِمِ اشْرَبْ قَهْوَةَ الْعِزِّ وَانْتَقِلْ

ثَنَائِي وَمِنْ فَضْلِ الْكَؤُوسِ اسْقِنِي كَأْسَا

وَحُذْ بِيَدِي مِنْ عَثْرَةٍ قَصُرَتْ يَدِي

وَكُنْتُ أَخَا بَأْسٍ فَلَمْ تُبْقِ لِي بِأَسَا^(٤)

ولكن الوزير أبا القاسم لم يعره اهتماماً، وصم أذنيه عن نداءه، فأسقط في يد

الشاعر، وأصابه سهم الدهر:

رَمَى زُحْلٌ فِيَّ أَطْفَارَهُ

وَحَلَّ يَدًا عَنِّي الْمَشْتَرِي^(٥)

ومن قصائده التي تصور حالته النفسية المزرية التي عانى منها لدرجة شعر معها

بالضياع، قصيدته العينية التي أظهرت قلقه وشدة خوفه من عواقب القطيعة بينه وبين

(١) القلائد ج ٣ ص ٧٨٦.

(٢) شعره ص ٥٧ والقلائد ٧٨٧/٣.

(٣) قلائد العقيان ٧٨٦/٣.

(٤) المصدر نفسه ٣٨٧/٣.

(٥) المصدر نفسه ٧٨٦/٣.

الأمير، هذا الخوف قد استطار بلبه وجعل قلبه كالشعاع، فأرسل هذه القصيدة إلى بعض إخوانه، وقد نوى الهرب والانفصال:

أَقُولُ تَحْيِيَّةً وَهِيَ الْوِدَاعُ
خِدَاعًا لِي وَمَا يُغْنِي الْخِدَاعُ
أُعَلِّلُ بِالْمُنَى قَلْبًا شَعَاعًا
وَلَنْ يَتَعَلَّلَ الْقَلْبُ الشُّعَاعَ
وَأَتْرُكُ جِيرَةً جَارُوا وَأَشَدُّ:
«أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنَى أَضَاعُوا»
إِذَا لَمْ يُرْعَ لِي أدبٌ وَبِأَسُ
فَلَا طَالَ الْحُسَامُ وَلَا الْيِرَاعُ
لَقَدْ بَاعَتْنِي الْعِلْيَاءُ بِخُسَا
وَعَهْدِي بِالذِّخَائِرِ لَا تُبَاعُ
أَجَفَّنْتَنِي فَلَمْ يَنْبُتْ رَبِيعُ
وَحَطَّتْنِي فَلَمْ يَنْبُتْ يَفَاعُ
وَمَكَّنْتَ الْعَدَى مِنِّي فَعَاثَتْ
بِلَحْمِي ضِعْفَ مَا عَاثَ السَّبَاعُ^(١)

ويتودد إلى الأمير ناصر الدولة ويستأذنه في السماح له بمغادرة ميورقة، وفي هذه المقطعة يكرر وصف حاله، فيقول:

عَسَى رَأْفَةٌ فِي سِرَاحٍ كَرِيمٍ
أَبْلُ بَبْرَدٍ نَدَاهُ الْغَلِيْلَا
وَعَلَّيْ أُرَاحُ مِنَ الطَّالِبِينَ
فَأَسْكُنُ لِلْأَمْنِ ظِلًّا ظَلِيْلَا
وَمَنْ بَلَّهَ الْغَيْثُ فِي بَطْنِ وَادٍ
وَبَاتَ فَلَا يَأْمَنُ السُّيُولَا

(١) المصدر السابق ٧٨٨/٣.

لَقَدْ أَوْقَدُوا لِي نِيرَانَهُمْ
فَصِيرَنِي اللَّهُ فِيهَا خَلِيلًا
أَفِرُّ بِنَفْسِي وَإِنْ أَصَبَحْتُ
مَيُورَقَةً مِصْرًا وَجَدَاكَ نِيلًا^(١)

ثم يحزم أمره، ويودع ناصر الدولة معاتبًا:
سَلَامٌ عَلَى الْمَجْدِ يَنْدَى بَلِيلًا
كَنَشَرَ الرَّبِّي بُكْرَةً وَأَصِيلًا
سَلَامٌ وَكُنْتُ أَقُولُ: الْوَدَاعُ
وَلَكِنْ أُدْرِجُ قَلْبِي قَلِيلًا
أَخَافُ عَلَيْهِ انْصِدَاعَ الصَّفَاةِ
كَفَى أَنْ يَكُونَ زُجَاجًا عَلِيلًا
جُـرَحْتُ لَدَيْكَ وَكُنْتُ الْبَرِيءُ
كَمَا يَجْرَحُ اللَّحْظُ خَدًّا أَسِيلًا
أَتَتْ ذَلَّةٌ مِنْكَ مَحَبَّةً
فَلَمْ أَرْضَ بِالْعَرِّ مِنْهَا بَدِيلًا
تَلَقَّيْتُ مِنْهَا سَوَادَ الْخُطُوبِ
فَأَشْبَهَ عِنْدِي طَرْفًا كَحِيلًا^(٢)

ومع شدة ما لاقاه، ومع اعترافه بخوفه وضعفه إلا أنه يعيد سبب ذلك لكونه جوهراً
وأن الحاجة إليه ماسة:

سَيَشْتَأُقْنِي الْمَلِكُ مَهْمَا أَرَادَ
لِبَاسٍ نَسِيحٍ مِنَ الْمَفْخَرِ
وَلَوْ أَنَّ كُلَّ حَصَاةٍ تَزِينُ
لَمَا جُعِلَ الْفَضْلُ لِلْجَوْهَرِ^(٣)

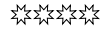
(١) المصدر نفسه ٧٨٤/٣.

(٢) المصدر نفسه ٧٨٩/٣.

(٣) المصدر نفسه ٧٨٦/٣.

وإذا كان الدهر ينال من القوي، فذلك شأنه معه:
ولو لم أكن ماضي الشُّفَرَتَيْنِ
لما فلّني الدهرُ سيفاً صقيلاً^(١)

وفلّ حده، ووهي غربه، وانطفأ أمله، وغابت شمس ابن اللبانة وحيداً غريباً يائساً،
وهو يعلل الآمال بانفراج الأحوال، ودفن في ميورقة إلى جانب شاعر غريب آخر هو ابن
العرب الصقلي في عام ٥٠٧ هـ.



(١) المصدر نفسه ٧٨٩/٣.

٣ - ابن حمديس الصقلي^(١)

اسمه ونسبه:

هو عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي أبو محمد، ولد في سرقوسة إحدى مدن صقلية سنة (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م) وفيها تلقى تعليمه وثقافته، وبدأت تظهر مخايل الشاعرية عليه في مقتبل سنه، وما إن استوى على عوده، حتى بدأت ضربات النورمان تشتد من حول صقلية، وكانت سرقوسة ذلك الميناء على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية يتعرض هو الآخر لهذه الهجمات، ويبدو من خلال شعره أنه شارك في صد هذه الهجمات، ولكنه وفي لحظة يأس يقرر الهجرة، ومغادرة مسقط رأسه، وذلك في حدود عام ٤٧١هـ، ولكن إلى أين؟

ويستقر رأيه على الأندلس، وعلى مملكة إشبيلية التي كان قد سمع عن نهضتها الأدبية، وسمع عن ذلك التجمع الضخم لأرباب الكلمة في الأندلس: كابن زيدون، وابن عمار، وابن اللبانة، والحصري وابن عبد الصمد، وعبد الجليل بن وهب، إلى آخر هذه القائمة من هذه الكوكبة التي كانت تتحلق حول الملك الشاعر والشاعر الملك المعتمد بن عباد، فيعبر البحر وهو يخشاه، أليس القائل:

لا أركب البحر وهو يخشاه، أليس القائل:

أخاف منه المعاطب

طين أنا وهو ماء

والطين في الماء ذائب^(١)

(١) انظر ترجمته في الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣٢٠ والخريدة ١٩٤/٢ ووفيات الأعيان ورايات المبرزين ١٤٩، ابن حمديس حياته من شعره، والأدب العربي في صقلية.

(٢) ديوان ابن حمديس ٥٣٣ - ٥٣٤.

ولكن إذا كان لا بد مما ليس منه بد، فليركب البحر، وييمم وجهه شطر المعتمد،
ويبدو أنه واجه بعض الصد في البداية، لدرجة طلب معها من المعتمد أن يوقع له بالإمساك
أو التسريح: يقول:

أَتَتْنِي عَلَى بُعْدِ النُّوَى مِنْكَ دَعْوَةٌ
قَطَعْتُ لَهَا بِالْعَزْمِ نَجْدًا وَصَحْصَحَا
وَيَحْتَالُ مِنْ أَهْلِ الْقَرِيضِ مُصْرَفٌ
يُهَادِي الْقَوَافِي فِي امْتِدَاكِ قَرْحَا
وَكَانَ عَلَيْهِ الْحَقُّ لِيلاً يَجُوبُهُ
إِلَيْكَ فَلَمَّا لَاحَ وَجْهُكَ أَصْبَحَا
رَفَعْتُ وَأَصْحَابِي إِلَى مَا يُجِدُّهُ
عَلَاقَ فَوْقَ مَمْسَكٍ أَوْ مُسْرَحًا^(١)

فوقَ له، بل تُمَسِّكُ بمعروف ووصله، وتبدأ علاقته بالمعتمد، ويلقى الحُظوة التامة
التي جعلت المعتمد يُثْنِي عليه، فيقول:

وَأَنْتَ ابْنُ حَمْدِيسَ الَّذِي كُنْتَ مُهْدِيًا
لَنَا السَّحَرِ إِذْ لَمْ يَأْتِ فِي زَمَنِ السَّحْرِ^(٢)

ويحس بصفاء الأيام، ويعاوده الشوق إلى المرح والطرب، كيف لا وهو في حمى
المعتمد؟ كيف لا وهذه الدنيا تقبل عليه من كل جانب، وها هو ذا الشاعر المكرم المقدم عند
ملك إشبيلية؟

ولكن هذا الصفاء يظل ينغصُّه ذلك الشوق إلى الوطن، وتلك الغربة المريرة التي تكرر
عليه حلاوة أيامه، إلا أنه يحاول على شدة انشغاله بمصير وطنه أن يتناسى ذلك ولو
للحظات، فهذا المعتمد يكاد يعوضه بكرمه وما أعطاه من مكانة، وقد خطر له أن ذلك قد

(١) المصدر نفسه ١١٠ - ١١١.

(٢) المصدر السابق ٢٧٠.

تحقق وأن أيامه تصفو وتروق، ولكن هذه اللحظات التي أحسها كانت كغيوم الصيف ما لبثت أن انقشعت بخلع المعتمد عن عرشه، وأخذ أسيراً إلى أغمات وما أن انطلقت مراكب الأسير حتى هرول ابن حمديس يتبعه إلى المغرب، ويظهر أن المغرب لم ترحب به كما رحبت به الأندلس من قبل، فيتجول فيها قليلاً وهو يحتسي مرارتين: مرارة الغربة الجديدة، ومرارة سجن المعتمد، ويؤثر الانتقال إلى ميورقة، عله يجد في كنف ناصر الدولة مبشر ما لقيه في ظلال المعتمد، ولكن جزر البليار لم تكن أفضل حالاً من مثيلاتها من دول الطوائف، ويبدو أن انشغال مبشر بالدفاع عن مملكته، والتصدي للإفرنج لم يمكنه من تقدير هذه الهجرة الشعرية لكبار شعراء الأندلس إليه، لذلك وجدنا بعضهم يندمون على قدومهم إلى ميورقة، لأنهم لم يجدوا ما يعرضهم عن ركوب المخاطر بالتوجه إلى هذه الجزيرة، كابن البني وابن اللبانة وغيرهما.

ونحن هنا بصدد الحديث عن شعر ابن حمديس المتعلق فقط بميورقة لأن ذلك هو شرط البحث، أما شعر ابن حمديس في صقلية وغيرها ومكانته فتستطيع العودة إليه في كتابنا الأدب العربي في صقلية.

ويثور تساؤل عن الزمن الذي توجه فيه ابن حمديس إلى ميورقة، وهل هي وفادة واحدة أم أنها تكررت؟ ليس بين أيدينا ما يعين على تحديد تاريخ بعينه لسفر ابن حمديس، ولكن إذا كان مبشر بن سليمان قد تسلم حكم الجزيرة عام (٤٨٦هـ) واستمر حتى عام ٥٠٨هـ فإن الوفادة ستكون بين هذين الرقمين، وإذا كان المعتمد قد نفى إلى أغمات عام ٤٨٤هـ وتوفي بها سنة ٤٨٨هـ، فمن المعقول أن يكون قد توجه إليها بعد هذا التاريخ مباشرة، ونحن نعجب من هذه الوفادة التي وفدها شاعرنا على أمير ميورقة، ونتساءل مع الدكتور سعد شلبي «رجل ينزل على أمير، ويمدحه بقصيدة ليس فيها من مدحه إلا خمسة أبيات، والباقي في وصف خيله»^(١).

(١) ابن حمديس حياته من شعره ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

أَتَكُونُ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ هِيَ الْقَصِيدَةُ الْأُولَى؟ أَمْ سَبَقَهَا قَصَائِدٌ فِي هَذِهِ الزِّيَارَةِ أَوْ فِي زِيَارَاتٍ أُخْرَى سَبَقَتْهَا؟ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَجْزِمَ بِشَيْءٍ، سِوَى أَنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ تُؤَكِّدُ لَنَا أَنَّ ابْنَ حَمْدِيسٍ لَمْ يَشْعُرْ بِالرِّضَا عَنْ هَذَا الْمَقَامِ، فَتَرَكَهُ غَيْرَ أَسْفٍ، وَعَادَ إِلَى بِلَاطِ تَمِيمِ بْنِ الْمُعْزِ، وَاتَّصَلَ أَيْضًا بِبَنِي زَيْرِي وَبَنِي عَلَنَاسٍ وَغَيْرِهِمْ، أَمَّا قَصِيدَتُهُ الْيَتِيمَةُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي دِيْوَانِهِ، فَقَدْ أَوْرَدْنَا بَعْضًا مِنْهَا فِي «الشَّعْرِ فِي بِلَاطِ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ»، وَلَا بَأْسَ مِنْ اقْتِطَافِ بَعْضِ أَبِيَّاتِهَا، يَبْدُوهَا بِقَوْلِهِ:

جَاءَتْكَ أَوْلَادُ الْوَجِيهِهِ وَلاحق
فَأَرْتَكُ فِي الْخَلْقِ ابْتِدَاعَ الْخَالِقِ
نَيْنَانُ أَمْوَاهِ، وَفَتَحُ سَبَاسِبِ
وَضَبَاءُ أَجَامٍ وَعَصْمُ شَوَاهِقِ

إِلَى أَنْ يَقُولَ:

عُرِّمَ حَجَلَةٌ تَكَامِلُ خَلْقُهَا
بِمُجَانَسٍ مِنْ حُسْنِهَا وَمُطَابِقِ
وَكَأَنَّمَا حَيَّتْ عَلاكَ وَجُوهُهَا
فَأَسْأَلَ فِيهِ الصُّبْحُ بِيضَ طَرَائِقِ

وَبَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ الْمُنْفَرِدِ بِالتَّحِيَّةِ لِلْأَمِيرِ مِنْ وَجْهِ الْخَيْلِ، يَسْتَمِرُّ يَصِفُ الْخَيْلَ وَصَفًا فِيهِ مِنَ التَّقْلِيدِيَّةِ مَا فِيهِ مِنَ الْجَدَّةِ وَالرَّوْعَةِ، فَيَصِفُ عَتَقَهَا وَأَصَالَتَهَا، وَنَجَابَتَهَا وَكِرَهَا وَفَرَهَا، وَلَوْنَهَا إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى قَوْلِهِ:

قُدَّهَا تَخْبُ بِكُلِّ ذَمٍّ أَيْلَهُ
بَخْدَاعِ أَبْطَالِ الْوَقَائِعِ حَازِقِ
وَإِذَا أَثَرْنَ بِنَقْعِهِنَّ سَحَائِبًا
صَبَّتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ صَوْبَ صَوَاعِقِ

أصبحت في السادات ناصر دولة
تصفُ العلا [في] عدل كل مناطق (*)
بطلاً يطولُ بذكره في سلمه
كصiale بحسامه في المأزق
مترحلاً نحو المعالي ساكناً
بالجيش في ظلّ اللواء الخافق
شدت عزائمهُ مهالكهُ كما
شُدتْ فرازينُ بعقد بياق

ويعود إلى أفريقية لسبب ما، ويظل بها يمدح بني علناس، وبني زيري وبني خراسان، حتى تثقل خطاه، ويستقر ببجاية حيث الشيخوخة وفقد البصر، وانطفاء الشعاعية، ثم انطفاء الحياة سنة ٥٢٧هـ.

ومن تمام الحديث عن الشعراء الوافدين ذكر مواطنه ورصيفه أبي العرب الصقلي ذلك الشاعر الفذ، الذي لجأ إلى ميورقة بعد خروجه من الأندلس، ولقد ذكرناه عرضاً في حديثنا عن الشعر في بلاط مبشر، ولما لم نجد له شعراً في ميورقة، فقد اكتفينا بذكره هناك، والتنويه به هنا.



ب - الوافدون إلى منورقة:

إذا كان ابن اللبانة وابن حمديس وأبو العرب الصقلي وابن البني وغيرهم قد توجهوا إلى ميورقة، في عهد أميرها ناصر الدولة مبشر بن سليمان، فقد وجدنا منورقة في عهد رئيسها أبي عثمان سعيد بن الحكم هدف الشعراء الوافدين من أمثال أبي بكر ابن العوام الإشبيلي، وأبي القاسم أحمد بن يامن، وإبراهيم بن سهل الإسرائيلي وكثير الأديب، وأبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي.

(❖) أدخلنا على الشطر الثاني تعديلاً ليستقيم وزنه في بحر الكامل (أصله كما ورد في الكتاب «تصف العلا عدل مناطق» وهو مختل). المراجع.

١ - ابن يامن

هو الشاعر الفقيه الكاتب أبو القاسم أحمد بن يامن، من أهل جزيرة شقر، اشتغل بالكتابة، فعمل كاتباً لأبي الحسين بن علي رئيس شاطبة، مجيد في الشعر، محسن في النثر، أثنى عليه ابن سعيد، فقال: «وهو عندي أطرف من عاشرته بالمغرب من أهل الأدب، وأخف روحاً من كل من درج في المنادمة ودب، رجل كثير الاحتمال، سريع النادرة في أنواع المقال هزلاً أو جدّاً، وذمّاً أو حمداً، وله في طريق الكتابة غاية الإصابة^(١)».

وشعره في غير صاحب منورقة يتراوح بين مدح الحكام والأمراء كصاحب بجاية والمنتصر بالله أمير المؤمنين، وبين مراسلة الإخوان ومجالسة الخلان، إذ كانت مجالس الأُنس تجمعه بأحبائه، فيشترك معهم في قول المقطعات والقصائد، فيصفون، ويذيلون، ويماتنون^(٢)، لدرجة اشتراكهم في القصيدة الواحدة، وهذا من الألفة الأدبية والروحية، من ذلك تذييله لبیت أبي عبدالله بن أبي الحسين في دخول ضوء البدر من النافذة:

تجلّى فلّما أبصر الحُسْنُ باهراً
تقسّم من فرط الحياء نجوماً

فقال ابن يامن مذيلاً:

ومجلس إيناسٍ كأنَّ كؤُوسه
غدت لشيّاطين النُّجوم رجوما
تخال نداماه أزهَر روضةٍ
سقاها ندى ربِّ المحلِّ سجوما
ألمْ بهّا بدرُ الدُّجْنَةِ واغلاً
وأملَ في وقت الهجود هجوداً

(١) اختصار الفدح ٥٣.

(٢) الماتنة: هو أن يقول أحدهم نصف بيت ثم يكمل الآخر النصف الثاني.

فأهدى لأجفان الشراجب^(١) نوره
وقصّر عنه هيبهً ووجوما^(٢)

وما يهمننا هو شعره في الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم صاحب منورقة، الذي يدل على هذه العلاقة الصميمية، وتلك المحبة العارمة التي جمعتهم، وجعلت الشاعر يمضي فترة من أجمل فترات حياته في صحبة الرئيس أبي عثمان، هذه الصحبة التي خلّفت لنا عدداً من القصائد الرائعة في مدحه والثناء عليه، وظل صفاء هذه العلاقة حبل ود ممتداً متصلاً حتى بعد خروجه من منورقة، إذ بقيت هذه العلاقة في تلك المراسلات الشعرية التي بعثها إلى منورقة، والرئيس ابن الحكم يتابعه في صلاته، ويصله بعطاياه، على الرغم من البعد والفراق.

وقد مرت بنا بعض أشعاره المدحية في حديثنا عن بلاط الرئيس سعيد بن الحكم، ونعرض هنا لطائفة أخرى تظهر عظيم المصافاة التي جمعتهم، يقول وقد مدحه بقصيدتين:

يا سيِّداً قد هما نداءً
فأخجل الوابل السَّجُوما
أهديتـــــــــــــــــه من بناتِ فكري
بكرين قد سرتا هجوما
فساق مـهريهما وسقَى
نـهريهما غيـثه سُجوما
جلل إلفيهما نثـاراً
ألفى نظيماً سرى الوجوما
فقلـت لما طلـعن شـهـباً
تـقـذف حـسـاًداها رجوما
شمسان قد رُفَّتـا لبـدر
لا غرو أن تنتـجـا نُجوما^(٣)

(١) الشراجب: النواذ.

(٢) اختصار القدح ٥٣.

(٣) اختصار القدح ٥٧.

وإذا كان سعيد بن حكم مقلة منورقة كما قال ابن يامن، ولم تبد الدنيا مثيلاً له فإنه يتتبع مدحه، ويهديه القصيدة تلو القصيدة، فيقول من أخرى مهنئاً بحلوله قصرًا جديدًا:

بالسعد واليُمن والتأييد في العمل
والنُصْر والفتح والأنجاح في الأمل
حلوك القُبَّة الزهراء نَيْرَةً
كالشمس حَلَّتْ أوان السعد بالحمل
في ساعة اليُمن في اليوم الأغر من
الشهر المبارك عام الفتح والجزل
وفي زمان أمان واختيار مُنَى
وفي شباب من الإقبال مقتبل
بيت رفعت على التقوى قواعده
وشدَّت أركانه بالعلم والعمل^(١)

وقال يهنئه وقد أبل من مرضه:

يا غُدوة السبت ما جَلَّيْتَ من كُرب
يا غُدوة السبت ما أَحْيَيْتَ من طرب
لئن غدا السبت عيدًا لليهود لقد
غدا لنا أوجب الأعياد للقُرب
أما به مرَّ إمرارُ الزمان وقد
أجنى ضروب مُنَى أحلى من الضُرب^(٢)
مرأى سعيد العلا دامت سعادته
كلُّ الأمانى وأقصى منتهى الأدب
ولثم راحته من بعد راحته
جلاء ما جَلَّيْتُ شكواه من كُرب

(١) المصدر نفسه ٥٦.

(٢) الضرب: العسل الأبيض الغليظ.

فَاللَّهُ يُبْقِيهِ مَحْفُوظًا لِعَصَمَتِهِ
مُوَيْدًا أَمْرَهُ فِي الْعُجْمِ وَالْعَرَبِ^(١)

ويبدو أن إقامته في منورقة قد طالت، واشتاق العودة للأهل فاستأذن الرئيس في
السماح له بالعودة إلى وطنه، فقال مستأذنا:

يا رئيسًا لاح أنفًا	في بني عبد مناف
ما ترى يا بهجة	المدح ويا فخر القوافي
في سُلَافٍ تشبه العود	وورد كالسُلَافِ
ونديم ذي اعتقاد	لوداد وتصافي
إن تكن تسمح بالإذن	فشملني ذو ائتلاف ^(٢)

ويسمح له، ويستعد ابن يامن للسفر، ولكن جاريه أو مُرتبه الشهري يتأخر، فيستجعله قائلاً:

يا قابض الثناء من	حقائب وسُفَرِ ^(٣)
العبد يشكو سرفًا	من لازمات سفر ^(٤)
ولا يكن راتبه	محرماً في صفر ^(٥)

إنها تذكرة لطيفة، ومداعبة بالألفاظ خفيفة، ويأخذ جاري صفر، ويغادر منورقة، ولكن على
البعد ظل سعيد بن حكم شامخاً كجزيرته، متمثلاً في قلوب أحبائه، ويحن ابن يامن فيكتب إليه:

لك الفضل مولا في كلِّ حال
ولم يزل الفضل وقفًا عليك
بعثت الحياة ببعث السلام
وقبل بعثت الحيا من يدك
وإن لم أطق ردَّ ما ينبغي
فهذا فؤادي مُهدى إليك^(٦)

(١) اختصار القدح ٥٦.

(٢) المصدر نفسه ٥٩.

(٣) سُفَر: جمع سفرة بالضم، وهي جلد مستدير يضع فيه المسافر طعامه.

(٤) سُفَر: أي خالية.

(٥) اختصار القدح ٥٨.

(٦) المصدر نفسه ٥٨.

٢ - أبو عبدالله الجياني^(١)

هو أبو عبدالله محمد بن خطاب الهنتاني الجياني شاعر كاتب حافظ، من جيان بالأندلس، شارك في الأمور السياسية، وتولى القضاء، وارتفعت مرتبته عند أبي عبدالله ابن الأحمر فولاه خطة السيف والقلم، ويبدو أنه عمل سفيراً متنقلاً يحمل الرسائل إلى حكام الممالك، ويبدو أنه في إحدى هذه السفارات عرج على منورقة، فوصله صاحبها أبو عثمان سعيد بن الحكم، وتوطدت على إثر هذا اللقاء علاقة أصفى من ماء المزن في النقاء، فقال يمدحه:

تُغني الكتائب بيضاً من قواضبه
مغلولة وتشّي أقلامه الكتّبا
فقد أعدّ حساماً للجلاد به
وللجدال لساناً مثله نربا
في كَفِّهِ قَلَمٌ ماضٍ يُريك به
أعنى من القُضبِ الهنديّة القصبِ
يمضي بما شاء من نفعٍ ومن ضررٍ
في كلِّ خطبٍ له حدُّ الحسامِ نبا
يحكي شباهَ خضيباً بالمدادِ شبا
مهندٍ بالدم المسفوك قد خُصبا
كان أثاره في الطرس رائقةً
أثار غيثٍ يغادي الروض منسكبا^(٢)

(١) انظر ترجمته في اختصار القدح ٢٢ - ٢٧.

(٢) اختصار القدح ٢٢ - ٢٣.

ويبدو أنه بعد أن ورد على منورقة، غادرها إلى الأندلس، ومن هنا بدأت المكاتبات بينه وبين ابن الحكم، وهذا ما يدل عليه خطابه الذي يقول فيه:

يا رئيسًا أرسى بحارَ غُلاه
فوق هضْبٍ من الفخارِ منيفِ
قد عداني عن الخطابِ اشتغالُ
بأمورٍ من كيدٍ دهرٍ عنيفِ
كلَّ يومٍ يسـومني فوقَ طوقي
ما تليدي يعيا به وطريقي
مع نفسٍ تروم أعلى المراقي
وزمانٍ نكدٍ وجدٍّ طفيفِ
وودادي لكم شهـيدي عليه
من حوى طرسُـه نظامَ حروفِ
مخلص الودِّ فيكم ابن هـمـشكِ
خيرُ خلٍّ وصاحبٍ وأليفٍ^(١)

يظل حبل الود متصلًا، ويظل البحر ينقل الرسائل المتبادلة بينهما.

(١) المصدر نفسه ص ٢٥.

٣ - ابن سهل الإسرائيلي^(١)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي، شاعر كاتب، شهر بالغزل، كان على اليهودية ثم أسلم، وقد شك بعض معاصريه في إسلامه، وأنه كان يتظاهر بالإسلام ويخفي اليهودية، قال ابن سعيد يستخبره عن حقيقة إسلامه عندما سمع منه قوله:

فوالله ما في الأرض مجلس راحةٍ

بغير حلى الراح التي سكبت صبري

سألفها إلف العتيق كتابه

ولا أشتهي وردًا سواها لدى الحشر

«ولما وصل، أظهرت استحسان خطابه، مع سرعة جوابه، ثم أنكرت عليه منزع بيته الأخير، ولدغته من الملام بيسير، فقال: أليس في الجنة نهر الخمر؟ قلت: بلى. فقال: ذلك حسبي لا أبتغي به بدلاً، ولا أريد لبنًا ولا عسلًا. فقلت: بحرمة ما بيننا ألا ما أزلت عني شك الناس فيكم، وصدقتنني هل أنتم على دين أسلافكم أو دين المسلمين؟ فقال: للناس ما ظهر، والله ما استتر، وبعد، فهذا خلاف ما نحن فيه، فأضربت عن مناقشته، ولم أقف له على ما أثبتته أو أنفيه^(٢)».

وقد أرجع بعضهم كثرة تغزله بسلام اسمه موسى إلى قضية رمزية يتشوق فيها إلى اليهودية التي خرج منها.

(١) انظر ترجمته في المغرب ٢٦٤/١ واختصار القدح ٧٣ ورايات المبرزين ٥١، فوات الوفيات ٢٣/١، مسالك الأبصار

٤٧٣/١١، الشذرات لابن العماد ٢٤٥/٥، نفح الطيب في مواضع متفرقة.

(٢) اختصار القدح ٧٣.

والشاعر إشبيلي الأصل، انتقل إلى سبته، ومدح أبا علي بن خلاص الذي أرسله مع ولده إلى المستنصر ملك تونس، فركبا البحر وغرقا معاً، ولما بلغت المستنصر وفاة ابن سهل في البحر قال: «عاد الدرُّ إلى وطنه^(١)»، وكانت وفاته سنة ٦٤٩هـ.

أثنى عليه ابن سعيد، فقال: «كان من عجائب الزمان في ذكائه، على صغر سنه، يحفظ الأبيات الكثيرة على سمعه^(٢)».

وقال: «لا يوازيه أحد من أهل عصره^(٣)».

ومن جميل شعره قوله في وصف نهر:
لِلَّهِ نَهْرٌ مَا رَأَيْتُ جَمَالَهُ
إِلَّا ذَكَرْتُ لَدَيْهِ نَهْرَ الْكَوْثَرِ
وَالشَّمْسُ قَدْ أَلْقَتْ عَلَيْهَا رِءَاءَهَا
فَتَرَاهُ يَرْفُلُ فِي قَمِيصٍ أَصْفَرِ^(٤)

وما يهمننا من شعره، هو ذلك الشعر الذي قاله في صاحب منورقة سعيد بن الحكم، فالشاعر توجه إلى منورقة بعد سقوط إشبيلية، ومن شعره في أميرها قوله:

يَخِفُّ بِشُورًا إِذَا انْهَلَتْ أَنْامِلُهُ
وَالسُّحْبُ تَوْصِفُ إِذْ تَنْهَلُ بِالنُّقْلِ
أَغْرُ يَكْتُمُ مِنْ جُودٍ عَوَارِفِهِ
وَيَشْهَرُ الْبَيْضُ بِأَسَا شُهْرَةِ الْمَثَلِ
فَيَنْشُرُ الْحَمْدُ مَا أَخْفَاهُ مِنْ مَنْ
وَيَكْتُمُ الضَّرْبُ بَيْضَ الْهَنْدِ فِي الْقُلْلِ
يَأْوِي لِعَلِيَّاهُ مُحِمِّيٌّ وَمَضْطَّهَدُ
كَالْمَاءِ فِيهِ وَرُودُ اللَّيْثِ وَالْحَمَلِ

(١) الأعلام ٤٣/١.

(٢) المغرب ٢٦٩/١.

(٣) اختصار القدر ٧٣.

(٤) المصدر نفسه ٧٧.

ويشتهي نيله مُثْرٍ وذنو عدمٍ
كالرَّاحِ تصلح للصاحي وللثَّمَلِ
ذو عزيمةٍ كالتماعِ البرقِ واقدةٍ
تجيء من نصره بالعارض الهطلِ
لولا السعودُ التي نيطت بهمَّتِه
لَكُنْتُ أنسبها بُعدًا إلى زُحَلِ^(١)

وقال يمدحه:

يا مَنْ عيُونُ المعالي عنه قد نظرت
شَرُّراً وحجَّ لساني السيفِ إذ نصما^(٢)
دانت لك الرومُ دين العابدين فهل
غدا حسامك في أصنامهم صنما
وثلثوه فقالوا النور مؤتلفاً
والماء مطرداً والخمر مضطرباً
أضحت أياديك في أعناقهم ربِّقاً
وظنَّها الناسُ في أيديهم نعماً^(٣)

(١) المصدر السابق ٨١ - ٨٢.

(٢) حجّ: غلب.

(٣) اختصار القدح ٨٢.

٤ - ابن عميرة المخزومي^(١)

هو أبو المطرف أحمد بن عبدالله بن عميرة المخزومي صاحب تاريخ ميورقة، من أهل جزيرة شقر بالأندلس، ولد سنة ٥٨٠ هـ وتوفي سنة ٦٥٨ هـ، كاتب أديب مؤرخ شاعر ناثر رحالة، جاب الأندلس وجزرها، ثم انتقل إلى تونس وارتقى بحضرتها حتى صار مشرفاً في مجلس الخلافة المستنصرية، أثنى عليه ابن سعيد، ووصفه بقوله:

«شيخ كتاب زماننا، وإمام أدباء أواننا، مع ما له من التفنن في علوم الشرائع، وما ساد له نظماً ونثراً من اللطائف والبدائع^(٢)» وتحدث عن رحلاته وتنقلاته فقال: «جاز إلى بر العدو، فكان له بها تميز وحظوة، إذ يسبقه حيث سار من شهير اسمه رائد، فلا يزال ناجح المصادر والموارد، وتصرف في قضاء مكناسة وسلا، ثم انصرف عن المغرب الأقصى وسلا، وحل مدينة بجاية، وكان له منها ما تقتضيه معرفته والدراية، ثم تمم الرحلة إلى محط الرحال، وكعبة الآمال، الحضرة العلية تونس - كالأها الله - فتصرف في القضاء بجهاتها، والسعادة تلحظه بطرف عنايتها، إلى أن صار من المشرفين في مجلس الخلافة المستنصرية^(٣)».

ولا شك أنه زار جزر البليار، وألف فيها تاريخ ميورقة الذي نحا فيه منحى العماد الأصفهاني في الفتح القدسي^(٤)، ويبدو أنه زار صاحب منورقة ابن الحكم، وقال فيه:

وجدنا سعيداً سعدُهُ قد قضى به

على الرغم ربُّ النجم قبل المنجم

(١) انظر ترجمته في اختصار القدح ٤٢ - ٥٢ ونفح الطيب ٣١٣/١ - ٣٢١، والإحاطة ١٧٣/١.

(٢) اختصار القدح ٤٢.

(٣) المصدر السابق ٤٢.

(٤) انظر الإحاطة ١٧٨/١.

فَقُلْ حَاسِبُوا إِن لَّدَتْ مِنْهُ بِمَطْعَمٍ
وإن تُذَكِّرِ الْأَنْسَابَ تَلْقَ ابنُ مُطْعَمٍ^(١)
تَأْخِرُهُ - وَاللَّهِ - يُبْقِيهِ حُجَّةً
على من يقولُ الفضلُ للمتقدم^(٢)

ومن شعره يخاطب صاحب منورقة بعد مغادرتها، ويذكر صلة القرابة بينهما:

فَدَتُّكَ أَبَا عَثْمَانَ أَنْفُسُنَا الَّتِي
أَعْنَتْ ذَاكَ الْفَضْلَ قَادَتِ عِرَابَهَا^(٣)
وعندي يا ابنَ العمِّ فيها أليَّةٌ^(٤)
عرفتُ يقيناً برَّها وصوابها
بأنَّ المعالي لو جُمِعْنَ مسائلًا
على الحصر فيها كنت أنت جوابها^(٥)

ويذكر ابن سعيد أن «له موشحات تطرب قبل التلحين، ورسائل حاز بها الإمامة بين
العصريين^(٦)»، ونجده يشارك بشعره في المدح والمراسلة ومجالس الأدب كعادة أهل
عصره، وهو في ذلك ظاهر المكانة، رفيع المنزلة، من لطائفه التي تسرُّ، وتُعلن ولا تُسرُّ،
قوله: «وقد مدح صاحب بلنسية زيادة بن مردينش بقصيد، فلم تخرج له جائزة، وحضر
حجام فكانت صنعته للإحسان جائزة:

أرى من جاء بالموسى مُوسَى
وراحة من أراح المدح صَفْراً
فأنجح سعيَّ ذا إذ قصَّ شِعْراً
وأخفق سعيَّ ذا إذ قصَّ شِعْراً

(١) ابن مطعم: هو عدي بن مطعم من أشرف قريش.

(٢) اختصار القدح ص ٤٩.

(٣) العراب: الخيل العربية الأصيلة.

(٤) أليَّة: اليمين والقسم.

(٥) اختصار القدح ص ٤٩.

(٦) المصدر نفسه ص ٤٥.

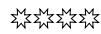
فانظر جمال هذه المقابلة وذاك الجناس.

ومن رائع قوله في سقوط الأندلس بأيدي الأسبان قوله في تصوير حال المسلمين:

زدنا على النائين عن أوطانهم
وإن اشتركنا في الصبابة والجوى
إنا وجدناهم قد استسقوا لها
من بعد أن شطّت بهم عنها النوى
ويصُدُّنا عن ذاك في أوطاننا
مع حُبِّها الشُّركُ الذي فيها نوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا
لعدونا، أفيستقيم لها الهوى؟

قال المقرئ: «وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات في معناها، العالية في مبناها، فإن فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى - دمرهم الله - على تلك الديار، وثبوت قدمهم فيها على طبق ما حصل لهم فيه اختيار، مع إدماج حبه لها الذي لا يشك فيه ولا يرتاب، واشتماله على المحاسن التي هي بغية الرائد ونجعة المنتاب^(١)».

وقد صدق بعض علماء المغرب في وصفه والثناء عليه، فهو: «قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء... ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها، وشمسها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها^(٢)»، وتوفي سنة ٦٥٦ هـ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين، ودفن في تونس^(٣).



(١) نفع الطيب ١/٣١٠.

(٢) المصدر نفسه ١/٣١٣.

(٣) انظر الإحاطة ١/١٨٠.

٥ - ابن العوام الإشبيلي^(١)

هو أبو بكر محمد بن العوام الإشبيلي، طبيب، تعلق بالأدب كما يقول ابن سعيد، ولم يكن فيه ضعف السبب، كان مستهتراً جداً، ولوعاً بالملذات واللهاو، ويورد ابن سعيد طرفاً من أخباره الماجنة وأحواله المتردية في الوله بشرب الراح، وكان قد وصل به الإدمان إلى أن يطرد من حارة ويرمى بالقاذورات والحجارة، وكم من مرة وجد فيها ملقى في الطريق لا يعقل ولا يبالي.

ولما سقطت إشبيلية سقوطها الأخير بيد الأسبان، انتقل إلى منورقة، يتفياً ظلال إحسان «أميرها الرئيس ابن الحكم، وكان ابن الحكم يشتد في إثر شاربي الخمر، ووصل به الحد إلى قتل من يشرب الخمر، فلما أحس الشاعر بشدة الحاجة إليها بعث إلى الرئيس ابن الحكم يمدحه، ويكّتي عن شدة شوقه إلى معاقرة الراح، فقال:

أيا مسكّة دارين وريحان الرياحين
ومأوى كل مضطر لدنياه وللدّين
عبيدكم أتى في خط بة بنت الزراجين^(٢)

ويذكر ابن سعيد أنه «مات هنالك إثر ذلك، بلغني أنه شرب مع قوم من أبنائها، فجرى معهم على عادته بإشبيلية مع أدبائها، فزلق في ما لا يسلكونه لسانه، وارتخى بحيث لا يجرون عنانه، فضربه أحدهم بجرة الخمر على رأسه ضربة قضت عليه^(٣)» وبذلك يكون ثالث شاعر وافد بعد أبي العرب الصقلي وابن اللبانة يوسد في ثرى ميورقة.



(١) انظر ترجمته في اختصار القدح ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) ابنة الزراجين: أي الخمر والأبيات في اختصار القدح ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه ١٨٠.

٦ - كُثِيرُ الْأَدِيبِ^(١)

هو أبو الربيع سليمان عيسى الملقب بكثِيرٍ والمنسوب بالعلياوي من شعراء الأندلس، ومن أدبائها الذين لم يرتعوا في لهو أو يولعوا بمدام، لكنه تميز بحدة في اللسان، وشكاسة في الأخلاق، يقول عنه ابن سعيد: «من العلّيا بغرب الأندلس، رأيته بإشبيلية ومالقة، وكنت أتجنب مجالسته، لأنها تجلب مشارته^(*)، لحدة كانت فيه، وشكاسة إن خلاها فما نُخْلِيهِ^(٢)».

وعلى الرغم من هذه الحدة التي لم يحمدها له ابن سعيد، إلا أنه لم ينجرّف في تيار اللاهين كغيره من شعراء الأندلس، وفي ذلك يقول:

ليس المدامَةُ مما أَسْتَرِيحُ بِهِ

ولا مَجْـاوبَةُ الأوتار والنَّغْمِ

وإنما لذّتي كُنْتُبُ أَطالْعُها

وصارمي أبدا في نُصرتي قلّمي

تنقل في البلاد على ما تذكر كتب التراجم فهو يطوف ببلاد الأندلس من إشبيلية إلى مالقة، وينتقل إلى المغرب، ويستقر في بجاية ويبدو أن سلاطة لسانه وحدة أخلاقه ظلت تلازمه، فجلبت له المكروه، والشر، وبلغ والي بجاية أنه ينال من عرضه فعذبه ونفاه، ويبدو لي أن سفره إلى منورقة كان نفياً إجبارياً، واستقر هناك بمنورقة حتى توفي سنة ٦٣٦هـ.

(١) انظر ترجمته في القدح ص ١٨٩ والمغرب ٣٩٨/١ والرايات ٥٨ ونفح الطيب ٥٦٦/٣.

(٢) الاختصار القدح.

(*) هكذا في الأصل ولعلها: مشاركتة. «المراجع».

الفصل السادس

النثر في البليار

إذا كان الشعر مقدماً على غيره من الأنواع الأدبية، وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا بعض هذا الشعر لأسباب كامنة فيه وأسباب أخرى، فإننا لا نكاد نجد ما يوضح لنا صورة النثر في هذه الجزر بأشكاله وخصائصه وسماته.

ونحن نعتقد أن النثر بأشكاله المختلفة قد وجد، والمؤلفات التي عرضنا لها في حديثنا عن النهضة الأدبية والعلمية في هذه الجزر لتؤكد على وجوده.

ويؤكدده أيضاً ما حظيت به من الأدباء والشعراء وكُتَّاب الدواوين، وما مثلته من ملتقى اللوافدين، فلا بد من أن يكون للنثر مكان رحب في هذه المنتديات واللقاءات والمؤلفات، وقد ذكر ابن بسام في ترجمته لأبي الوليد الباجي عن مناظرة بينه وبين القاضي المالكي أبي محمد عبدالوهاب بن نصر في ميورقة، فقال: «وقد ناظره بميورقة، ففل من غربه، وسبب إحراق كتبه^(١)».

وأول ما يواجهنا هو النثر التأليفي، ولا شك أن هذا يتجلى في كل تلك المؤلفات ذات الصبغة الأدبية ككتاب «روح الشعر» لمحمد بن جلاب الفهري، واختصاره لأبي عثمان سعيد بن أحمد الأندلسي بعنوان «لمح السحر من روح الشعر» وما ألفه الحميدي من كتب الأدب مثل: تسهيل السبيل إلى علم الترسيل، والمتشاكه في أسماء الفواكه، والذهب المسبوك في وعظ الملوك، وكتابه التراجمي «جذوة المقتبس»، وتاريخ ميورقة لابن عميرة، وغير ذلك من المؤلفات ولكن عدم وصول الكثير من هذه المؤلفات يقف بنا عند حد تهميش الحديث عن هذا الشكل النثري.

(١) النخيرة ق ٢ م ١ ص ٩٦.

ولعلنا نتبلغ اليسير من خلال كتاب جذوة المقتبس للحميدي، الذي يؤكد لنا المؤلف في مقدمته وتراجمه للشعراء والأدباء على اتجاه الحميدي الأدبي «ولقد تمكن بحسه المرهف من اختيار نصوص شعرية وأدبية ذات لون خاص، يحس معها القارئ بشفافية المؤلف وذوقه في الاختيار^(١)»، ومن خلال مقدمة الكتاب نحس بذلك الأسلوب الهادئ الذي يميل إلى الازدواج، من ذلك قوله في أول المقدمة: «بحمد الله نبتدئ ونختتم، وبتأييده إلى كل مراد نتقدم، وبالصلاة على رسوله المصطفى نتبرك، وبالسalam عليه نرجو أن يسهل علينا المسلك^(٢)».

أما من خلال ترجماته للشعراء والأدباء، فإننا لا نجد تلك المبالغات والإشارات، وذلك السجع وتلك المحسنات والزخرف الموجود في المطمح أو القلائد أو الذخيرة، وإنما نجد الخبر والرواية والمعلومات تقدم بطريقة منهجية وأسلوب علمي.

وهو ما نجده في تلك الأخبار المتقطعة من تاريخ ميورقة لابن عميرة التي أورد بعضاً منه المقرئ في نفح الطيب^(٣).

وأظهر نوع من الأنواع النثرية استطعنا استخلاصه من فم الزمن هو الرسائل.

وظهر في هذه الجزر أشهر كتاب الرسائل الوزير القاضي أحمد بن رشيق الكاتب الذي ولي أمر الجزر لمجاهد، قال عنه الحميدي: «وطلب الأدب فبرز فيه وبسق في صناعة الرسائل... وله رسائل مجموعة متداولة، منها: الرسالة إلى أبي عمران موسى بن عيسى الفاسي، وأبي بكر بن عبدالرحمن فقيهي القيروان في الإصلاح بينهما^(٤) وكذلك الكاتب أبو محمد بن عبدالبر بن الفقيه العالم ابن عبدالبر القرطبي، وقد تولى كتابة الديوان لمجاهد، وترقى في زمن ابنه علي حتى أصبح رئيساً لكتاب الدواوين^(٥).

(١) مقدمة الجذوة ن.

(٢) الجذوة ص ١.

(٣) انظر النفح ٤٦٩/٤.

(٤) الجذوة ص ١٢٣.

(٥) انظر حديثنا عنه في بلاط مجاهد الأدبي.

وكما ذكرنا، فإن الحديث عن أدب هذه الجزر يظل متصلاً بدانية حتى سقوط الأخيرة في يد ابن هود، وانتهاء ملك علي بن مجاهد، ليتحول بعد ذلك حديثاً خالصاً ومستقلاً عنها ولها.

وكما جاز ذلك على الشعر فإنه يجوز أيضاً على النثر، ولذلك لا نستطيع أن ننتزع تلك الرسائل التي اختصت بمجاهد أو ابنه علي ونزعم أنها من أدب البليار، كما لا نستطيع أن نزع العكس ونجعلها خالصة لدانية، وإذا كان الوضع مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً في هذه الفترة فلا بأس من ذكر بعض هذه الرسائل، والإشارة إلى مواضع البعض الآخر.

ولعل أشهر رسالة وجهت إلى مجاهد العامري أمير دانية والجزر، تلك الرسالة التي أثنى عليها الجميع وعدوها أول رسالة في هذا المضممار، تلك هي رسالة السيف والقلم لأبي حفص بن برد الأصغر، ولما كان مجاهد أمير البيان والسنان، فقد وجه إليه ابن برد الأصغر هذه الرسالة الحوارية الرائعة، التي تنم عن تلك القدرة الفائقة لهذا الكاتب الشاعر، وقد جعلها في مقدمة وعرض وخاتمة، وأمضى الحوار في اتجاهات ثلاثة: الافتخار بالخصال، ثم المعارضة والجدال، وأخيراً الاتفاق والإقبال.

ففي المقدمة يقول:

«أما بعد، حمداً لله بجميع محامده وآلائه، والصلاة على خاتم أنبيائه، فإن التسابق من جوادين سبقا في حلبة، وقضيين نُسقا في تربة، والتحاسد من نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق».

إلى أن يقول: «وإن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد، من بات يسري إلى المجد، وسلمين يلحقان بالكواكب، من ارتقى لساميات المراتب... جررا أذيال الخيلاء تفاخرا، وأشما بأنف الكبرياء تنافرا، وادعى كل واحد منهما أن الفوز لِقَدَحِهِ... وأنَّ الْوَرَى لِقَدَحِهِ».

«وحين كشف الجدال قناعه، ومدَّ الخصام ذراعه... قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال».

فماذا قال؟

قال القلم: «ها، الله أكبر! أيُّها المُسائلُ بدءًا يعقل لسانك، ويحير جنانك، وبديهة تملأ سمعك، وتضيق ذرعك، خير الأقوال الحق، وأحمد السجايا الصدق، والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله، مقسمًا به لرسوله، فقال: ﴿ن، والقلم وما يسطرون﴾. وقال ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾، لجلٍّ من مقسم، وعزٍّ من قسم، فما تراني؟ وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره، وجلت بين قلب الإنسان وخاطره، لقد أخذت الفضل برمته، وقدت الفخر بأزمته».

فماذا قال السيف؟ وكيف كانت إجابته؟

قال السيف: عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أسر ولكن أعلن، قيمة كل امرئ ما يحسن، إن عاتقًا حمل نجادي لسعيد، وإن عضدًا بات وسادي لسديد، وإن فتى اتخذني دليله لمهدي، وإن امرئًا صيرني رسيه لمفدي، يشق الدجى مني بمصباح، ويقابل كل باب بمفتاح، أفصح والبطل قد خرس، وأبتسم والأجل قد عبس».

ويظل التحاور، ويستمر الجدل، ويشتد الخصام حتى يصل إلى ذروة الاتهام، وإذا بهما يتبادران، وطال تراوضهما... تبادرا إلى السلم يعقدان لواءها، وإلى المؤالفة يردان ماءها» ثم يختم رسالته منوهاً بذكر السيف والقلم، وحامل لوائيهما مجاهد العامري، فيقول:

قَدَ أَنْ لِلسَّيْفِ الْأَيُّفُضْلَ الْقَلَمَا
مُذْ سَخَّرَا لَفَتَى حَازَ الْعُلَى بِهِمَا
إِنْ يُجِتْنِي الْمَجْدُ غَضًّا مِنْ كَمَائِمِهِ
فَإِنَّمَا يُجِتْنِي مِنْ بَعْضِ غَرَسِهِمَا
مَا جَارِيَا أَمَلًا فَوَافِيَا أَمَدًا
إِلَّا وَكَانَتْ خِصَالُ السَّبْقِ بَيْنَهُمَا

سقاهاهما الدهرُ من تشتيته جُرْعاً
ولليالي صروفُ تقطع الرُّحما
حتى إذا نام طَرْفُ الجهلِ وانتبَهت
عينُ النُّهى قَرَعَا سَنِيهما ندما
راحا بكفَّ أبي الجيش التي خلقت
غمامةً كلَّ حين تمطرُ النُّعما
فعاد حبْلُهما المُنبتُ مُنْعَقِداً
وراح شملُهما المنفضُ ملتئماً
يا أيُّها الملك السامي بهمَّتِه
إلى سماءٍ علأ قد أعيتِ الهمما
لولا طلابي غريب المدح فيك لما
وصفتُ قبل عَلاك السيف والقلما
وإنما كان تعريضاً كَشَفْتُ بهِ
من البلاغة وجهاً كان مُلتئماً

وإذا كانت هذه الرسالة قطعة إنشائية وصفية حوارية، فإننا نجد بعض المراسلات الظرفية التي تأتي على شاكلة الوساطة والتعريف، من ذلك تلك الرسالة التي كتبها أبو محمد بن عبدالرحمن مجاهد إلى المظفر ببطليموس، يحدثه فيها عن الفقيه القاضي أبي الوليد الباجي، يقول منها «والفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي غذي نعمتك، ونشأة دولتك، هو من آحاد عصره في علمه، وأفراد دهره في فهمه، وما حصل أحد من علماء الأندلس متفقهاً على مثل حظه وقسمه، وقد تقدم له بالمشرق صيت وذكر، وحصل بجزيرتنا، ولك فيه جمال، وفخر»^(١).

وعلى شاكلة هذه الرسالة رسالتان للرئيس الأجل أبي عبدالرحمن محمد بن طاهر^(٢) كتبهما إلى ناصر الدولة صاحب ميورقة وتتضمن تلك الشفاعات أو الوساطات، فالأولى

(١) الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) قال عنه: «به بُدئُ البيان وخُتم، ولديه ثبت الإحسان وارتسم، وعنه افترق الزمان وابتسم» انظر ترجمته في الخريدة ٣٦٦/٣ والقلائد ١٧٠/١.

تعريف بالوزير الكاتب أبي جعفر بن البني، والأخرى في ذي الوزارتين أبي الحسن العامري، يتوسط لهما عند صاحب ميورقة، وهاك نموذجًا لواحدة منهما:

«أطال الله بقاء الأمير منيقًا حرمه، رفيعا علمه، إن الذي بينته الدنيا من مناقبك العليا، فتجلت منه أقاصيها، وتكللت به نواصيها، لجاذب نحوك أحرارها، وجالب إلى ظلك أعيانها وأخيارها، بقلوب تملكها هواها، وحركها نهاها وهذا الوزير الكاتب أبو جعفر بن البني عبدك الآمل، صممت به إلى ذراك همم عوال، كأنها للرماح عوال، يحملها السفين والعزم الناهد المكين، وريح جد ما تلين، إلى حلي من البيان يتقلدها، يكاد السحر يحسدها، وخلائق محمودة كأنها الخلق، تنفخ مسكًا وتشوق، وإن للوشي ما خط، وربما أزرى به إذا حط، والخُبْرُ يغنيه عن الخَبَر، ويعلمه بالعين لا بالآثر، لا زلت كلفًا بالإحسان، منصفًا من الزمان إن شاء الله تعالى^(١)».

والرسالة الأخرى على غرارها، والملاحظ في هذا النوع من رسائل الشفاعات، قصر الرسائل الأخوية، وهو على الرغم من أنه مرسل إلى الأمير أو الوالي، فإننا نحس من خلال قراءتنا لهذه الرسائل بعلاقة مدادها الوداد، وألفاظها من مادة القلب والفؤاد.

فرسالة الوزير الكاتب أبي عبدالله محمد بن مسلم^(٢) التي خاطب بها أغلب والي ميورقة لمجاهد وابنه علي، من هذا النوع المدل بأخوته، المظهر لصداقته ومودته، والدليل على ذلك طولها المفرط، وكأنها تقرير أو مذكرات، يتحدث بها كاتبها عن كل حركة وسكنة فعلها منذ فراق الأمير، وهو يبدأ بقوله:

«إن أُغْبِيتُ على بعد الديار مكاتبك، وأقللت مع شحط المزار مخاطبتك، فإنني أخاطبك بلسان وداد، وأناجيك فؤادًا لفؤاد...» حتى ينتهي إلى دعوته ليقص عليه خبره ويحدثه من شأنه وما جرى له فيقول: «ولي منذ أجول البلاد، وأجوب الصخر بالواد، ما يزيد على عشر حجج... لم ألق إلا يومًا يجعل الولدان شيبا، والجبال كثيبًا مهिला، وإن شئت أن

(١) الخريدة ٣/٣٦٦ - ٣٦٧ وانظر الرسالتين في القلائد ١/١٧٩ - ١٨٠.

(٢) قال عنه صاحب الذخيرة: «آية الزمن، ونهاية الفطنة واللسن، نفت بالسحر واغترف من البحر» انظر ترجمته في الذخيرة ق٣ ١م ص٢٧٤ والمغرب ٢/٤٠٥.

أَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأَيْ قَصَصنا، وَأَضْرِبْ لَكَ مِنْ بَعْضِ أَسْفَارِي مِثْلاً، فَفَرَّغْ لِي ذَهْنَكَ،
وَاصْغِ إِلَيَّ أَذْنَكَ، حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ أَحْوالِ صَدِيقِكَ ما يَلْفَحُ وَيَتَلَجُّ، وَيَغْمُ ثُمَّ يَبْهَجُ، فَقَدْ أَوْدَعْتَ
كِتابِي هَذا نَبْذاً مِمَّا لَقِيتَهُ فِي سَفَرِي، وَمَا كانَ مِنْ خَبْرِي^(١)».

ويبدأ حديثه عن كل من لاقاه، وما عاناه في تجواله إلى ملوك الطوائف في أكثر من
عشرين صفحة مختصرة، لأن ابن بسام حذف سائرَها لطولها، واقتضب من فصولها هذه
الصفحات العشرين.

ولعل خير من أشاع هذا النوع من الرسائل الأخوية هو الرئيس أبو عثمان سعيد
ابن حكم القرشي أمير منورقة، فكان يرسل أصدقاءه من العلماء والأدباء والشعراء في
مختلف البقاع والأصقاع، وترد عليه رقاعهم محملة بخالص الود ودوام العهد، ونقتصر
على نموذجين لابن حكم القرشي، كتب بهما من جزيرة ميورقة إلى العالم الأديب ابن
سعيد جواباً، يقول: «أمتع الله بك أيها الولي الكريم، الوفي الصميم، الشريف أباً، المنيف
حسباً، وصنع لك، وبلغك أملك، يخصك بالسلام الطيب كثنائك، الصيب كوفائك، مجالك
بالحق الواجب، ومُحلُّك من الود بين الترائب سعيد بن حكم^(٢)... الخ».

وفي الأخرى يجيبه عن رسالته قائلاً: «ووصل الكتاب المفيد، المجاد المجيد، المسمى
بالطالع السعيد، في محاسن أعلام الكرام بني سعيد، فأسديتم لعمرو الله يداً، وأهديتم ما
مثله يُهدى وبه يُهتدى، ولم يزل من يدي حين وقفت عليه، حتى قلت:

إِنْ كِتابَ الطالِعِ السَّعيدِ

فِي وَصْفِ أعلامِ بَنِي سَعيدِ

أَحسنَ مِنْ وَرْدِ نَدْرِ نَضِيدِ

وَمِنْ حُلَى فُوقِ طُلالِ لُغَيَدِ

جاءَ لَنا مِنْ أَفُقِ بَعيدِ

أَمواجَ بَحَرٍ وفَجاجِ بَيدِ

(١) انظر ما جاء في فصول الرسالة في الذخيرة ق ٣ م ١ ص ٤٢٧ - ٤٤٨.

(٢) اختصار القديح ٢٩.

فَنَحْنُ مُنْذُ عَادَنَا فِي عِيدِ مَا لَا يَرَى عَلَيْهِ مِنْ مَزِيدٍ^(١)

ومن رائع الرسائل تلك الرسائل الداعية إلى الجهاد، المحرصة على لقاء العدو، من ذلك رسالة الفقيه القاضي أبي محمد عبدالحق بن عطية^(٢) لأمير المرابطين يدعو فيه إلى تحرير جزيرة ميورقة من أيدي الأعداء، عندما سقطت السقوط الأول على يد خايمي الأول وفيه يقول: «وإني - أقر الله عينك - لأتردد وقد قصر عن تمللي السليم، وأتجلد وفي نفسي المقعد المقيم، بهذا الصادم الهادم، والنبأ القاصم الذي أطفأ نور الحياة، وأخبأه، وأوجب أن ينادي كل مؤمن، واحر قلباه! أمر ميورقة - رأب الله بصرفها - صدع الجزيرة، وجبر بجرها من جناح الإسلام كسيره...».

وفي هذه الرسالة وصف يمزق القلوب لما آل إليه أمر الإسلام في هذه الجزيرة، حيث يقول: «فيا لله لما كان فيها من إعلان توحيد عاد همساً، ويوم إيمان أض أمساً، وبارقة كفر طلعت شمساً، وصباح شرع أظلم بدياجي الشرك، وأمسى...».

ثم يصور ما فعله الأعداء بالمسلمين من قتل وسلب ونهب، واعتداء على الحرمات، فيقول:

«ونجوم أصبح حرمها منتهباً، وفرقتها يد الغلبة أيدي سبا، ولخفرت أذال الشرك صباها، ولأخوة عفر منهم القتل سواعد وجباها، ومزقهم السيف كل ممزق، فله أرحام هناك تشقق، رحمهم الله ماتوا كراماً، ولقاهم نضرة وسلاماً، وختم لنا بعدهم بأحمد الخواتم، وأسندنا من أمره إلى عاصم^(٣)».

والملاحظ على هذه الرسائل أن أسلوبها يميل أحياناً إلى السجع، ولكنه يحافظ على الازدواج، ومعانيها تنهل من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتتمثل أمثال العرب وأخبارهم وتترزين بأقوالهم وأشعارهم، كما أنها في غالبيتها تلخص شعراً حيث يوجز

(١) المصدر نفسه ١٠٤.

(٢) هو القاضي عبدالحق بن غالب بن عطية المحاربي، غرناطي، من الفقهاء الحفاظ توفي سنة ٥٤١ هـ انظر ترجمته في القلائد ٦٥٥/٣.

(٣) القلائد ٦٦٧/٣.

الكاتب في نهاية رسالته أبياتاً شعرية تلخص الهدف أو الغرض من هذه الرسالة، كما تحفل بضروب المحسنات البديعية من جناس وطباق، ولزوم مالا يلزم، والصور الفنية ترصعها من كل جانب بقدرة تنميق وروعة زخرفة.

وننتهي بغرض أخير من أغراض النثر وهو النثر الوصفي، حيث نجد بعض الكتاب يصفون على طريقة الألفاظ بعض الموصوفات: كنوع من أنواع الفاكهة أو أي أداة من أدوات الطبيعة: كالليل والنهار والسحاب، أو الأدوات المستعملة: كالقنديل أو الشمعة إلى غير ذلك، وسأقتصر على نموذج واحد لابن حكم القرشي يصف فيه الفانار وهو الذي يحمل فيه القنديل، يقول ملغزاً:

ما مصقول له رواء، محمول كأنه لواء، معمول على نسب كلها سواء، وما له معقول
ففؤاده هواء، قد نظم نظماً، وما ضم إلا عوداً وعظماً، يساير الظلام ويسامر، وينافي الصباح
وينافر، ويصادي^(١) الرياح الهوج ويصادر، ومن لم يرد به الليل الدجوي أعيت عليه
المصادر، أحرف هجائه أربعة، وعلى نير سمائه أرفعه، إن أغرت على أوله أنرت^(٢)، أو بتكت
آخره فتكت^(٣) وإن ألقيت ثاني أحرفه ألقيت ما بعض الطوافين هامز لألفه^(٤) ولا أعرض منه
لثالث القائم، فإن مصحف الباقي بعده سبب المناوح والمآتم^(٥)، أما تعجبون لهجره الضياء ثم
يثمره، ولو صله الظلام وهو يزجره، يرخي على النور فضل الذيل، ويعين على ناشئة الليل^(٦).

ولعل أسلوب هذا الغرض يلتقي مع ما سبقه في الاحتفال بالسجع والازدواج،
والإتيان بالمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، وانظر إلى قوله: «يساير الظلام ويسامر،
وينافي الصباح وينافر، ويصادي الرياح ويصادر...».

وعلى الرغم من هذا الأسلوب السائد في الأندلس، والذي سرى إلى جزر البليار فإننا
نحس بجمال الصنعة، والقدرة عليها، وروعة الأساليب ودقتها.

(١) يصادي: يمنع.

(٢) أي حذفت الفاء وهو أول الحروف، فتبقى كلمة (نار).

(٣) بتكت: قطعت، يريد حذف (الراء) فيبقى (فنا).

(٤) أي حذفت النون فتبقى كلمة فأر.

(٥) يريد تصحيف الراء إلى همزة فتصبح الكلمة (فناء).

(٦) اختصار القدح ٣٦.

خاتمة

إن هذه الدراسة التي تبدأ مع خيوط إشراقة شمس الفتح الإسلامي للأندلس، والتوجه إلى جزر البليار والاهتمام الفعلي بها منذ عام (٨٤هـ)، وحتى سقوط آخر هذه الجزر في يد الإفرنج عام (٦٨٦هـ) فهي دراسة شاقة، فستة قرون من البحث تضني الباحث وتجور على البحث.

ومع أن الدراسة الأدبية تركز على الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن الثالث والقرن السابع، وهي الفترة التي ظهر فيها الأدب العربي في هذه الجزر ظهوراً قوياً، وبخاصة بعد ظهور مجاهد العامري ومن ثم استقلالها عن الأندلس، فإن تتبع الإشارات التاريخية يبدأ مع نهاية القرن الهجري الأول.

وإذا كانت الصعوبة تظهر من خلال هذا الزمن الطويل، فإنها تظهر بوضوح من خلال أمر آخر، وهو غموض أخبار هذه الجزر، وعدم احتفال الكاتبين والمؤرخين بأمرها، فكانت الشذرات المتفرقة عن أخبارها تمثل في جمعها لب الصعوبة ومرها، وقد تذلل كل ذلك بحمد الله وعونه، فقد صحبت جزر البليار، منذ أن صحبت جزيرة صقلية، فممنذ عام ١٩٧٥م، وأنا أحضر للدكتوراه في الأدب العربي في صقلية كانت جزر البليار تجذبني وتشد انتباهي، وظل هذا الحلم والأمل يراودني كلما انتهيت من أحد بحوثي ويدعوني للتفرغ لهذا البحث، وكنت في أثناء أبحاثي ودراستي كلما مررت على معلومة أو خبر حول البليار وأدبها أقوم بتسجيل ذلك، فتجمع لدي على مدى أعوام حصيلة طيبة، فوجدت أن الوقت قد حان للتفرغ لها، وتم ذلك ولكن بعد طول معاناة وصبر وتنقيب في مختلف المصادر والمراجع وظهر - ولله الحمد والمنة - كتاب «الأدب العربي في جزر البليار» لأول مرة.

ولعل من ضرورات البحث إلقاء الضوء من الناحية الجغرافية والتاريخية على هذه الجزر كي تساعدنا في سيرنا للتعرف على هذه الجزر المجهولة، وقد تكفلت الدراسة بذلك.

ومن ثم توجهت لكشف اللثام عن الوجه الأدبي والثقافي لهذه الجزر فاستطعت
حصر أعداد العلماء والأدباء والشعراء والمؤلفات، وكان ذلك يقتضي استعراض عشرات
المصادر لالتقاط مثل هذه الإشارات.

وقمت بعد ذلك بفتح بلاطات الشعر التي أغلقها تراكم الأيام، وأحكم رتاجها
النسيان، فأبنت عن هذا النشاط الأدبي الذي ازدهر بفضل تشجيع أمراء تلك الجزر،
فتمثلت لنا هذه البلاطات في صورة راقية.

ورحت أستعرض أغراض الشعر وخصائصه، وأتحدث عن شعراء البليار والوافدين،
وأتممت بالحديث عن النثر، وكان ذلك يتطلب العودة إلى كثير من المصادر المخطوطة، وهذا
ما صنعت به بالضبط فقد عدت إلى كتابين هامين هما: المسالك لابن فضل الله العمري،
وعقود الجمان لابن الشعار، واستطعت أن أستخلص منهما أشعارًا وتراجم لبعض
الشعراء من أمثال: العماري الميورقي ومحمد بن ابراهيم العبدري الميورقي، وإسحاق بن
غانية، فالكتاب إلى جانب التأليف فيه جانب من التحقيق.

والكتاب في النهاية يظهر لنا أثرًا جديدًا من آثار أمجادنا في الأندلس ظل مركزًا
حتى أتيح له أن يظهر في هذا الكتاب الذي ضم بين دفتيه الكثير مما يتعلق بأمر هذه
الجزر وأدبها.

وإذا كانت الدعوة إلى حشد الإمكانيات لبناء الوعي الأدبي عن طريق ترسيخ
دعائمه، وتقوية أسسه، فإلى هذه الغاية قصدنا، ولتحقيقها سعيًا وجهدنا.
والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع

- ابن حمديس حياته من شعره. د. سعد إسماعيل شلبي - مكتبة غريب، القاهرة ١٩٧٧م.
- آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت.
- الإحاطة في أخبار غرناطة. ابن الخطيب - تحقيق محمد عبدالله عنان، القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- اختصار القدر المعلي في التاريخ المحلي ابن سعيد - اختصره أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن خليل - تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠ - ١٩٨٠م.
- الأدب العربي في صقلية. د. عبدالرزاق حسين، دار البيرق، عمان ١٤١١ - ١٩٩٠م.
- أزهار الرياض في أخبار عياض. شهاب الدين المقري - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.
- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، عبد الباقي بن عبد المجيد اليمان تحقيق د. عبد المجيد دياب - مركز الملك فيصل للبحوث ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- الأعلام. خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت.
- أعمال الأعلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية. ابن الخطيب - تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف -، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٦م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة.. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٧٦م.

- بدائع البدائع علي بن ظافر الأزدي - بولاق ١٢٧٨هـ.
- البديع في وصف الربيع - أبو الوليد إسماعيل الحميري، الإشبيلي - تحقيق د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار المدني للطباعة، الطبعة الأولى، جدة - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. جلال الدين السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الثانية - دار بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- بغية الملتبس. الضبي: أحمد بن يحيى بن عميرة، دار الكاتب العربي. القاهرة ١٩٦٧ م.
- بهجة المجالس وأنس المجالس. ابن عبدالبر القرطبي - تحقيق محمد مرسى الخولي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ابن عذاري المراكشي - تحقيق ومراجعة ج س وليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الثقافة - بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- تاج العروس. الإمام الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان.. نقله إلى العربية د. رمضان عبدالتواب، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣ م.
- تاريخ الأدب الأندلسي. د. إحسان عباس، دار الثقافة - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٧١.
- التاريخ الأندلسي. د. عبدالرحمن علي الحجي، دار القلم، الطبعة الثالثة، دمشق ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس)، د. أحمد مختار العبادي ود. السيد عبدالعزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية.
- تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

- تاريخ علماء الأندلس. ابن الفرضي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.
- تحفة الأديب في الرد على أهل الصليب. أبو محمد عبدالله الترجمان الميورقي تحقيق عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- تحفة القادم. ابن الأبار القضاعي، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي- بيروت ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- التكملة لكتاب الصلة. ابن الأبار تحقيق عزة العطار الحسيني، القاهرة ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م.
- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس. الحميري، الدار المصرية للتأليف، القاهرة ١٩٦٦م.
- الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الأمير شكيب أرسلان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٥٥هـ.
- الحلة السيرة. ابن الأبار، تحقيق د. حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٣م.
- خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس. العماد الأصفهاني. تحقيق أذرتاش أذرتوش وآخرين، الدار التونسية للنشر ١٩٧١م.
- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. محمد عبدالله عنان - القسم الأول.. الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠م.
- ديوان ابن حمديس. تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، دار بيروت - ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.
- ديوان ابن زيدون. دار صادر، بيروت.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ابن بسام الشنتريني، تحقيق د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. ابن عبدالملك المراكشي، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٥م.

- رايات المبرزين وغايات المميزين. ابن سعيد الأندلسي تحقيق د. النعمان عبدالمتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- رحلة التيجاني. تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، تونس ١٩٥٨م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار. محمد بن عبدالمنعم الحميري، تحقيق د. إحسان عباس مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.
- ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا. شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي- تحقيق د. عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦هـ / ١٩٦٧م.
- سير أعلام النبلاء. الإمام شمس الدين الذهبي- تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين - مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- شرح مقامات الحريري للشريشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة للنشر.
- شعر ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق د. محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- شعر إدريس اليابسي. جمع وتحقيق د. عبدالرزاق حسين، مخطوط في مكتبتي.
- الصلة. ابن بشكوال- الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.
- صورة الأرض. ابن حوقل - منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩.
- طبقات الأمم. صاعد اللغوي - بيروت ١٩١٢م.
- عصر المرابطين والموحدين بالأندلس. محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م القاهرة.

- عقود الجمان في شعراء هذا الزمان. ابن الشعار الموصلي (مخطوط مكتبة أسعد أفندي رقم ٢٣٢٣، ٢٣٣٠).
- عنوان الدراية للغبريني، تحقيق عادل نويهض، بيروت ١٩٦٩م.
- فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی، تحقیق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.
- قلائد العقیان ومحاسن الأعیان للفتح بن خاقان، تحقیق د. حسین یوسف خریوش، مكتبة المنار، الزرقاء.. الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- کتاب التشبیہات من أشعار أهل الأندلس، تحقیق د. إحسان عباس دار الشروق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م - ١٤٠٦هـ.
- اللباب فی تهذیب الأنساب، لعز الدین الأثیر الجزري، دار صادر، بيروت ١٩٨٠/١٤٠٠م.
- مجاهد العامري، تألیف کلیلیا سارنللی تشرکوا، طبع لجنة البیان العربی الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦١م .
- مجلة العربي تصدر عن وزارة الإعلام بالکویت.
- المختار من شعر شعراء الأندلس. ابن منجب الصیرفی، تحقیق د. عبدالرزاق حسین، دار البشیر، عمان الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
- مختارات من الشعر المغربي والأندلسي، تحقیق إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- مسالك الأبصار فی ممالك الأمصار لابن فضل الله العمری (مخطوط دار الکتب المصریة رقم ٢٥٦٨ تاریخ).

- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد. ابن الدميّاطي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- مطمح الأنفس للفتح بن خاقان. تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. لعبد الواحد المراكشي - تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- معجم البلاغة العربي. د. بدوي طبانة، دار المنارة - جدة دار الرفاعي - الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار بيروت للطباعة والنشر.
- معجم الصدفى لابن الأبار - دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- المَغْرِبُ في حلى المغرب. ابن سعيد المغربي - تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م.
- المقتبس في أخبار بلد الأندلس. ابن حيان القرطبي - تحقيق عبدالرحمن علي الحجي، دار الثقافة بيروت ١٩٨٣م.
- المقتبس من أنباء أهل الأندلس. ابن حيان القرطبي - تحقيق د. محمود علي مكي دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- المقتضب لابن الأبار. تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية ودور أخرى - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري. تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر،
دار بيروت، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

- نكت الهميان في نكت العميان. صلاح الدين الصفدي - تحقيق د. أحمد زكي
القاهرة ١٣٢٩هـ- ١٩١١م.

- الوافي بالوفيات . صلاح الدين الصفدي. باعتناء هلموت ريتز وآخرين...

- وفيات الأعيان. ابن خلكان - تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت ١٩٦٨م.

المحتوى

٣	- تصدير
٥	- مقدمة
١٣	- تمهيد
١٣	- لمحة جغرافية
١٥	- لمحة تاريخية
١٦	- دخول المسلمين البليار
٢٣	- أصل مجاهد ونشأته
٢٧	- مجاهد وجزر البليار
٣٠	- علي بن مجاهد
٣٢	- جزر البليار مملكة مستقلة
٣٣	- السقوط الأول لميورقة
٣٥	- البليار في حوزة المرابطين
٣٥	- استقلال البليار مرة أخرى ودولة بني غانية

٣٨ - ميورقة في عهد الموحدين

٣٨ - السقوط الأخير

الفصل الأول

٤١ - الازدهار الثقافي والأدبي

الفصل الثاني

٥٣ - البلاطات الأدبية

٥٣ - بلاط مجاهد العامري

٦٠ - بلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان

٦٨ - بلاط سعيد بن حكم الأموي في منورقة

الفصل الثالث

٧٧ - موضوعات الشعر في البليار

٧٧ - المدح

٨٤ - الوصف

٨٤ - وصف الطبيعة

٨٩ - وصف أدوات المعركة

- الغزل ٩٣
- الإخوانيات والمراسلات ٩٨
- البليار في الشعر ١٠١
- موضوعات أخرى (اللهو والهجاء والزهد والرثاء) ١٠٦

الفصل الرابع

- شعراء البليار ١١١
- إدريس بن اليمان اليباسي ١١٢
- نسبه ١١٢
- أحواله وتنقلاته ١١٦
- أغراض شعره : ١١٨
- الغزل ١١٩
- المزج بين الطبيعة والغزل ١٢٣
- الخلط بين أدوات الحرب والغزل ١٢٥
- الاتكاء على التقليدية ١٢٦
- المدح ١٢٧

- ١٣٠ - الوصف
- ١٣٣ - اللهو
- ١٣٥ - الفخر
- ١٣٨ - أغراض أخرى
- ١٣٩ - التصوير في شعره
- ١٤٣ - شعره ومكانته
- ١٤٦ - ابن العطار اليابسي
- ١٤٦ - اسمه ونسبه
- ١٤٧ - أغراض شعره
- ١٥١ - ابن طنيز الميورقي
- ١٥٣ - الحميدي الميورقي
- ١٥٦ - عياش بن حوافر
- ١٥٨ - ابن عبدالولي الميورقي
- ١٥٩ - ابن عثير اليابسي
- ١٦٠ - محمد بن إبراهيم العبدري

١٦٢ - العماري الميورقي

١٦٤ - يحيى بن غانية الميورقي

الفصل الخامس

١٦٧ - الشعراء الوافدون على البليار

١٦٧ - الوافدون إلى ميورقة

١٦٩ - أبو جعفر بن البني

١٧٠ - أغراض شعره

١٧٥ - ابن اللبانة الداني

١٧٥ - اسمه ونسبه

١٧٧ - انتقاله إلى ميورقة

١٧٩ - موضوعات شعره في ميورقة

١٧٩ - المدح

١٨٧ - الغزل

١٨٩ - الغربة والشكوى

١٩٥ - ابن حمديس الصقلي

- اسمه ونسبه ١٩٥
- الوافدون إلى منورقة ١٩٩
- ابن يامن ٢٠٠
- أبو عبدالله الجباني ٢٠٤
- ابن سهل الإسرائيلي ٢٠٦
- ابن عميرة المخزومي ٢٠٩
- ابن العوام الإشبيلي ٢١٢
- كُثير الأديب ٢١٣

الفصل السادس

- النشر في البليار ٢١٥
- خاتمة ٢٢٤
- المصادر والمراجع ٢٢٦
- المحتوى ٢٣٣

